الباب الثامن

رميهن بالكيد والمكر

والغدر والتلون والكفر بالعشير ، وبالحمق والخرق

وحضهم من ثم على مخالفتهن وعدم الاعتماد عليهن

وهذا باب لقد توسعوا فيه وأكثروا من القول حتى لكأن المتصدى للكلام على النساء يكفيه أن لا يعدو هذا الباب ، فهو حسبه ، وهذا منهم لعمرى لون من المغالاة والجور والتحيف والتعصب على المرأة وإلا فمن ينكر أن من الرجال من هو أمكر وأغدر وأشد خرقاً وحمقاً ، ولكنهم لاحظوا فى ذلك طبيعة المرأة وأن هذه المساوى أكثر شيوعاً فى النساء وألزم للجبلة النسوية الضعيفة ، على أنه مما يجمل أن يلاحظ فى ذلك أنه ليس كل امرأة كذلك ، كما أنه ليس كل رجل خيراً من كل امرأة ، وإلا فمن النساء الطيبات العاقلات الخيرات ، وإن كن قليلات بالإضافة إلى من لسن كذلك ، نقول هذا وإن جاء فى الحديث (مثل المرأة الصالحة فى النساء مثل الغراب الأعصم [1] فى الغربان ، وجاء فى حديث سليمان بن داود وجدت إنساناً واحداً من ألف إنسان وفى كافة النساء ما وجدت امرأة « الجامعة لسليمان » ، «وبعد» فما يجب أن يلاحظ دائماً أن هذا المعجم من أخص

---

(١) وبقية الحديث : قيل يارسول الله : وما الغراب الأعصم ؟ قال : الذى إحدى رجليه بيضاء .

خصائصه أن يعرض لكل ما قيل فى النساء سواء أكان لهن أم عليهن .

* * *

قال الله عَزَّ وَتقدس على لسان عزيز مصر يخاطب امرأته التى راودت يوسف عن نفسه (إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيم) «قال الإمامُ الزَّمَخْشَرِىّ : وإنَّما استعظَم كيدَ النساء لأنَّه وإن كانَ فى الرجال إلاَّ أنَّ النِّساء أَلْطَفُ كيداً وأَنْفَذُ حِيلَةً ، وَلَهُنَّ فى ذلك نِيقَةٌ[1] ورفق ، وبذلك يَغْلِبْنَ الرجال ، قال : وَمنه قوله تعالى (ومِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ)[2] والقَصِيراتُ مِن بينهنَّ معهن ما ليس مع غيرهن[3] من البوائق — الدواهى — قال : وَعن بعض العلماء : إنِّى أُخاف من النساء أكثَر ممَّا أخاف من الشيطانِ ، لأنَّ الله تعالى يقول (إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً) وَقال للنساء (إنَّ كيدكن عظيم) .

وَفى الحديث الشريف : رأيت النار فلم أرَ كاليوم منظَراً قطّ ، وَرأيتُ أكثَر أهلها النِّساء ، قالوا : لِمَ يَا رَسولَ الله ؟ قال : بِكُفْرِهِنَّ ، قِيلَ : يَكْفُرْنَ بالله ؟ قال : يَكْفُرْنَ العَشير ، ويَكْفُرْنَ الإحسان ، لَوْ أَحْسَنْتَ إلى إحْدَاهُنَّ الدَّهرَ ، ثُمَّ رأَتْ منك شيئا ، قالت : ما رأَيتُ منك خيراً قطّ . «المرادبالعشير : الزوج ، فى المعاشرة ، وهى : المخالطة» . ومصداق هذا الحديث

---

(١) النيقة : اسم للتأنُّق فى الأمر .

(٢) المراد بالنفّاثات النساء الكيّادات تشبيهاً لكيدهن بالسِّحْرِ والنفث فى العُقَد ، أو اللاتى يفتنّ الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك .

(٣) الظاهر أن الزمخشرى يريد بالقصيرات ضد الطويلات ، من قِصَر القامة قال كثير عزة من أبيات ستأتى * شَرّ النِّساء البَحَاتِرُ * والبحاتر : القصيرات ولعل الزمخشرى يريد بالقصيرات المقصورات فى البيوت ، أى المخدرات .

فى الواقع المشاهد كثيراً جداً ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن الرُّمَيْلِيَّةَ زوج المعتمد ابن عباد ملك اشبيلية وأحد ملوك الطوائف بالأندلس وذلك أن المعتمد كثيراً ما كان يَتَنَكَّرُ هو ووزيره الشاعر ابن عَمَّار ، ويَخرُجان إلى الموضع المعروف بِمَرْج الفِضَّة ، وهو مكانٌ بهيجٌ يَسُرُّ الناظرين ، فبينما المعتمد عَشِيَّةً على ضفَّة الوادى إذْ هَبَّت ريح فزردَته ، فقال لابن عَمَّار : أَجِزْ صَنَعَ الريح من الماء زَرَد فتلكَّأ ابن عمار ، وبَدَرَته امرأة كانت بمقربة منهما فقالت : * أىّ دِرْعٍ لِقتال لو جَمَدْ * فتَعَجَّب ابنُ عبَّـــاد من حُسنِ ما أتَتْ به مع عجز ابن عمَّار وإفحامِه ، ونَظَر إليها فرَأى صُورَةً جميلةً . فوقَعَت بقلبه ، وانصرف إلى قصره بعد أنْ وَكَلَ بها أحدَ خِصْيانِه ، وأمَرَهُ بحَمْلِها إليه ، فلمَّا وصلت إليه استَفْهَمها عن نَسَبِها ، فأخبَرَتْه أنه أى أباها — من صِنْفِ الماشيةِ المُشْتَغِلينَ بالعكوف على الدَّواب . . . وأنَّها خِلْوٌ من الزَّوج ؛ فتزَوَّجها وقطعا حيناً من الدهر فى سرور مُتوالٍ وغبطة يُحْسَدَانِ عليها ، وحَدَث أن رأت النِّساء يوماً يَمشينَ فى الطِّين ، فاشْتَهَتِ المَشْيَ فيه ، فأمرَ المعتمد فسُحِقَت الطُّيوبُ وَذُرِّيَت فى ساحَة القصر حتى عمَّته ، ثُمَّ نُصِبَت الغَرابيل وَصُبَّ فيها ماءُ الوَرد على الطُّيُوب ، وعُجِنَت بالأيدى حتى صارت كالطين ، وخاضَتْه مع جواريها ، وكان يوماً مَشْهُوداً : وغاضَبَها فى بَعض الأيام ، فأقسَمَت أنَّها لم تَرَ منه خيراً قط . . . فقال لها : ولا يَوْمَ الطين . . . فاستَحْيَت واعتذرت . . .

* * *

وَمن كلام المأمون : إنَّ النساء شَرٌّ كُلُّهُنَّ ، وشَرُّ ما فيهنَّ أن لا غَناءَ بهن . ومَرَّت بسُقراطَ امرأةٌ وهو يَتَشَرَّق — يَخْضِبُ شَعَرَه بالزعفران

ونحوه مِن كلِّ صبْغٍ أحمرَ — فقالت : يا شيخ ، ما أقبحك ! فقال : لولا أنَّكِ من المَرَايا الصَّدِئَةِ لغَمَّنِي ما بان مِن قُبْحِ صُورَتِي فيك . . .

وقال وهب بن مُنَبِّه : عاقَبَ الله المرأةَ بعَشْرِ خصال : شِدَّة النِّفَاسِ ، وبالحَيْض ، وبالنَّجاسَةِ في بَطنِها وفَرْجِها ، وجَعْلِ ميراثِ امرأتَيْنِ ميراث رَجل واحدٍ ، وشهادَةِ امرأتينِ كشهادَةِ رَجل ، وجَعْلِها ناقِصَةَ العقل والدِّين — لا تُصَلِّيَ أيامَ حَيْضِها ، ولا يُسَلَّمُ على النِّساء ، وليس عليهن جُمعَةٌ ولا جماعة ، ولا يكونُ منهن نَبيٌّ ، ولا تُسافِرِ إلاَّ بوَلِيّ . . .

وَقَالَ شاعر :

النِّساءُ ناقِصاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ ما رأينا لَهُنَّ رأياً سَنِيًّا
ولِأجْلِ الكمالِ لم يَجْعَلِ اللـــهُ تعالى مِن النساء نَبيًّا

وَقَالوا : لا تَدَعْ أُمَّ صَبِيِّكَ تَضْرِبُه ، فإنَّهُ أَعْقَلُ منها وإن كانَ طِفْلا . . .

* * *

وكانَ يقال : ما نُهيت امرأةٌ قَطُّ عن شيء إلاَّ أتَتْه ، وفى هذا المعنى يقول طُفَيل الغَنَوِى :

إنَّ النساء كأشجارٍ نَبَتْنَ مَعاً منها المُرارُ وبَعضُ المُرِّ مأكولُ
إنَّ النِّساء مَتَى يُنْهَيْنَ عن خُلُقٍ فإنَّهُ واقِعٌ لا بُدَّ مَفعولُ

(المُرارُ : شجر مُرّ) .

* * *

وَقَالوا : إذا وُصِفَتِ المرأةُ بالعقل فهى غَيرٌ بَعيدَةٍ مِن الجهل — الحمق — :

وَرأى سقراطُ امرأةً تحمل ناراً فقال : نارٌ تحملُ ناراً ، والحامل شرّ من المحمول .

وَقال النّبيّ سليمان : امشِ وراء الأسَدِ ولا تمشِ وراء المرأة .

وَقالوا : اعصِ هواكَ والنساء واصنَعْ ما شئت . . .

وَقال الفيلسوف الألمـــانى الأشهر آرثرشُوبنهور — وكان فى طليعة الساخطين عَلَى المرأة — : يسألونني عن الأفعَى اللّينة الملْمَس ! وهي أمامَهم فى كُلِّ وقت ! بل فى كُلِّ لحظة ! هى المرأة ! وقَبلَ شوبَنهُور قال على بن أبى طالب : المرأة عقرب حُلْوُ اللّسْبَة . «يقال : لَسَبَت الحَيّة والعقربُ والزُّنبورُ تلسِبُه وتَلْسَبُه لَسْباً : لَدَغَتْه ، وأكثر ما يُستعمَلُ فى العَقرب» .

وَقيل لحيَّةٍ سامَّة : أكانَ يَسُرُّكِ لو خُلِقتِ امرأةً ؟ قالت : أنا امرأةٌ ، غيرَ أنَّ سُمّى فى الناب وسُمُّها فى لسانِها .

وَقال شوبَنهور : إنَ المرأةَ التى تَضْطَرُّنى إلى أنْ أحْتَرِمَها ما خُلِقَتْ ولن تُخلق . . .

وَقال : إنَّ إطلاقَنا على المرأة «سيدة» لغةٌ يجب القَضاء عليها ، حتى لا يبقى غيرُ نساءٍ غارِقاتٍ فى الشئون المنزلية .

وَقال : اتْرُكوا للمرأة حُرِّيَّتَها ولا تجعلوا عليها رقيباً ثُمَّ قابلونى بعد سنة وأخبِرُونى عن النتيجة . . .

وَقالوا : مَن أطاعَ عِرْسَه لم يَنْفَعْ نَفْسَه «العِرس : الزَّوجة» .

وَقالوا : شاوروهُنَّ وخالِفوهُنَّ .

وقالوا : أكثِروا لهُنَّ من «لا» فإنَّ «نَعَم» تُغْرِيهِنَّ بالمَسْأَلَة — أى السُّؤال والطلب — :

وقال شاعر :

تُعَيِّرُنِى بالغَزْوِ عِرْسِى وما دَرَتْ بأنِّى لها فى كُلِّ ما أَمَرَتْ ضِدُّ

وعارَضَتِ امرأةُ عُمَرَ ، فى أمرٍ يُدَبِّرُه ؛ فقال : ما لَكُنَّ وأُمورَ الرِّجال ! إنَّما أَنْتُنَّ لُعبَةٌ ، إن كانت لنا بِكُنَّ حاجَةٌ دعَوْنا كُنَّ .

وقال أبو تمّام :

أَهُنَّ عَوادِى يُوسُفٍ وصَواحِبُهْ فَعَزْماً ، فَقِدْماً أَدْرَكَ النُّجْحَ طالِبُهْ(١)

وقال المتنبى :

ولِلْخَوْدِ مِنِّى ساعَةٌ ثُمَّ بَيْنَنا فَلاةٌ إلى غَيرِ اللِّقاءِ تُجابُ

« الخَوْدُ مِن النساء : الشابَّةُ الناعِمَـــة ، وتُجابُ : تُقْطع ، يقول : إنَّما أَصْبَحَت المرأةَ قَدْراً يَسِيراً ، ثمَّ أَبْتَعِدُ عنها ، فيكون بينى وبينها صحراء أَقْطَعُها إلى غير لقائها ، وكانَ المُتَنَبِّى عِزْهاةً عَزُوفَ النفس عن النساء ، ومالَهُ والغوانى

(١) هذا البيت مَطْلَعَ قصيدة لأبى تمام فى عبد الله بن طاهر ، وقوله : أَهُنَّ فالهمزة فيه للاستفهام ، والمراد به التقرير ، يقول : إنَّ النساء هُنَّ اللَّواتى حاوَلْن صَرْفَ يوسفَ عن تُقاه وَرُشْدِه ، وإذَن فاعْزِم عَزْماً قوياً على مُخالَفَتِهِنَّ حَتَّى تُدْرِكَ النُّجْحَ ، فإن سبيل إدراك النُّجْحَ ، هو تصميم العزم وإمضاء النِّيَّة ، يُرْوَى أنَّ أبا العَمَيْثَل وكان أميناً لخزانة أدب عبد الله بن طاهر ، وكان قد طرح هذه القصيدةَ لغموض هذا المَطْلَع ، فلما عاتَبَه أبو تمام على هذا الإهمال قال له أبو العميثل : — لم لا تقول ما يُفهم ؟ فأجابهُ أبو تمام : وأنت لِمَ لا تفهم ما يقال !

ولا همَّ له إلا طِلابُ المَجْدِ والطموح إلى السُّؤْدُدِ وجسيمات الأمور .

* * *

وقال شاعر (من أبيات الحماسة) — :

إنَّ النِّساء وإنْ ذُكِرْنَ بِعِفَّةٍ ... فِيما يُظاهِرُ فى الأُمورِ ويُكْتَمُ
لَحْمٌ أطافَ به سِباعٌ جُوَّعٌ ... ما لا يُذَادُ فإنَّهُ يُتَقَسَّمُ
اليومَ عندكَ دَلُّها وحَدِيثُها ... وغداً لِغَيْرِك كفُّها والمِعْصَمُ
كالخَانِ تَسْكُنُهُ وتَرْحَلُ غازِيا ... ويَحُلُّ بَعْدَكَ فِيهِ مَنْ لا تَعْلَمُ

وقال بشار بن بُرد :

لا يُؤْنِسَنَّكَ مِن مُخَدَّرَةٍ ... قَولٌ تُغَلِّظُهُ وإنْ جَرَحا
عُسْرُ النِّساء إلى مُياسَرَةٍ ... والصَّعبُ يُمْكِنُ بعد ما جَمَحا

وقال آخر :

تَمَتَّعْ بِها ماساعَفَتْكَ .ولا تَكُنْ ... عليك شَجًا فى الحَلْقِ حين تَبِينُ
وإنْ هِيَ أَعْطَتْكَ الأَيانَ فإنَّها ... لِغَيرِك مِن خُلَّانِهـا سَتَلِينُ
وإنْ حَلَفَتْ لا يَنْقُضُ النَّأْيُ عَهدَها ... فليس لمخضوب البَنـان يَمِينُ

وقال الشاعر الأندلسى الظريف يحيى بن الحكم الملقب بالغزال :

يا راجِياً وُدَّ الغوانِى ضِلَّةً ... وفُؤادُه كَلِفٌ بِهِنَّ مُوَكَّلُ
إنَّ النساء لكالسُّرُوج حقيقةً ... فالسَّرْجُ بِمَرْجُكَ رِيثما لا تَنْزِلُ
فإذا نَزَلْتَ فإنَّ غيرَكَ نازِلٌ ... ذاكَ المكانَ وفاعل ما تَفْعَلُ

أو منزلُ المجتاز أصبح غادياً عنه وينزلُ بعدَه مَن يَنزلُ
أو كالثِّمارِ مُباحَةً أغصانُها تَدْنو لأوَّلِ مَن يَمُرُّ فيأكُلُ
أعْطِ الشبيبةَ — لا أبالكَ — حقَّها منهـا فإنَّ نعيمَها مُتَحَوِّلُ
وإذا سُلِبتَ ثيابَها لم تَنتفِعْ عندَ النِّساء بكلِّ ما تَستَبْدِلُ

وقال العُتْبيُّ : سَمِعتُ أبي يُحدِّث عن ناس من أهل الشام : أنَّ أخَوَيْن كان لأحدهما زَوجةٌ ، وكان يَغيبُ ويَخلُفه الآخرُ في أهله ، فهَوِيَتْهُ امرأةُ الغائب ، فأرادَتْه على نفسِها ، فامتَنَع ، فلمَّا قدِمَ أخوهُ سألها عن حالها ، فقالت : ما حالُ امرأةٍ تراوَدُ في كُلِّ حين ! فقال : أخي وابنُ أُمِّي ! وَإنِّي لا أَفْضَحُه ! ولكن لله عليَّ ألاَّ أُكلِّمَهُ أبداً ، ثُمَّ حجَّ وحجَّ أخوه والمرأة ، فلمَّا كانوا بوادِي الدَّوم[1] هَلَكَ الأخ ودَفَنوهُ وقضوا حجَّهم ورجَعُوا ، فمَرُّوا بذلك الوادي ليلا ، فسَمِعُوا هاتفاً يقول :

أجِدَّكَ تَمضِي الدَّومَ ليلا ولا تَرى عليكَ لأهلِ الدَّوم أنْ تتكلَّما[2]
وبالدَّومِ ثاوٍ لو نَوَيتَ مكانَهُ ومَرَّ بوادِي الدَّوم حيًّا لَسلَّما

فظَنَّت المرأة أنَّ النِّداءَ من السماء ، فقالت لزَوجها : هذا مَقامُ العائذ ، كانَ من أخيك ومِنِّي كنت وكنت ، فقال : واللهِ ، لو حَلَّ قتلُكِ لوَجَدْتِني سَريعاً ، ففارَقَها وضَرَبَ خيمةً على قَبْرِ أخيه وقال :

هَجَرْتُكَ في طُولِ الحياةِ وأبْتَغي كَلاماً لمَّا صِرْتَ رَمْساً وأعْظُما
ذَكَرْتُ ذُنُوباً بَيْنَنا فيكَ كُنْتَ اجتَرَمْتَها أنا مِنكَ فيها كُنتُ أسوَأَ وأظْلَما

---

(١) مكان بالحجاز .

(٢) تعبير عربي يريدون : أبِجِدِّ هذا منك وقيل غير ذلك انظر اللسان مادة (جدد) .

وَلم يزل مقيما حتى مات ودُفِن بجنب أخيه ، فالقبران معروفان .

«الرمس : تراب القبر ، وأسْوَا أصله أسوأ بالهمز وسهل لضرورة الشعر» .

* * *

وكانَ عند رَجل من قُرَيْش امرأةٌ يُحِبُّهَا ، فَسافَر عنها ، فقالت له : أُشَيِّعُكَ فَشَيَّعَتْه ثلاثَ مَراحلَ ؛ فلما مَضَى قالت لخادِمها : نَاوِلْنِي بَعْرَةً وَرَوْثةً وحَصاةً ، فناوَلَها ، فالْقَتِ الرَّوْثَةَ وقالت : راثَ[1] خَبَرُكَ ، وأَلْقَت البَعْرَة وقالت : وَعَرَ سَفَرُك ، وَأَلْقَتِ الْحَصاةَ وقالت : حُصَّ أَثَرُك[2] ، فَسَمِعَها رجل على الماء فلَحِقَهُ ، فقال له : ما هذه منك ؟ قال : امرأتي وأَعَزُّ النَّاسِ إِلَيَّ فأخبره بالخبر ، فقامَ على الماء ، فلمَّا أمْسى أقبل نحو منزله فوجَد معها رجلا ، فقتلهما جميعاً . . .

* * *

وَرَوَوا : أَنَّ أَرْدَشير سار إلى الْحَضْرِ[3] وكان ملك السَّوَادِ مُتَحَصِّنًا فيها وكان من أعظم ملوك الطوائف[4] ، فحاصره فيها زمانًا لا يجد إليه سبيلاً حتى

---

(١) راث : أبطأ .

(٢) حص : قطع .

(٣) الحضر : قصر بحيال تكريت بين دجله والفرات .

(٤) الطوائف : ملوك الطوائف هم الملوك الذين أسند كل ملك منهم بناحيته بعد تغلب الاسكندر على دارا من دارا ومنهم فرس ونبيط وعرب وكان غرض الاسكندر من ذلك تشتيت كلمتهم وتجزيهم وغلبة كل رئيس منهم على الصقع الذى هو به فينعدم نظام الملك والانقياد إلى ملك واحد يجمع كلمتهم وقد استمر ملكهم ٥١٧ سنة من ملك الاسكندر

رَقِيَت ابنة ملكِ السَّوادِ يومًا ، فرأت أردشير فعشِقتْه فنزلت وأخذت نُشَّابةً وكَتبت عليها : إن أنت شرطت لى أن تتزوجنى دللتك على موضع تفتتح منه هذه المدينة بأيسر حيلةٍ وأخفّ مؤونةٍ ثم رمت بالنُّشابة نحو أردشير فكتب الجواب فى نشابة : لك الوفاء بما سألت ثم ألقاها إليها فكتبت إليه تدله على الموضع فأرسل إليـــه أردشير فافتتحه ودخل هو وجنوده ، وأهل المدينة غارُّون[1] فقتلوا ملكها وأكثرَ مُقاتِلَتِها وتزوجها ، فبينما هى ذات ليلة على فراشه أنكرت مكانها حتى سهرت لذلك عامّة ليلتها فنظروا فى الفِراشِ فوجدوا تحت المِحْبَس[2] وَرَقَةً من ورقِ الآسِ قد أثَّرتْ فى جلدِها ، فسألها أردشير عند ذلك عما كان أبوها يغذوها به ، فقالت : كان أكثر غذائى الشهد والزبد والمخ ، فقال أردشير : ما أحد يبالغ لك فى الجباة والاكرام مبلغ أبيك ، ولئن كان جزاءه عندك على جهد إحسانه مع لطف قرابته وعظم حقه جهد إساءتك ما أنا بآمن لمثله منك ، ثم أمر بأن تُعقَدَ قرونها بذنب فرسٍ شديدِ المِرَاحِ جَمُوحٍ ثم يُجْرَى ، ففُعِلَ ذلك حتى تساقَطتْ عُضْوًا عُضوًا .

إلى ظهور أردشير بن بابك بن ساسان الذى ظفر بهم واستولى على ملكهم وساق صاحب الأغانى (ج ٢ ص ١٤٠ طبع دار الكتب المصرية) والطبرى قسم أول (ص ٨٢٩ طبع أوربا) وكتاب أخبار النساء (٨٧) هذا الخبر ونسبه إلى النضيرة بنت الضَّيْزَن مع سابور ابن اردشير فانظرها وانظر معجم ياقوت فى اسم الحضر .

(١) غارُّون : غافلون .

(٢) المحبس (بكسر الميم وفتح الباب) المقدمة وهى ثوب يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه .

ولأبي نواس فى ذمهنّ :

أيا مَن ليس يكفيها خَليلٌ ... ولا ألفا خليلٍ كُلّ عامِ
أراكِ تقيّةً من قومِ مُوسَى ... فَهُمْ لا يَصْبِرُونَ على طعامِ

وَقَال ابنُ الرومى :

يستَغْفِرُ الناسُ بأيديهِمُ ... وَهُنَّ يَسْتَغْفِرن بالأرْجُلِ
فيا لَهُ مِن عَمَلٍ صالحٍ ... يَرْفَعُه الله إلى أسْفلِ

وَقَال شاعر :

كُلُّ أُنْثَى وإن بَدَا لك مِنها ... آيَةُ الحُبِّ حُبُّها خَيْثَعُورُ

« امرأة خَيْثَعُورُ : لا يدوم وُدُّها » .

وفى ناوه المدح وتحبيرهن العاشقين :

يقول سعيد بن حميد :

ما كُنتُ أيَّامَ كُنتِ راضيَةً ... عَنِّى بذاكَ الرِّضا بمُغْتَبِطِ
عِلمًا بأنَّ الرِّضَا سَيَتْبَعُهُ ... مِنكِ التَّجَنِّى وكَثْرَةُ السَّخَطِ
فَكُلُّ ما ساءنِى فَعَنْ خُلُقٍ ... مِنكِ وما سَرَّنِى فَعَنْ غَلَطِ

وفى هذا المعنى يقول أبو العباس الهاشمىّ ويُعرَفُ بأبى العِبَر :

أبْكِى إذا غَضِبَتْ حَتَّى إذا رَضِيَتْ ... بَكَيْتُ عندالرِّضاخَوفًامِنالغَضَبِ
فالمَوتُ إنْ غَضِبَتْ والمَوْتُ إن رضِيَتْ
إنْ لَمْ يُرِحِّ السُّلُوُّ عِشْتُ فِى تَعَبِ

وقال العباس بنُ الأحنف :

إذا رَضِيَتْ لم يَهْنِنى ذلك الرِّضا ... لِصِحَّـــةِ عِلْمى أَنْ سَيَتْبَعُهُ عَتَبُ
وأَبْكِى إذا ما أَذْنَبَتْ خَوْفَ عَتْبِها ... فأَسْأَلُها مَرضاتَها وَلها الذَّنْبُ
وصالُكُمُ هَجْرٌ وَقُرْبُكُم قِلًى ... وعَطْفُكُمُ صَدٌّ وسِلْمُكُمُ حَرْبُ
وأَنتُم بِحَمْدِ اللهِ فِيكُم فَظاظَةٌ ... وَكُلُّ ذَلولٍ مِن أُمورِكُمُ صَعْبُ

وما أحسن قولَ القائل :

وَمَا فى الارض أشقَى من مُحِبٍّ ... وإن وَجَدَ الهوَى حُلو المَذاقِ
تَراه باكياً فى كُلِّ حِينٍ ... مَخَـــافَةَ فرقةٍ أَوْ لاشْتِياقِ
فيَبْكى إنّ نَأَوْا حذَراً عليهم ... وَيبكى إن دَنَوْا خوفَ الفِراقِ
وتسخَنُ عَينُه عنـــد التَّنائى ... وتَسْخَنُ عينه عند التلاقى

وَقَال أعرابىٌّ :

شَكَوْتُ فقالَت كُلُّ هذا تَبَرُّما ... بِحُبِّى أَراح اللهُ قَلْبَكَ مِن حُبِّي[1]
فَلَمَّا كتمْتُ الحُبَّ قَالت لشَدَّ ما ... صَبَرْتَ وما هذا بِفِعلِ شَجِى القلب
وأَدْنُو فَتُقْصِينى فأَبْعُد طالِباً ... رِضاها فتَعْتَدُّ التباعُدَ مِن ذَنْبى
فشكْواىَ تُؤْذِيها وصَبْرِى يَسُوءُها ... وتَجْزَعُ مِن بُعدِى وتَنْفِرُ من قُربى
فيا قوم هل من حِيلَةٍ تَعرفونَهـــا ... أَشيروا بِها واستوجِبوا الشكرَ من ربِّى

وهُنا نورد كلمة للشاعر الفردى موسيه فى كتابه « اعترافات فتى العصر » وبها نختتم هذا الباب ، وهذه الكلمة ونحلها الشاعر لصاحب له أخذ ينصحه

---

(١) الكامل ج ٣ ص ١٥٠ انظره للشرح .

بها بعد أن خانته خليلته وأخذه من جرّاء ذلك المعلم المقعد[1] ، قال الشاعر : قال ديزييه : أيْ أُوكتافُ ، يلُوح لى من شواهد أحوالك أنّك ترَى فى الحب رأى الشعراء والرّوائيين ، كما وصفوه في تصانيفهم ، فأنت عَلَى الأقوال لا عَلَى الفعال تُعوّل وتعتمد . ومنشأ هذا السَّفْسَطَة والقياسُ الفاسِدُ ، وهذا يجلب عليك شرًّا كثيراً .

«فاعلم رعاك الله أنَّ الشاعرَ يُصورُ الحب كما يُصورُ النَّحّاتُ الجمالَ ، وكما يَبتدع الموسيقارُ النَّغَم ، أعْنى أنَّ هؤلاء الثلاثةَ لمَّا كانت الطبيعةُ قد وهبتهم جهازاً عَصَبياً دقيقاً حساساً تراهم يَنتقُون ويختارون بحِذْق وتَحَمُّس أصفى وأنقى عناصر الحياة وأجملَ وأبدعَ أصنافِ المواد التى منها يؤلفون مُلحَهم وتُحَفَهم ، وأشجى وأرخَم أصوات الطبيعة ، يروى أنه كان فى أثينا عَدَدٌ جَمٌّ من الفتيات الحسان ، فقام المصور بركسيتيل فصورَهُنَّ جميعاً واحدة بعد أخرى ، وكانت كل حُسناء من هؤلاء مهما أفرط جمالُها لا تخلُو من عَيب ولو فى مُنتَهى الغموض والدِّقّة ، فعمدَ ذلك المصورُ إلى هذه المجموعة العجيبة فاختار من كل واحدة أمْلحَ ما فيها ، وكوّن من هذه المختارات صورةً جاءت الغاية القصوى فى الحسن والاحسان ، والمَثَل الأعْلى فى الإبداع والإتقان — وسماها فيناس «الزُّهَرة» ربّة الجمال ، وكذلك أول من ابتدع آلة الموسيقى ووضع لهذا الفن قواعده وقوانينه كان امرأ قد طالما أصْغَى إلى وسوسة النسيم فى عذَبات الأغصان ، وسجعِ الحمام على منابر القُضْبان ، وكذلك الشعراء الذين عرَفوا الحياة ، لما رأوا الجَمَّ الكثير من غَدرَات العشاق ، وفَجرَاتِ من كانوا

(١) ترجم هذه الكلمة لمجلة البيان المرحوم محمد السباعى .

يظهرون الصبابات والأشواق ، وأبصروا أيضاً ما قد يبلغه الهوى الصادق أحياناً من عليا أفلاك اللذة الفردوسية ، والغبطة الملائكية ، فصلوا من الطبيعة الإنسانية كل ما يدنس أردانها ، ويشوه محاسنها ، من الخبائث والخسائس ، فخالفوا تلك الأسماء الغريبة الخفية التى ما برحت تنتقل على ألسنة الخلق من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل — «دافنيس» و«شلو» و«هير» «لياندار» و«بيراميس» و«ثسبى» .

«فالذى يفتش فى الحياة الحقيقية الواقعية عن مثل ما كان لتلك الأسماء الخياليـــة من الحب الصادق والهوى العُذْرى ، كالذى يفتش فى الشوارع العمومية عن نساء فى مثل محاسن «فيناس» أو كالذى يشتهى أن يسمع من الحمام والبلابل ألحانَ الموسيقار البديع «بيتهوفن» .

الكمال لا يوجد ، فتَفَهُّمُ معانيه هو أقصى ما يبلغه الذهن البشرى من ذوى النبوغ والعظمة ، ولكن الرغبةَ فى امتلاك الكمال هو أقصى درجات الحمق «والسخافة» .

«افتح نافذتك يا أوكتاف — ألاَ ترَى أمامَك اللانهاية ؟ ألا تشعر أن الجوَّ لا حدَّ له ولا غاية ؟

ألا ترى إن عَقلكَ يوحى إليك بهذا ؟ ولكن هل تستطع إدراك معنى هذه اللانهاية ؟ وهل فى مقدورك وأنت الفانى ابنُ الفانى والمحدود ابن المحدود والمولود بالأمس والهالك غداً — هل فى مقدور من هذا شأنه وهذه حاله أن يتصور أن شيئاً يكون بلا غاية ولا نهاية ؟ ألاَ فاعلَمَنْ أنَّ هذا المشهد الهائل — مشهد اللانهاية ما زال أعظمَ داع إلى الجنون فى كل قطر من أقطار

العالم ، وهذا المشهد مشهد اللانهاية هو المصدر الذى نبعت منه الأديان والعقائد .

ولقد رُوى أن البطل الرومانى العظيم « كارتو » قد انتحر ليخرج من العالم المحدود إلى العالم العديم الحدود ، أعنى أنه ألقى ما يملك من عالم الفناء ليملك عالم الخلود واستغنى عن هذه الحياة المحصورة ليُحْرز تلك اللانهاية ، ومن أجل إحراز هـــذه اللانهاية ألقى القديسون من طوائف عيسى والمتقون والأبرار والصالحون الأخيار بأنفسهم على ألسنة النيران الحامية ، وفى لهوات الوحوش الضارية وقذفت شيعةُ «الهيوجينوت»[1] فى يوم القديس «بارثيلوميوس»[2] وغيره أنفسهم على أسنّة رماح الكاثوليك وظُبىَ سيُوفهم ، وكل شعُوب الدنيا وأمم الأرض قد مَدُّوا أذرعهم إلى هذه اللانهاية ، وودوا لو يَقْذِفُون بأنفسهم فى أعماقها ، وكم ترى المجنونَ يود لو يملك السماء ولـكنِ العاقل الحكيم يُعجَب بها ويَطْرَب فيَخرُّ لها ويركع ، وبذلك يَرضَى ويقنع ، فالكمال كاللانهاية كلاهما لا يُنالُ ولا يدرَك . وما لنا خُلقَ ولا وُجِدَ ، وما كان لنا أن نرجو الكمال فى أى كائن أو نبتغيه فى أىّ شىء — مِن حب أو جمال أو سعادة أو فضيلة ، ولـكن على المرء أن يتمادى ويغرق ما استطاع فى حب الكمال ليكون فاضلا طاهراً سعيداً .

«فهَبْك تملك صورة من صنع المصور الخالد «روفائيل» وإنك تبصر فى هذه الصورة آية الكمال ، ثم هبك بينما تتأملها ذات يوم وتُدَقِّق النظر فى أجزائها وتفاصيلها عَثَرْت فى بعض أركانها على عيب عضو مكسور مثلا

---

(١) بروتستانت الفرنسيس .

(٢) يوم المذبحة الشهيرة التى هلك فيها آلاف عديدة من البروتوستانت فى باريس .

أو عضلة : غير طبيعية كالذى يرى فى إحدى ذراعى (المصارع القديم) فإن ذلك سيَحْزِنُك بلا شك ، ولـكنه لا يحملك على إلقاء الصورة فى النار ، بل أقصى ما تقوله ، إذ ذاك هو أنّ الصورة لم تَبْلُغْ حد الـكمال ولـكن فيها من المحاسن الجمّ العديد .

(إن من النساء ما يكون لهن من كرم الطباع وحسن الوفاء ما يمنعهن من اتخاذ حبيبَين فى وقتٍ واحد ، وعساك ظَنَنْتَ خليلتك من هذا الصِّنْفِ ، وحبذا لو كانت ، ولـكنك علمت أنها خدَعَتْك ، أفـكانَ ذلك موجباً لأن تَحْتَقِرها وتسىء معاملتها وتراها أهلا لبضغك وَمقْتِك) .

(فهب يا أُوكتاف هذه المرأة لم تخْدَعك ولم تَخُن عهدك ولم تشرك بك حبيباً اخر ، أفـكان حبها إياك مع هذا كُلِّهِ بالغاً حد الـكمال أو قُرابَه ، كلا ، فما كان أبعدَه من الـكمال من كل ذلك وما كان أقله وأضأله وأشدَّه تقيُّداً بأوضاع الدنيا وتقاليد الحياة من الغش والنفاق والرياء .

وحسبك دليلا أنّها كانت مِلكا لغيرك من قبلك ، وستـكون ملـكا لغيرك من بعدك .

(فتأمل ذلك تُدْرِكْ أن الذى يُطِيحُ بك الآن فى مهواة اليأس هو معنى الـكمال الذى أسندته إلى خَليلتك ثم اتضح لك أنه زورٌ وباطل ، فمتى علمت أن هذا المعنى — أى الـكمال — لم يكن فى ذاتِه إلا ضئيلا بشرياً محدوداً علمت أن ارتفاعك أو هبوطك درجةً فى ذلك السُّلم العَفِن القَذِرِ سُلَّم النقص والعيب البشرى إنما هو أمر حقير تافه .

(أنت لا تنـكر أنّ خليلتك قد كانت تحب وسوف تجد أناساً غيرك ،

فعَسَاك قائلا لى إن هذا لا يهمُّكَ ما دامت تحبك ولا تشرك معك غيرك ولـكنى قائل لك إذا كنت تُوقن أنهـــا قد أحبَّتْ سواك فسيان كان ذلك بالأمس أو منذ عامين ، وإذا كنتَ توقن أنها سيكون لها معشوقان فماذا يهمك ، كان ذلك غداً أو بعد عامين ، وإذا كان حبها إياك لا يكون إلا مرة واحدة فماذا يعنيك دام ذلك عامين أو ليلة واحدة أأنت رجل يا أُوكتاف ؟ أفلا ترى الأوراق عن شجرها تتساقط انتشاراً ؟ والشمس تشرق ثم بالحجاب تتوارى ؟ . . .

أفلا تسمع ساعةَ الحياة تَدُقُّ لَدَى كلِّ نَبضة من فؤادك ؟ فهل بين حب عام وحب ساعة كل ذلك الفرق العظيم فى نظرنا نحن معشرَ السُّخفاء والحمق وإننا لَنُبصر من هذه النافذة — وشِبْرٌ عَرضها — أعماق اللانهاية .

أنتَ تسمى المرأة التى تمحضت الحب مُدة عامين مخلصةً وَفِيَّةً ؛ فلديك فيما يظهر لى تقويمٌ يبين لك كم مرة تجف لثماتُ الرجال على شفاه النساء ، وأنت ترى بوناً شاسعاً بين التى تَهَبُ نفسها من أجل المال والتى تهب نفسها من أجل اللذة ، وبين من تهب نفسها عن باعث كبرياء وزهو وبين من تهب نفسها عن وفاء وإخلاص .

وان فيمن تشترى من النساء من هن أغلى ثمناً من غيرهن ، فأمَّا من تحوزهن عن باعث زهو وتعاظم فإنك تُظهر من الأُبَّهة والجلال لبعضهن أكثر ما تظهر للبعض الآخر ، وأما من تخلص لهن الود وتمحضهُنَّ الوفاء فإلى بعضهن تهب نصفَ قلبك وإلى البعض ثُلُثَه وإلى البعض ربعه ، حيث مُتفاوِت أَقْدَارهِنَّ فى التربيـــة والأدب ، وفى الحسَب والنَّسب ، وفى الجمال

والدلال ، والشِّيم والخِصال ، وحسب الظروف وأحياناً حسب الساعة وحالتها الجوِّيةَ وما قد شربت من أصناف الخمر فى غِذائك .

(أنت تملك النساء اليوم يا أُوكتاف بفضل زَهْرَة صباك ونار شبابك وحسن صورتك ، وأنت تُرَجِّلُ رأسَك وتسوى طُرَّتك ولكنك لعين هذه الأسباب لا تعرف طبائع المرأة وكنه حقيقتها . . . «تناسلُ الخلائق أهم أغراض الطبيعة ، فأينما طرحت بَصَرَكَ مِن ذُروة الجبل إلى قَرارةِ البحر وجدتَ الحياة ترهب الموت . فالله سبحانه وتعالى محافظةً على مصنوعاته وضع هذا القانون الأعظم وهو أن أكبر ملاذ المخلوقات جميعاً محصورة فى العمل المؤدى إلى التناسل ، فالفَحْلُ من النخيل حينما يرسل إلى أُنثاه المادة الملقِّحَة تراه يخفق غراماً ويَرْجُفُ صبابة فى الرياح اللافحة الملتهبة ، والوَعْلُ إذا تأبَّتْ عليه أُنثاه وتصعبت فربما مَزَّقَ جلدها وهتَكَ أديمها ، والحمامةُ تخفق وتَرعَش تحت جَناحى ذَكرِها كالعاشقة المغرَمَة ، والرجل حين يعانق حبيبته يحس فى قلبه تطايُرَ ذلك الشرر المقدس الذى منه خُلِق .

«فيا صديق العزيز إذا عانقت يوماً مليحةً حسناء فَتيةً قويةً فبكَيْتَ من فرط اللذة ، وأحسَسْتَ إيمان الوفاء والحِفاظِ يَثِبُ إلى شفتيك ، وأحْسَسْتَ السر الإلهي يهبط على رُوحك ، فاعمد إلى إخراج نَقْصِك من هذه الغَمرة الروحانية والنوبة الخيالية وأرسل من ثاقِب بصيرتك شعاعاً من نور الحقيقة يُبَدِّدُ ما يَلُفُّ شخص هـــذه المرأة من ضباب تلك الفضائل الوهمية ، والكمالات الخيالية ، ويجلوها لك على حقيقتها المُجَرَّدَة فاتخذ منها مطية لذةٍ مادية واظفر منها بمُومِس .

«ولـكن لا تخلط بين الخمرةَ والنَّشوة ، ولا تحْسَبَنّ الكاس التى شربت منها الرحيقَ المقدس مُقَدَّسَةً ، ولا يُدْهِشَنَّكَ أن تجدها فى المَساء فارغَةَ مكسورة ؛ فما هي امرأة أى قارورة من طين قد صنعها خزّاف .

«فاحمد الله إذ أراك السماء — وإذا رأيت لك أجنحة تصفق بها وترفرف فلا تحسبنّ أنك قد صرت بذلك طائراً ، واعلم أن الطيور ذاتها لا تستطيع اختراق السموات وهَتْك حجاب السحاب ، فإن فى أعماق السماء طبقاتٍ لا تجد فيها الطير هواءً تحيا به ، وإن القُنبرَة التي تطمع فى ضباب الصباح ، تريد مطلع الشمس ربما سقطت إلى الأرض ميتة ، فارْتَشِفْ كأس الحب كما يرشف العاقل الرزين كأس الخمر ، وإياك أن تكون سكيراً مستهتراً ، فإذا صادفت فى معشوقاتك مخلصة أمينة فأحببْها لهذا ، فإذا وجدتها خلاف ذلك ولـكن مليحة حسناء فأحببها لحسنها وملاحتها ، وإذا ألْفَيْتَها فوق ذلك ظريفة لبيبة فزدها حباً ، فإذا كانت من كل هذه المحاسن والمزايا عاريةً وكان كل ما فيها أنها تحبك فأحببها أيضاً ، فإنك لم تظفر بمن يهواك فى كل آونة ولحظة .

«ولا تحملنَّك الغَيرَةُ من النظير المزاحم على نَتْفِ شعرك وحَثْو التراب على رأسك وإرادة الانتحار ، فإن الذى يتألم فيك إذ ذاك إنما روح الكبرياء والتعاظم ، ولـكن اقْلِبْ سياق الألفاظ وهبها تخون خصمكَ من أجلك تجد فى عملها هذا — وإن كان لا يزال خِيانةً وغدراً — منتهى السرور واللذة .

«لا تسن لنفسك قوانين السلوك خاصـــــة ، ولا ترد أنّ تُفْرِدَكَ المَعشوقةُ بالحب وحدكَ وتُؤْثِرَكَ بالهوى على كل مَن عداكَ لأنك لمّا كنت

بشرا وقليل الوفاء فإن قانونك هذا يضطرك إلى أن تقيده بهذه العبارة «على قدر الإمكان» .

«ارضَ بالجو كيفما كان ، وبالريح كيفما هبّت ، وبالمرأة كيفما بدت ، إن الأسبانيولاتِ خيرُ النساء يُحبِبْن بأخلاص ، فَلَهُنَّ قلبُ صِدْقٍ ملهب ، ولكنهن يلبَسن عليه خَنْجرا ؛ والإيطاليات شهويات شبقات ولكنهن يخترن من الرجال أعرضهن مناكبَ وينتقين عشاقهن بمقياس الخياط ، والإنكليزيات ميالات للكآبة متطرفات ولكنهن فاترات جامدات ، والألمانياتِ لِطافٌ رقاق ولكنهن تافهاتٌ غير مُتفنِّنات ، والفرنسيات لَبِقات متأنقات غَنِجات ولكنهن مجرِبات .

«وعلى كل حال فلا تتهمنّ النساء بما لهن من الصفات والأخلاق . فنحن الذين ألبَسناهن ما ترَى لَهُنَّ من الخلال إذْ كُنَّا لا نزال نخلع ما كستهن الطبيعةُ من الطباع ، ونُعيرُهُنَّ المتكلَّفَ المصطنَعَ .

«إن الطبيعة التي تُعنَى بكل شيء قد خلقت العَذْراءَ مُلْحَةً للعاشق ، فلما وَلَدت نبت شعرها وتغيَّر شكل ثديها ووُسم بدنُها بميسم القُبح ، فخُلقت المرأة لتكون أُمًّا فأصبحت بذلك جديرة أن يهجرها الرجل إذْ كانت قد فقدت جمالها ، ولكنَّ طِفْلَهُ يتَشَبَّثُ به باكيا ، وهذا قانون الأسرة البشرى ، وكل ما يرى إلى خرقه يعد مُنكرا ؛ وإن السبب الباعث طبقات الفلاحين إلى استشعار الصلاح والتقوى هو أن نساءهن لسن إلا آلاتِ للولادة والرضاعة وما رجالهن سوى آلات للكد والكسب ، فليس لنسائهن شعور مستعارة ولا في ثُدِيِّهِنّ لَبَنُ العُذْرَة ، ولكن حب هذه الطبقات صحيحُ

الأديم صافيه غير نغل ولا أبرص : وهم إذا تعانقوا فعلوا ذلك وهم يجهلون ألبتة أن كولومباس اكتشف أمريكا ، وإذا كانوا غير شهويين كانت نساؤهم صحيحات معافيات ، وإذا كانت أيديهم صـــلاباً غلاظاً فما قلوبهم بالصلاب ولا الغلاظ . . .

«إن المدينة لتجرى على تفيض الطبيعة ؛ ففى مدائننا وحسب عاداتنا ترى العذراء التى خلقت لتمرح فى ضياء الشمس لتقر ناظرها برؤية المصارعين العراة كما كانت الحال فى «لاسيديمونيا» ولتختار الخليل من بينهم وتنتقى وتعشق كما تشاء وتهوى تحجب فى مقصورتها وتسجن ، ولكنها تكتم تحت صليبها رواية غرامية فتجلس فى سجنها صفراء فاترة كسلى تذوى نضرتها . وتذيل زهرتها أمام مرآتها . وكذلك تسهر الليل الطويل وفى لحمته تخبو جذوة جمالها الوقاد وتنطفئ جمرة حسنها المشبوب وتصوح محاسنها فتذوى إذ لا تجد مجالا للإزهار والإيناع ولا تصيب جواً فضاء وهواء طلقاً ثم تخرج من سجنها بغتة وهى لا تعرف شيئاً ولا تحب شيئاً ولكنها تشتهى كل شىء فتتولى تعليمها عجوز ثم تهمس فى أذنها كلمة منكرة وبعد ذلك تطرح على فراش رجل مجهول فيغتصبها اغتصاباً — وهذا يسمونه زواج نظام الأسرة المتمدينة ثم تلد الفتاة المسكينة ويذهب جمال شعرها وثدييها وبدنها . واهاً ! لقد فقدت جمال عاشقة وماذاقت عشقاً . لقد حملت وولدت وأنها لا تعرف لذلك علة ولا سبباً وكذلك ترزق صبياً ويقال لها «قد أصبحت أماً» فتجيب (قائلة لست أماً) أعطوا هذا الوليد لامرأة ذات لبن فإنه لا لبن فى ثدىى . وما كذلك يسرى اللبن إلى ثدىى النساء ويقول زوجها (انها لعلى حق .

أون هذا الطفل مسخطة لها ومضجرة) وكذلك تعالج الفتاة من داء الأمومة فتعافى ولا يمضى شهر حتى تجدها فى أحد المراقص أو دور الأوبرا وطفلها فى (شابوت) أو (زير) وزوجها فى بيت من بيوت الفجور وترى حولها الرجال عشرات يغازلونها ويداعبونها ويعدونها الحب والاخلاص والوفاء ويحلفون لها بأغلظ الإيمان إنهم عبيدها وأسراها وإنهم فيها هائمون وبهواها ميتون فتختار منهم واحدا وتضمه إلى صدرها فيدنس عرضها ثم يدعها وشأنها . فتقضى ليلتها بكاء وانتحاباً ثم تنظر فإذا عيناها قد احمرتا من البكاء فتلتمس من يهون خطبها ويسرى كربها ويهبها العزاء والسلوى فتتخذه أنيساً وجليساً وصديقاً ورفيقاً حتى إذا فقدته استبدلت به آخر ثم آخر وهكذا حتى تتجاوز الثلاثين من عمرها وأخيراً تمل وتسأم وتتسخط وتتبرم وتشتكى كظة السرف وفقدان الأمل ثم يمرض يقينها وتضمحل عقيدتها . ويخلو فؤادها من كل عاطفة إنسانية حتى من الاشمئزاز والتأفف ؛ فبينما هى كذلك إذ تصادف ليلة فى بعض المراقص فتحب فتى جميلا أسود الشعر متلألئ العينين فياض الأمل تعرف فى وجهه نضرة الصبا ثم تتذكر آلامها وأوجاعها فتقبل عليه تعطيه عبراً ودروساً من تاريخ حياتها وتعلمه التشاؤم وتبرهن له على استحالة ما يسمونه الحب وتحذره من الهيام عبثاً وراء هذا السراب الخادع والبرق الخلب فهذه هى المرأة كما خلقتموها — كما صورتها يد المدنية ؛ ومن هـــذا القبيل حبائبنا ومعشوقاتنا . ولـكنهن على أية حال نساء ولهن محاسنهن كما لهن عيوبهن وفيهن ملهى ومستمتع وقد تصاب منهن أحياناً فرص النعيم وخلسات اللذة !

فإذا كنت يا صاحبي متين الخلق قوى العزيمة واثقاً من نفسك مستكمل

الرجولة فإنى أشير عليك بهذه النصيحة . ادفع بنفسك غير هياب ولا وجل فى غمار الحياة الدنيا واركب متن لجها وعباب موجها . وانعم من النساء بكل من حصلت لديك — من مومس وعاهرة ورقاصة وفلاحة وشريفة وكريمة وكن تارة وفيا وطورا غادرا وآنا فرحا وآونة حزينا . وساعة منخدعا وأخرى محترما . ولكن إذا ظفرت من امرأة بحبها وهواها فضن بنعمة هذا الغرام أن تضيفها — ولا يعنيك صنف المرأة التى تهواك — فكل ما عدا نعم الحب باطل لا قيمة له» وإذا كنت امرأ عادياً فأكبر ظنى أنك تطيل التفكير والتدبر قبل عقد نيتك وإجماع أمرك . ولكنك تكون جديراً ألاَّ تُعَوِّلَ على أدنى شىء مما تتوقع أن تجده فى عشيقتك .

وإن كنت ضعيفا سخيفا مليئا أن ترسو وترسخ وترسل جذورك حيث تصادف قطعة من الطين مهما قلت فإنى أنصح إليك أن تتخذ درعا تتقى بها كل شىء فإذا أذعنت لخلقك الضعيف وطبعك السخيف عيق نماؤك وأكدى شبابك ولم تنتشر لك فروع وأغصان وراء مرسى أصولك ومغرس جذورك ، فلا تلبث أن تذبل وتذوى كالنبات العقيم ثم لا تزهو ولا تثمر وينتقل ماء حياتك إلى شجرة أخرى وتصير كل أعمالك ومجهوداتك أصغر من ورق الصفصاف ثم لا تسقى إلا من رى مدامعك . ولا تغذى إلا من مادة قلبك وإذا كنت متحمسا ملتهب الحمية تصدق بالخيالات والأحلام وتريد تحقيقها فليس لك عندى جواب سوى (لا وجود للحب) . لأنى موافق على ما تراه أنت من أن الحب إنما هو أن يهب المرء نفسه روحا وجسما وبعبارة أبلغ أن يجعل المرء من شخصين شخصا — والحب هو التقلب فى ضياء الشمس وفى

الهواء النقى وبين الزهر والريحان بجسم ذى أربعة أذرع ورأسين وقلبين والحب هو اليقين والإيمان وهو دين السعادة الدنيوية والنعيم الأرضى . وهو مثلث مستنير فى سقف هذا المعبد المسمى لدينا . والحب هو أن يرتع المرء فى أرجاء هذا المعبد وإلى جانبه مخلوق يستطيع أن يفهم لما ذا يستوقفك خاطر أو كلمة أو زهرة أثناء سيرك فتدعوك إلى رفع رأسك إلى ذلك المثلث السماوى هذا ولا تنسى أن أعمال المرء أشرف ملكاته نعمة كبرى ومن ثم كان للعبقرية ما تعرف من جمالها وروعتها فما بالك إذن بمضاعفة هذه الملكات وبضم فؤاد إلى فؤاد وذهن إلى ذهن إلا أن هذه لهى السعادة القصوى والنعمة العليا . وما من الله على عبده بأكثر من هذا ولا أجزلَ ومن ثم فُضِّلَ الحب حتى على العبقرية . فبالله إلا ما خبرتنى — أكذلك رأى زوجاتنا فى الحب ؟ كلا فغير ذلك فى الحب رأيهن . وإنما الحب عندهن هو السير مُقَنَّعات وكتابة الرسائل الغامضة المبهمـــة والمشى على أمشاط أقدامهن . والتنكيت والتبكيت والنظرات الفاترة والألحاظ المِراض وإرسال الزفرات العفيفة الطاهرة ويدبرن المكايد وهن فى الحلل البيضاء المنشاة ثم ينصبن الحبائل لإشجاء نظيرة أو خديعة زوج أو تعذيب عاشق . والحب فى رأى زوجاتنا هو أن يلعبن لعبة الغش والكذب كما يلعب الأطفال لعبة المراوغة وهو دعارة القلب وفسوق الروح وذلك أخبث مما كان يحدث من دعارة نسوة الرومان فى (ساتورناليه بريابوس) وهو صورة مموهة من الرذيلة والفضيلة وهو مهزلة باردة سخيفة . يظل كل الممثلين فيها يتهامسون ويؤدون أعمالهم بوجوه مزوية وأعين مغضوضة ويظل كل شىء فيها حقيرا مشوها على فرط التأنق والتكلف —

مثل ما تُصَدِّرُه إلينا الصين من تلك التحف الخزفية البشعة المنكرة . وهو خليط ممقوت من الحسن والقبح ومن عنصرى الخير والشر والرحمة والنقمة والنعيم والجحيم فى هذه الدنيا . وهو ظل بلاجسم وخيال بلاحقيقة وهو هيكل عظمى لجملة مخلوقات الخالق .

هذا ما قاله ديزينيه بصوت صارم فى سكينة الليل وهدوئه :

مهام الرجال على الزوج :

قال عزَّ وَتَقَدَّس : «يا أَيُّها الناسُ اتَّقوا رَبَّكم الذى خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنها زَوْجَها وبَثَّ مِنها رجالاً كثيرا ونساء ، واتَّقوا اللهَ الذى تَساءلونَ بهِ والأَرْحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكم رَقِيباً . وآتوا اليتامَى أموالَهم ولا تَتَبَدَّلوا الخَبيثَ بالطَّيِّب ، ولا تأكلوا أموالَهم إلى أموالِكم إنه كان حُوباً كبيرا ، وإن خِفْتُم ألاَّ تُقْسِطوا فى اليتامَى فانكحُوا ما طابَ لكم من النِّساء مَثْنَى وثُلاثَ وَرُباعَ ، فإنْ خِفْتُم ألاَّ تَعْدِلوا فواحِدَةً أو ما ملكت أيمانُكم ذلك أَدْنَى ألاَّ تَعُولوا» «يقول سبحانه : يا أيُّها الناس : يا بَنِى آدَمَ قاطِبَةً ، اتَّقُوا رَبَّكُم الذى خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ ، أى فَرَّعَكُم من أَصْلٍ واحِدٍ ، وهُوَ نَفْسُ آدَمَ أَبيكم ، وخَلَقَ من هذه النَّفْس ، من ضلع من أضلاعها زَوجَها ، وهى أُمُّكم حوَّاء ، وبَثَّ من تلك النَّفسِ والزَّوجَة المُتَفَرِّعَة منها بنين وبنات كثيرةً نَفُوتُ الحَصْرَ ، واتَّقوا الله الذى تَساءَلونَ به ، أى وَاتَّقوا الله الذى تَتَساءَلون به وتَتناشَدُون ، فيقول بعضُكم لبعض : أسألك بالله ، أو أُناشِدُكَ الله ؟ وَامْتَالاً لذلك ، واتَّقوا الأَرْحامَ ، فَصِلُوها ولا تقطعوها ، وهذا كما قدمنا فى باب صلة الرحم ، إشادَةٌ منه سبحانه وتنويه بمكانة صلة الرحم ،

إذ قرنها سبحانه باسمه ، ثم قال سبحانه : وآتوا اليتامى — أى الذين مات عنهم آباؤهم — أموالهم — فلا يطمع فيها الأولياء والأوصياء وولاة السوء وقضاته ، وكفوا عنها أيديهم الخاطفة ، حتى تأتى اليتامى — إذا أونس منهم الرشد — سالمة غير محذوفة ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، أى لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى — بالحلال — وهو مالكم وما أبيح لكم من المكاسب ورزق الله المبثوث فى الأرض — فتأكلوه مكانه ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، أى لا تضموها إليها فى الانفاق ، حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم ، قلة مبالاة بما لا يحل لكم وتسوية بينه وبين الحلال ، فإن ذلك حوب كبير ، أى ذنب عظيم ، ثم قال سبحانه : وإن خفتم ألا تقسطوا — ألا تعدلوا — فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء . . . الآية ، أى إن خفتم ألا تعدلوا فى يتامى النساء إذا تزوجتم بهن فتزوجوا ما طاب — ما حل — لكم من غيرهن ، وذلك أن ربما كان الرجل منهم يجد اليتيمة لها مال وجمال ، ويكون وليها ، فيتزوجها ضنا بها على غيره ، فربما اجتمعت عنده عشر منهن أو أكثر أو أقل فيخاف لضعفهن وفقد من يغضب لهن ، أن يظلمهن حقوقهن ويفرط فيما يجب لهن — وقد نزلت الآية فى اليتامى وما فى أكل أموالهم من الحوب العظيم — فقال الله تعالى : فإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، ثم قال سبحانه : فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أى فذروا الجمع بين اثنتين أو ثلاث أو أربع واكتفوا بواحدة ، أو لديكم ما ملكت أيمانكم ، أى إماؤكم ، وذلك أدنى ألا تعولوا ، أى أقرب من

ألا تميلوا ، وأدنى إلى العدل ، لأنَّ الأمرَ كله يدور مع العدل ، فأينما وَجَدْتُم العدل فعليكم به ، وبعد فإنا أوردنا عليك هذه الآية الكريمة لتعلم أن الله سبحانه وَسَّعَ علينا فى باب الزَّواج إلى حد كبير ، ومِن ذلك نَعْلَم مقدارَ حَثِّهم عَلَى الزَّواج وتفضله على العُزُوبَة ، وهـــذا هو شاهدنا هنا فى هذه الآية الكريمة» . . .

وَقال سُبحانه : « وأنكِحُوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فُقَرَاء يُغْنِهِم الله مِن فَضله ، والله واسعٌ عليم» «الأيامَى جمع أيم وَهُوَ : العَزَب ، ذَكَرًا كان أو أُنثى ، بِكرًا كانَ أو ثَيِّبا ، والآية كما ترى حَثٌّ عَلَى التزويج ، يقول سبحانه زَوِّجوا — أيها الأولياء والسادَة — العَزَبَ وكلَّ صالح للزواج ، فبالزَّواج بقاء النَّوع ، وإذا كنتم فقراء وظننتم أن فقر الخاطب أو المخطوبة يحول دون الزَّواج فإنَّ فى فضل الله غُنيَةً عن المال ، فإنه غادٍ وَرائح ، ولك أن تقول : إنَّ هذا وَعْدٌ من الله بالإغناء ، فقد وَرَدَ فى الأثر : اطلُبُوا الغِنى فى هذه الآية الكريمة ، وقال عمر بن الخطاب : إنِّى لأعْجَبُ مِمَّن يَدَعُ النكاح بعد سماعه لهذه الآية» . . .

* * *

وكانَ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ رضى الله عنه مِطْلاقًا مِزْواجا ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنَّ الله تعالي عَلَّقَ بِهِما الغِنى فقال : وأنكِحُوا الأيامَى منكم .. الآية ، وقال : وإن يتفرقا يُغْنِ الله كُلاًّ مِن سَعَتِه ، فأنا أتَزَوَّجُ لِلْغِنَى وأُطَلِّقُ لِلْغِنَى .

وَقال سبحانه : (وإذا طَلَّقْتُمُ النِّساء فَبَلَغْنَ أجَلَهُنَّ فلا تَعْضُلوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أزواجَهُنَّ) «نَزَلَت هذه الآيةُ الكريمة في مَعْقِل بن يَسار المُزَنى ،

وكانَ قد زَوَّجَ أُخْتَه رَجُلاً ، فَطَلَّقها ؛ فلما انقضَت عِدَّتُها خَطَبَها ، فَآلَى أخوها أَلاَّ يُزَوِّجَهُ إيّاها ، ورَغِبَت فيه أُخْتُه ، فنزلت الآية ؛ وقيل : الخطابُ للناس كُلِّهِمْ ، أىْ لا يوجَدُ بينكُم عَضْلٌ ، لأنه إذ وُجِدَ بينهم وَهُمْ راضون كانوا فى حُكم العاضِلين ، وبعد فهذه الآية الكريمة نَهْىٌ عن العَضْل ، وهذا يَتَضَمَّن الحَثَّ على الزواج والترغيب فيه ؛ وعَضَلَ الرجل أَيِّمَهُ يَعْضُلُها ويَعضِلُها عَضْلاً ، وَعَضَّلَها : منَعَها مِن الزَّواج ظُلماً وقسْراً كما يفعل أهلُ الجاهلية ، وأصلُ العَضْل : الحبس والمنع والتضييق[1] ، ومنه عَضَّلت الدجاجة : إذا نَشِبَ بَيضُها فلم يخرج ، وعَضَّلت المرأة إذا نَشِبَ الولد فخرجَ بعضه . ولم يخرج بعض فَبَقِىَ مُعترِضاً ، وأعضلَت وهى مُعْضل — بلاهاء — ومُعَضِّل : عَسُرَ عليها وِلادُه ، وَقال ابن هَرْمَةَ :

وَإنَّ قَصائِدى لك فاصْطَنِعْنِى عَقائِلُ قد عُضِلْنَ عن النِّكاحِ[2]

وجاء عَكَّافُ بن وَداعَةَ الهلالى إلى رسول الله صلوات الله عليه ، فقال لهرسولُ الله : «يا عكاف ، ألكَ زَوجَةٌ» ؟ قال : لا ، قال : ولاجارية ؟ قال : لا ، قال : «وأنت صحيح مُوسِر» قال : نَعَم والحمد لله ، قال : فأنت إذًا مِن إخوان الشياطين ، إمَّا أنْ تكونَ مِن رُهْبان النصارَى فأنت منهم ، وإمَّا أنْ تكون منا فاصْنَعْ كما نَصْنَعُ ، وإنَّ مِن سُنَّتِنا النكاحَ ، شرارُكم عُزَّابكم ، وأراذِلُ مَوتاكم عُزَّابكم ، ويْحَكَ ياعكَّاف تَزَوَّجْ ، فقال عكَّاف : يا رَسول الله

---

(١) ومنه أعضل بك الأمر إذا ضاقت عليك فيه الحيل ، وداء عُضال : شديد معْيٍ .

(٢) العقائل : جمع عقيلة وهى المعقولة فى خدرها من النساء ، وقوله فاصطنعنى اعتراض ، يقول : إن قصائدى لك مثل المخدرات فلَسْتُ أمدح بها غيرك ، فاجعلنى صنيعتك .

لا أتزوّج حتى تزوّجني من شئت ، فقال رسول الله : فقد زوّجتُكَ على اسم الله والبركة كريمة بنتَ كُلثوم الحميرى» .

* * *

وقال شاعر :

إذا لم يكنْ فى منزل المرءِ حُرّةٌ تُدبّرُه ضاعت مصالحُ داره[1]

وعن إبراهيم بن مَيْسَرَة قال : قال لى طاوُس : لتتزوّجنّ أو لأقولنّ لك ما قال عُمَرُ بن الخطّاب لأبى الزّوائد : قال : قاله له : ما يمنعُكَ من النكاح إلا عَجزٌ أو فُجور ... «وأبو الزوائد هذا رجل من أهل مكة» . وفى الحديث : يا مَعْشَرَ الشَّباب ، مَن استطاعَ منكم الباءةَ فليتزوّج ، فإنّهُ أغضُّ للبصر ، وأحصَنُ للفرْج ، ومَن لم يستطع فعليه بالصّوم فإنّه له وِجاء . . .

«الباءةُ هنا : النكاح — الزواج — وقد يراد بالباءة : الجماعُ نفسُه ، والأصل فى الباءة : المنزل ، ثمّ قيل لعقْد التزويج : باءة ، لأن الرجل يتبوّأ من أهله ، أى يتمكن من أهله كما يتبوأ من داره ، أو تقول : لأن من تزوج امرأةً بوّأها منزلا ، ويقال : الباءُ

---

(١) قبل هذا البيت أبيات أوردها صاحب نزهة الأبصار والأسماع نوردها هنا على سوقية مبناها و إن كانت شديدة فى معناها :

إذا اشتغل الإنسان بالبيع والشّرا ... وفى مكسب يأتى بطول نهاره

وليس له فى داره من يَسوسُها ... إذا غاب فى أشغاله عن دياره

فذلك عندى مُهمل أمر نفسه ... وما عاقل يرضى به باختياره

ولا بُدّ له من زوجة إذا ... تأخّر تبقى عينها فى انتظاره

وتُصلِحُ ما يختاره من أموره ... وتخدمهُ فى فرشه ودثاره

إذا لم يكن فى منزل المرء حرّةٌ ... تدبّره ضاعت مصالح داره

والباءَة والبَاه ، وتجمع الباءَة على الباءات ؛ والوجاء فى الأصل ومثله الوَجْءُ : أنْ تُرَضَّ أُنثَيَا الفَحْلِ رَضًّا شديداً يُذْهِبُ شَهْوَةَ الجماع ويتنزّلُ فى قَطْعِهِ مَنْزِلَةَ الخَصِىّ ، والمراد فى الحديث : أنّ الصومَ يَقطعُ النكاح كما يَقْطَعُهُ الوجاء . وقوله : فانه أغض للبصر ، فانّه يقال : غَضَّ طَرْفَه وبَصَرَه يَغُضُّهُ غَضًا : كفَّه وخَفضَه وكَسَرَه ؛ وأحصنُ للفرج : أى أشدُّ إحصاناً له ومَنْعاً من الوقوع فى الفاحشة ، وفى الحديث : إذا أحَدُكم أعجبَته المرأة فَوَقَعَت فى قلبه فَلْيَعْمِدْ إلى امرأته فليواقعها فان ذلك يَرُدُّ ما فى نَفْسه . . . فهذا من ذاك » .

* * *

وَفى البخارى : جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يَسْأَلونَ عن عِبادَةَ النبى ﷺ فاما أُخْبِرُوا كأنَّهم تَقالُّوها[1] فقالوا : وأينَ نَحْنُ من النَّبى ﷺ ! قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر ، فقال أحدهم : أمَّا أنَا فأنَا أُصَلِّى الليل أبداً ، وَقَال آخر : أنَا أصومُ الدهرَ ولا أُفْطِرُ ، وَقَال آخر : أنَا أعتزل النساء فلا أتَزَوَّج أبداً ، فجاء إليهم رسول الله ﷺ فقال : أنتمُ الذين قلتم كذا وكذا ! أما والله إنِّى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأُفْطِرُ ، وأُصَلِّى وأرْقد وأتَزَوَّجُ النِّساء ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتى فليس منِى .

* * *

وَفى بعض الآثار : أَرْبَعٌ من سُنَنِ المرسَلِين : التَّعطُّر ، والنكاح ، والسِّواك ، والختان . . .

وَقَال ابن عباس رضى الله عنه لسعيد بن جُبَيرٍ : أَلَكَ امرأة ، قَال : لا ، قَال : فتَزَوَّج ، فإنَّ خير هذه الأُمّة من كانَ أكثَرَها نِساء . . .

---

(١) تَقالُّوها : أى استقلوها وأصلها تقاللوها أى رأى كل منهم أنها قليلة .

وقال حكيم : الزّواج مَصْدَر آداب المجتمَع الإنسانى :

وقال آخر : لَيس من الممكن أن يحيا الرجل الحياة الفاضلة ، ويَموتَ الموتَة الصالحة ، ما لم يَكن بجانبه زوجة . . .

ومن حكمة الهند : إنَّ الزّوجَة هي الصديق الذى منحته الآلهة للإنسان .

ومن كلمة لجان جاك روسّو : أَفُضّل أن أكونَ زَوجةَ فحّام على أن أكون عَشيقَةَ ملك . . .

وقال عبد الله بن مسعود : لو لم يَبْقَ مِن عمرى إلاّ عشرةُ أيام لأَحْبَبْتُ أن أتزوّج ، لئلا ألْقَى الله عَزباً . . .

وجاء فى كتاب الصور للمرحوم محمد السباعى طيّب الله ثراه وجعل الجنة متقلبه ومأواه ، ما يَلى : الزّوجَةُ هى المَلْجَأُ الناعم ، والمَلاذُ اللّيّن ، هى الكَهفُ الحُلو كأنّهُ خلِيَّةُ العَسَل ؛ هى حِصْنٌ من البِلّور فى ضمانَة الشرف ، وقَلْعَةٌ من الحرير في خَفَارَةِ العَفَاف ؛ هى الساحلُ المتين الذى يأوى إليه صَلاحُ الحياة بعد صَولة المَوج وثَورَةِ الهواء ، هِى الظِّلُّ الخصيب الذى يلبَسُه سائحُ الإنسانيّة بعد وَعْثاء السَّفر ولظى الهجائر . . . فى حَلاوَةِ الزّوجَةِ وَرِقّتِها ما يَمْحو مَرارَةَ الزَّمَن وَخُشونَتَه ، وكذلك الحسنات يُذْهِبْنَ السيِّئات . . .

إنَّ الزّوجَةَ لتَبُثُّ حولَها هَواءً مِن السُّرور لا تكادُ تطرقه الأحزان كأنّه هالَةُ القَمَر أوْ دارَةُ الشمس ؛ وإنَّ الهمومَ لتضْمحِلُّ فى صوت الزّوجَة كالخَوْفِ أمامَ البُشْرَى ، وإذا كانت الموسيقى فِتْنَةَ الألباب فَقُلْ فى صَوتِ المرأة الذى يَفتِنُ الموسيقى لو أنها تَعقل . . .

المَرأةُ تُحفَةُ الدُّنيا ، وزينَةُ الحياة ، فمَن أَحْكَمَ تدبيرَها وجَنَى ثمَرَها كانَ أميراً على أكمل بقعة وأجمل مملكة ، ومَن أساءَ التدبير فخَسِرَ المرأةَ أو حُبَّها وطَاعَتَها فجَدير به أن يتمثَّل :

أُعطِيتُ مُلكا فلم أُحسِنْ سياستَهُ ... وكُلُّ مَن لا يَسوسُ المُلكَ يَخْلَعُه

* * *

وَرُوِى عن زياد بن أبى سفيان أنه قال لجُلَسائِه : مَن أَنْعَمُ الناسِ عيشَةً ؟ قالوا : أميرُ المُؤمنين — يعنُون مُعاوية بن أبى سفيان — فقال : وأَيْنَ ما يلقَى من قُرَيش ! قيل : فأنت ، قال : أَيْنَ ما أَلْقَى من الخوارج والثغور ؟ قيل : فَمَن أيُّها الأمير ؟ قال : رَجُلٌ مُسلم له زَوجَةٌ مسلمة لهما كفافٌ من العيش قد رَضِيَتْ به ورَضِىَ بها ، لا يَعرفُنا ولا نَعرِفُه . . .

وقال قاسم أمين : إذا كنت أشعر فى هذه الحياة بشىء من السَّعادةِ ففى الأوقات التى أُقَضِّيها فى بيتى مع زوجتى وأولادى . . .

حَثُّهم على التزوج أيام الشباب :

قال أُكثَمُ بن صَيْفِيٍّ حكيم العرب :

إنَّ بَنِىَّ صِبْيَةٌ صَيفِيُّون ... أَفْلَحَ مَن كان له رِبْعِيُّون

«يقال : أصافَ الرَّجُلُ يُصيف إصافَةً : إذا لم يولَدْ له حتَّى يُسِنَّ ويكبَر ، وأولاده صَيفِيُّون . والرِّبْعِيُّون : الذين وُلِدُوا فى حَدَاثتِه وأولِّ شبابِه ؛ ولمَّا حضرت سليمان بن عبد الملك الوفاةُ تمثَّلَ بهذا البيت لأنه لم يكنْ فى أولاده مَنْ يُقَلِّدُه العهدَ بعدَه ، ومعنى ذلك عندهم أنّ الأولاد الكبارَ أفضل منَ الصِّغار لَدَى الوالد ، ولا سيّما إذا كَبِر» .

وَمَرَّ مَلِكٌ مِن مُلوكِ العجم بِشَيْخٍ يَغرِسُ فى أرْض ، فقال له : أَيُّهـــا

الشَّيخ ، هَلاَّ أَدْلَجْتَ فيكونَ من ذلك ما يَكفيك ! فقال : أَدلَجْت ، ولكنّ القَضاءَ لَمْ يُدْلِج ... فقال : أَكْتُمْ كلامَنا هـــذا حَتَّى تَرَانى ؛ ثُمّ انصَرَفَ المَلِك ، فأَحْضَرَ وَزيره ، وقال : ما مَعْنَى كلام الشيخ ؟ قيل له كذا فأجابَ بكذا ؟ وقد أَنظرتُك حَولاً ، فَجَعَلَ الوزيرُ يَسأَلُ الناسَ ولا يُجيبُه أحد ، حَتَّى وَقَع بالشيخ ، فسأَلَهُ ، فقال له : إنَّ المَلِكَ استَكتَمَنِي الأمرَ حَتَّى أَراه ، فَبَذَل له عشرة آلاف درهم ، فقال : إنَّهُ قال لى : لِمَ لاتَزَوّجت أيّامَ الشَّباب ؟ فقلت له : قد تَزَوّجْتُ ولكن لم يأتِنِ أولادٌ ! فجاء الوزير فأخبر الملك ، فقال له : علىّ بالشّيخ ، فدعاه ، فلمَّا حضر قال له : أَلَمْ أَقُلْ لك اكتم أمرَنا حَتَّى ترانى ، قال : قد رأيتُكَ عشرة آلاف مَرّة فَعَلِمَ أَنَّ الوَزيرَ دَفَع إليه عشرة آلاف درهم ، وأنَّه رأى اسمه مكتوباً على كل درهم مِنها وَصُورَتَه ؛ فقال : زه ، ودفع إليه أربعة آلاف درهم أُخرَى . . .

الأبكار والثيبات :

فى الحديث : عليكم بالأبكار ، فإنَّهُنّ أَطْيَبُ أَفْواها ، وأَنْتَقُ أَرْحاماً ، وأَغَرُّ غُرَّة ، وأَرْضَى باليَسير . . « وأَنْتَق أرحاماً : يريدأ كثر وَلَداً ، يقال امرأَةٌ مِنتاقٌ إذا كَثُر وَلَدُها ، وقول النابغة .

لَم يُحْرَمُوا حُسْنَ الغِذَاء وَأُمُّهُمْ طَفَحَتْ عليك بِنَـــاتِقٍ مِذْكَارِ

«يعنى بالناتق : الرحِمَ ، وذَكَّرَ على مَعْنى الفَرج أو العُضو ، وأَغَرُّ غُرَّة يحتمل أن يكون من غُرَّة البياض وصفاء اللون لأن طَول التعنيس يحيل اللون : ويحتمل أن يكون من حُسْن الخلق والعِشرة ، وأرضى باليسير يعنى باليسير من الجماع . . .

وقال علىٌّ رَضى الله عنه . إنَّ المَرأةَ لا تَنْسَى أَبا عُذْرَتِها .

« العُذْرَة : البَكارَة ، قال ابن الأثير : العُذرة : ما لِلْبِكْرِ من الالتحام قَبلَ الافْتِضاض ويقال : فلانٌ أَبُو عُذْر فلانة وأَبُو عُذرَتِها : إذا كان افترعها وافْتَضها» .

وَأَنشَدَ ابْنُ الأعرابى :

أُحِبُّ الخلاَ وِىّ النَّزِيهَ مِن الهَوى وَأَكْرَهُ أن أسقَى على عَطَشٍ فَضلا

«يقول أكرَهُ المرأةَ التى أكْثرَت الأزواجَ وإن كنتُ مضطراً إليها» .

وقال بعضهم لِوَلَدِه : يا بُنَىَّ ، لا تَتَّخِذْها حَنَّانَة ، ولا أَنَّانَة ، ولا مَنَّانَة ، ولا حَدَّاقَة ، ولا ذاتَ الدايات ، ولا عُشْبَةَ الدار ، ولا كُبَّةَ القَفا ... «الحَنَّانَة : التى لها وَلَد مِن سواه فهى تَحِنُّ عليهم . والأَنَّانَة : التى مات زَوجها فهى إذا رأتِ الزَّوج الثانِىَ أَنَّتْ ، وقالت : رَحِم الله فُلاناً — لزَوجها الأول — والمَنَّانة : التى لها مال ، فهى تَمُنُّ على زَوجِها كلما أهْوَى إلى شىء من مالها ، والحَدَّاقة : التى تُحَدِّقُ إلى كلِّ شىء فتقول : لَيْتَه لى ! وذات الدايات : التى عندها عَجوز وتقول : هِى دايتى ، وعُشبَة الدار : يريد بها : الهجينَة[1] على المَثَل كقولهم خَضْراء الدِّمَن — وهى عُشبَة الدار — فى الأصل التى تنبت فى دِمْنَةِ الدار وحَولها عُشْبٌ فى بياضِ الأرض والتُراب الطَّيب . وكُبَّة القفا[2] هى : التى يأتى زوْجُها أو ابْنُها القَومَ ، فإذا انصرف مِن عندهم قال رَجُلٌ من من جُبَناء القَومِ : قَدْ وَاللهِ كان بَيْنِى وبين امرأة هذا المَولى أَوْ أُمِّه أَمْرٌ ...

---

(١) الهجين عند العرب : الذى أبوه شريف وأمُّه وضيعة ، وقيل : العربى ابن الأَمَة من الهجنة وهى العيب ، وسيأتى كلام وافٍ فى ذلك

(٢) جاءت فى لسان العرب — مادة عشب — كُبَّة القفا .

هذا ، وعَلَى ذِكْرِ الأنانة ذكر الرُّواةُ أنَّه كان عند لَقيط بن زرارة قَذُورُ نبت قيس بن خالد الشيبانى سيد بنى ربيعة ، وكانَ يحبُّها وتُحبُّه ، فلما قُتِل عنها تزوجها رجل من أهلها ، وكانَ يَسْمَعُها تُكْثِرُ ذكرَ لَقيط ، وتُظهر الجزع عليه ، وتَصِفُ محاسِنَه ، فقال لها يوما : وَيْلكِ ، والله ما كان إلاَّ كبعض عبيدى ، فَصِفِى لى بعض ما أعجبَكِ من محاسِنِه ، فقالت نعم كل أموره كانت حسنَةً ولكنى أُحدِّثُك أنه تطيَّب يوماً [1] ، وقد ظَعنَ الحَىّ ، فى يومٍ ذى زَهَرٍ وَطَلّ ، وكُنتُ نائمَةً ، فكره أنْ يُوقِظَنى ، فقَعَد يَنتَظِرُ انتباهى ، ومعه فَضلَةٌ من شراب ، فجَعَل يَشْرَبُ منها حتى استَيْقَظْتُ ، فحَمَلَنى وركبَ فرسَه ، فمَرَضت لنا عانَةٌ — القطيع من حُمُر الوَحْش — فحَمَلَ عليها فَصَرعَ منها حِماراً ، ثُمَّ رَجَع إلىَّ ومنه ريحُ المسك وريح الشراب وريحُ الطِّلِّ وريحُ الزَّهر ، فتَدَلَّيتُ إليه فَضَمَّنى ضَمَّةً ، وشَمَّنى شَمَّةً فليتَنى كنتُ مِتُّ تَمَّةً ! فتطيَّبَ عمر وتناوَل من الشراب ، وخَرج فتَصَيَّد ، ثُمّ عادَ إليها ، فَضَمَّها إلى نَفْسه وقال : أين أنا من لقيط ! فقالت : مَرْعًى ولا كالسَّعْدان ، وماءً ولا كصَدّاء [2] ! فطَلَّقَها ، فرجعت إلى قومها وقالت : أَبْنُوا علىّ قُبَّةَ الأيّم ، فوالله لا جَمَعنى الله مع رَجُلٍ بَعْدَ لَقيط أبداً . . .

---

(١) انظر الكامل ج ٥ ص ٩٣ .

(٢) السعدان : نبت كثير الحَسَك تأكله الابل فتسمَنُ عليه ويَغْذوها غِذاء لا يوجد فى غيره ، ومَرْعى خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذا مَرْعًى جيد وليس فى الجود مثل السعدان ، وصَدَّاء : اسم ماء بعينه ، وهذه الأمثال ثلاثة منها قولهم : مَرْعى ولا كالسعدان ، وماء ولا كصدَّاء ، وفتى ولا كمالك ، تضرب هذه الأمثال للشىء الذى فيه فضل وغيره أفضل منه ، ومالك الذى ذكروا هو مالك بن نويرة أخو متمم بن نويرة .

وكانت عائشةُ بنت طلحةَ مُغايِظَةً لأزواجها ، وكانت كثيراً ما تَصِفُ مُصعَبَ بن الزبير لعمر بن عبيد بن معمر ، وكانت عند مصعب قبله ، وتذكر جماله وكرمه وحسن خلقه ، فيكاد يموت غَمًّا ، دخل عمر يوماً على عائشة ، وقد ناله حرٌّ شديد وغُبار ، فقال لهـــا : انفُضي الغبار عني ، فأخذت منديلا وجعلت تنفض التراب به عنه ، ثم قالت ، ما رأيتُ الغبارَ على وَجْهِ أحَدٍ أحْسنَ منه على وجه مُصْعَب ، لَعَهْدِي به يوماً وقد دَخَلَ عليّ ، وكان قد فَتَح فَتحاً عظيما ، وهو في الحديد — آلَةَ الحرب — وكانت بيني وبينه وَحْشة ، فَخَرَجْتُ فَهَنَّأْتُهُ والغُبار على وَجهه ، فقال : إنّي لأُشْفِقُ عليك من رائحة الحديد ! وأقبلت تَصِفُه وعمر يَتَّقِدُ غيظاً ويكادُ يموت غيرةً وحَيرَة . . .

وتزوّجَ الحجاج هند بنت أسماء بن خارجة ، وكانت قبلَه عند عبد الله ابن زياد حَمَلَها معه إلى البَصرَة ، وبَنى هنالك القَصْرَ المَنسوبَ إليه ، فلمّا كَمُل بناؤه قال لها : هَلْ رأيت قَطُّ مِثلَه ؟ قالت : إنّهُ لَحَسَنٌ ، قال لها : لِتَصْدُقِنّي ؟ قالت : أمّا إذ أبَيت فوَالله : ما رأيتُ مِثْلَ القَصْرِ الأحْمَر وفيه عبد الله بن زياد ! والقصر الأحمر هو دارُ الإمارَة بالبَصْرَة ، وكانَ عَبدُ الله بنُ زياد بَناه بطين أحمَر — فَغضبَ الحجّاجُ غَضَباً شديداً ، وطَلَّقَها بسبب ذلك ، ثمّ بعثَ إلى القَصر الأحمر فهدَمَه وبناه بنياناً آخَرَ ، ثمّ هُدِم بعد ذلك وأُدخِلَ في جامع البَصرة . . .

وجاء زَيْدُ بن حارِثَة إلى النّبي ﷺ فقال له : تَزَوّجْتَ يا زيد ؟ قال : لا يا رسولَ الله ، قال : تَزَوّجْ تَسْتَعِفَّ ، وَلا تَتَزَوّجْ خَمْساً ، لا تَتَزَوّجْ شهْبَرَةً وَلا لهْبَرَةً ولا نَهْبَرَةً ولا هَيْدَرَةً وَلا لَفوتاً ، قال زيد : وَالله

يا رسول الله ما أعرف مما قلت شيئا ، قال : أمَّا الشَّهْبَرَة : فالزَّرْقاء البَذِيَّة ، وأمَّا اللَّهْبَرَة : فالطويلة الهزيلة ، وأما النَّهْبَرَةُ : فالعجوز المُدْبِرَة ، وأمَّا الهيدرة : فالقصيرة القبيحة ، وأمَّا اللَّفوت : فذات الولد من غيرك . . .

وقالوا : إن لم تتزوَّجْ بِكراً فتزوَّجْ مُطَلَّقَةً ولا تتزوَّجْ مُمِيتَةً — التى مات زوجُها — فإنَّ المُطَلَّقَة تقول لها : لو كانَ فيك خير لما طَلَّقكِ زَوجُكِ ، والمُمِيتَة تقول لك : رَحِمَ الله فلاناً ، فه كانَ لى خيراً منك بكذا . . .

وكانت فضل الشاعِرَة لرجل من النخَّاسين ، فاشتراها منه محمد بن الفرج وأهداها إلى المتوكل ، وكانت يَرْزَةً ، تجلِسُ للرجال وتتحدّث مع الشعراء ، فقال لها يوماً أبو دُلف العِجْلى يُعَرِّض لها بأنَّ المُتَوَكل إنما اشتراها وهى ثيب :

قالوا : عَشقتَ صَغيرَةً فأجَبْتُهُمْ ... أَشْهَى المَطِىِّ إلىَّ ما لَمْ يُرْكَبِ

كَمْ بينَ حَبَّةِ لُؤلؤٍ مَثْقُوبَةٍ ... نُظِمَتْ وَحَبَّةِ لؤلؤٍ لَمْ تُثْقَبِ

فأجابته :

إنَّ المَطِيَّةَ لا يَلذُّ رُكوبُهـــا ... ما لَمْ تُذَلَّلَ بالزِّمامِ وتُرْكَبِ

والدُّرُّ ليس بنـــافِعٍ أربابَهُ ... حَتَّى يُجَمَّعَ للنِّظامِ بِمِثْقَبِ

ولعبد الله بن قيس الرُّقَيَّات :

حَبَّذا الحج والثُّرَيَّا ومَن بالخَيْـــفِ من أهلها ومَلْقَى الرِّحال

درَّةٌ من عقائِلِ البحر بِكْرٌ ... لم تَنَلْهَـــا مَثاقِبُ اللَّآلِ

«اللَّآلُ : صاحب اللؤلؤ» .

وعُرِضَتْ عَلَى المُتَوَكِّل جارِيَةٌ ، فقال لها : أبِكْرٌ أنتِ أم إيش ؟

فقالت : إيْشْ يا أميرَ المؤمنين ! فَضَحكَ منها واشتراها . . .

* * *

وفى الحديث أن رسولَ الله قال لجابر بن عبد الله : أنكَحْت يا جابر ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : أبكراً أم ثيباً ؟ قال : بل ثيباً ، قال : فهلاَّ بكراً تُلاَعِبُها وتُلاعِبك وتُضاحِكها وتُضاحكك . . . !

وقال حكيم لمَن استشاره : أمَّا البكر فلَكَ لا عليك ، وأما الثَّيِّبُ فلَكَ وعليك ، وأمَّا ذات الوَلَد فعليك لا لك .

ومن طريف ما يُروَى فى هذا المعنى أن رَجُلًا أراد النِّكاحَ ، فقال : لأستشيرَنَّ أوَّلَ مَن يَطْلعُ ، ثُمَّ لأَعْمَلَنَّ بِرَأْيِه ، وكانَ أوَّلَ مَن طلع عليه هَبَنَّقَة القَيْسِيُّ وهو راكبٌ عَلَى قَصَبَتِه — وكان من عُقلاء المجانين فقال له : إنِّى أردتُ النكاح ، فما تُشيرُ علىّ ؟ قال : البِكْرُ لك ، والثيِّبُ عليك ، وذات الولد لا تَقْرَبها ، واحْذَرْ جَوادى أن يَرْمَحَك . . .

« ومن كلمة لِعُمَرَ بن الخطاب : البِكْرُ كالبُرَّة : — (١) تُطْحَنُ ثُمَّ تُعْجَنُ ثُمَّ تُخْبَزُ ، ثُمَّ تُؤْكَلُ ، والثَّيِّب عُجالَةُ الرَّاكب ، تَمْرٌ وسَوِيق . يُشير عُمَر بذلك إلى سُهولَة أمْرِ الثيِّب ، وأن البِكْرَ تحتاج فى تَزَوُّجِها والبِناء بها إلى كُلَفٍ شَدِيدَة ؛ وكانت العربُ يُمِرُّ بها الراكِبُ المستعجل فتَعْرِضُ عليه النزول لِلقِرَى — الضيافة — فيمتنع لعَجلته ، فتُخْرِجُ له ما استَيْسَرَ فيأكله وهو راكب فذلك هو عُجالة الراكب » .

* * *

---

(١) كالبُرَّة ، فى عيون الأخبار كالذُّرَة والبُرَّةُ واحدة البُرُّ — القمح — .

وللحَريرى فى المقامة الثالثة والأربعين وهى البكرية قطعَة فى تفضيل البكر عَلَى الثيب يقول فيهـــا : أمَّا البِكرُ فالدُّرَّةَ المخْزونَة[١] ، والبَيضَةَ المكنونة[٢] ، والباكُورَةَ الجَنِيَّةُ[٣] ، والسُّلافَةَ المَدْخُورَةُ الهَنِيَّة[٤] ، والرَّوضَةُ الأُنُف[٥] ، والطَّوقُ الذى ثَمُنَ وشَرُف[٦] ، لم يُدَنِّسْها لامِس[٧] ، ولا استَغْشاها لابِس[٨] ، ولا مارَسَها عابِث[٩] ، ولا وَكَسَها طامِثٌ[١٠] ، ولَها الوَجْهُ الحَيِيُّ ؛

---

(١) الدرّة : الجوهرة والمخزونة : التى تجعل فى الخزانة لرفعتها ، يريد : أن البكر تحجب وتصان .

(٢) أراد بالبيضة بيضة النَّعام ، ويشبّه بها النساء لبياضها والصفرة التى تضرب فيها قال ذو الرمة * كأنها فضة قد مَسَّها ذَهَب * والمكنونة : المصونة ، والنعامة تكنّ بيضتها بريشها ولاتبديها للشمس والريح لئلا تتغير ، وفى القرآن الكريم : كأنهن بيض مكنون .

(٣) الباكورة : أول ما يبكر من الثمار .

(٤) السلافة : الخمر ، والمدخورة : المحجوبة فى آنيتها .

(٥) الأنف : التى لم تُرْعَ بعد .

(٦) الطوق : الثوب الرفيع والطوق : الحُلى يجعل فى العنق ، وثَمُن : كثر ثمنه .

(٧) من قولهم : فلانة لا تردّ يَدَ لامسٍ أى لا تمنع مقاربتها من أرادها . ولعله يريد : لم يلاعبها أحد .

(٨) استغشاها : جامعها ، واللابس : الذى لابسها واختلط بها .

(٩) مارسها : عالجها وعاناها ، وعابث : مُفْسِدٌ ، أرادَ من يعبث بها عند الجماع كما يحدث للثيب .

(١٠) وكسها : نقصها ووضع منها ، والوكس : الخسارة فى البيع ، والطامث : الناكح والطامث : المفتض للبكر ، قال تعالى : لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانٌّ : أى لم يفتضّهن أو لم يَمْسَسْهُنَّ .

والطَّرْف الخَفِيُّ ، واللسانُ العَيِيُّ[١] ، والقَلبُ النَّقِيُّ ؛ ثُمَّ هى الدُّمْيَةُ المُلاعِبَةُ[٢] ، واللُّعْبَةُ المُداعِبَةُ[٣] ، والغَزالةُ المُغازِلةُ[٤] ، والملحة الكامِلة[٥] والوِشاحُ الطَّاهِرِ القَشيب[٦] ، والضجيع الذى يُشِبّ ولا يُشيب[٧] . . . ثم قال فى مساوى البكر وهى المُهرَة الأبِيَّةُ العِنان[٨] ، والمطِيَّة الأبِيَّـــة الإذْعان[٩] والزَّندة المُتَعَسِّرَة الاقتداح[١٠] والقَلْعَةَ المُسْتَصْعَبةُ الافتتاح ، ثم إنَّ مُؤنَتها كثيرة ،

---

(١) العَيِيّ : الذى لا يعرف تصرفات الكلام .

(٢) الدمية : الصورة ، وقول الشاعر :

إنَّ شِوَاءً ونَشْوَةً وخَبَبَ البازل الأمُون
والبيضَ يَرْفَلن كالدُّمَى فى الرَّيْطِ والمُذْهَبِ المَصُونِ

«يريد الشاعر : ثياباً فيها تصاوير» .

(٣) اللعبة : ما يلعب به وفى الحديث : المرأة لعبة الرجل فإن استطاع أحدكم أن يستحسن لعبته فَلْيَفْعَل ، والمداعبة : الممازحة .

(٤) تقول : غازلتنى المرأة : إذا تماجنت عليك فى كلامها وأشارت إليك بعينها وغمزتك بحاجبها حتى إذا طمعت فيها صدَّت عنك .

(٥) الملحة : الصورة المستملحة كالدمى وكالصور التى تلعب بها البنات وهى اللعب ، وجاء بملحة : أى بكلمة طيبة مليحة .

(٦) الوشاح : الحزام ، والقشيب : الجديد ، جعلها كالوشاح عند عناقها وجماعها .

(٧) يُشب : يَرُدُّك شاباً ، ولا يشيب : لا يكسوك الشيب .

(٨) الأبية العنان : الممتنعة القياد .

(٩) الإذعان : الخضوع والذلة .

(١٠) الزندة : ما تزند منه النار ، والمتعسرة الاقتداح : التى يعسر إخراج النار منها .

ومَعونتَها يَسيرَة ، وعِشرَتَها صَلِفَة[١] ، وَدَالَّتَها مُكَلَّفَة[٢] ، ويَدَها خَرْقاء[٣] ، وفِتنَتَها صَمّاء[٤] ، وعَرِيكَتَها خَشْناء[٥] ، وليلتَها ليلاء[٦] ، وفى رياضَتِها عَناء ، وعَلى خِبْرَتِها غِشاء[٧] ، وطالما أخْزَت المَنازِلَ ، وفَرِكَت المَغازِل[٨] ، وأخنَقَت الهازِلَ ، وأضْرَعَتِ الفَنِيقَ البازِلَ[٩] ؛ ثمّ إنها التى تقول : أنا ألْبَسُ وأجْلِس ، فأطلُبُ مَن يُطْلِق ويَحْبِس[١٠] ، ثم قال فى محاسن الثّياب : أما الثّياب فالطَّيِّبَةُ المُذَلَّلة ، واللُّهْنَةُ المُعَجَّلة[١١] ، والبُغْيَةُ المُسَهَّلَةُ ، والطَّيِّبَةُ المُعَلَّلَة[١٢] ، والقرينة

---

(١) صَلِفَةٌ : مُجاوِزَةٌ حَدَّ الطوق ، وأصل الصَّلَفِ الإعْرَاضُ عن الشىء كأنه إذا استقبلك أبديت له صليفك وهو صفحة عـنُقِكَ .

(٢) دالتها : انبساطها يريد انبساطها إذا أرادتْ أن تُدلَّ عليك تتكلف ذلك .

(٣) خرقاء : لا تحسن العمل .

(٤) فتنتها : شرّها ، وصماء : شديدة كأنها لا تسمع النهى والعذل .

(٥) عريكتها : طبيعتها ، وفلان لين العريكة : إذا كان لين الخلق سلسه ، وشديد العريكة إذا كان شديد النفس أبيًّا ، والعريكة : النفس يقال : صعب العريكة وسهل العريكة أى النفس .

(٦) ليلاء : شديد السّواد طويلة .

(٧) الخبرة : التجربة والعلم بحقيقة الحال ، والغشاء : الغطاء أى أن البكر لا يعرف حالها كالشىء الذى يحول بينك وبين معرفته حاجز فلا يُعْرَفُ إلاّ بعد زواله وذلك بطول المعاشرة .

(٨) فركت : أبغضت والمغازل : المحادث لها الممازح .

(٩) الفنيق البازل يريد الرجل المجرب واصل الفنيق الفحل من الابل ، والبازل : الذى طعن فى السنة التاسعة .

(١٠) أى أطلب مَنْ له حَبْسٌ وإطلاق ونفاذ وتصرف .

(١١) اللهنة : ما يعمل للضيف قبل القِرَى .

(١٢) والطَّيِّبَةُ : الخبيرة والمعللة : التى تعطيك ما تريد منها مَرَّةً بعد مَرَّة

المُتَحَبِّبَةُ ، والخَلِيلة المتقرِّبة[١] ، والصَّنَاع[٢] : المدبِّرة ، والفَطِنة المُخْتَبِرَةُ ، ثم إنها عُجالة الراكب[٣] ، وأنشوطة الخاطب[٤] ، وقعدة العاجز[٥] ، ونُهزة المبارز[٦] ، عَريكتها لَيِّنة[٧] ، وعُقْلَتها هَيِّنة[٨] ، ودِخْلَتُها مُتَبَيِّنَة[٩] ، وخدمتُها مُزَيَّنَة ، ثم قال فى مَساوِيهـــا : هى فُضالة الأكل[١٠] ، وثُمالة المَنْهل[١١] ، واللباس المُسْتَبْذَل ، والوعاء المستعمل ، والذَّوَّاقَةُ المتطَرِّفَة[١٢] ، والخرَّاجة

---

(١) الخليلة : الزوجة .

(٢) الصَّنَاعُ : الحاذقة بالصنعة .

(٣) عجالة الراكب : ما يعجل للراكب فى الطعام والشراب مثل التمر والسويق وما لا تعب فى معالجته .

(٤) الأنشوطة : عقدة تحل بسهولة .

(٥) قعدة العاجز : أى مطيته لأن العاجز لا يقدر على تزوج البكر .

(٦) النهزة : الغنيمة السهلة والفرصة .

(٧) عريكتها لينة : يريد أن طبيعتها سهلة لينة وأصل العريكة سنام البعير وكانوا يعمدون إلى البعير إذا كان فيه شماس وامتناع فيقطعون من حَوِيَّتِه وهى مرتفعة يصعب الركوب عليها فإذا قطع منها سكن البعير ولان ويُوَطَّأُ موضع الركوب منه فيقال قد لانت عريكته . . . .

(٨) عقلتها : حَبْسَتُهَا يريد أن ما يعقلها به زوجُها شىء هين .

(٩) دخلتها : باطن أمرها ، ومتبينة : ظاهرة يريد أن شرها ظاهر .

(١٠) فضالة : بقية .

(١١) ثمالة المنهل : بقية الماء .

(١٢) الذواقة : التى تذوق طرف الشىء . وتتركه أو تذوق بطرف لسانها ثم تبصقه والمتطرفة من تطرفت الناقة : رعت بأطراف المرعى ، يريد أنها لا تبقى على زوج واحد إنما هى تذوق كل زوج وتجرب لذة مباشرتهم .

المتصرّفة[١]، والوقاح[٢]، المتسلّطة ، والمحتكرة المتسخّطة[٣]، ثمّ كلمتها : كنتُ وصرتُ[٤]، وطالما بُغِيَ عليّ فنُصِرْتُ[٥]، وشتّانَ بين اليوم والأمس وأين القمر من الشمس[٦]، وإن كانت الحنّانة البَرُوك[٧] ، والطمّاحة الهلوك[٨]، فهى الغُلّ القَمِل[٩]، والجُرْحُ الذى لا يَنْدَمِل[١٠] .

ومن طُرَفهم فى هذا الباب ما أورده ابن قيم الجوزية فى كتاب المغفّلين ، وذلك أنَّ رَجُلاً اشترى جارية على أنها بِكر وحملها إلى منزله ، فذكر له نِساؤه أنها ثَيِّب ، فاختصم فيها مع البائع : فأمرَ القاضى أن تُوضَعَ عند أمين ،

---

(١) الخراجة : الكثيرة الخروج والمتصرفة : الجوالة .

(٢) الوقاح : القليلة الحياء ، والمتسلطة : من السلاطة وامرأة سليطة : صخّابة .

(٣) المحتكرة : التى تسرق مال زوجها ثم تحتكره أى تدّخره فإذا احتاج زوجها لشرائه أخذت منه ثمن ما عندها محتكراً .

(٤) تخاطب بذلك زوجها أى كنت فى نعمة مع الزوج الأول وأنا معك فى شقاء .

(٥) بغى علىّ : أى ظُلِمْتُ .

(٦) وشتان : بُعْدَ واليوم والأمس ؛ الزوج الحاضر معها والزوج المفقود وهو الذى أراد بالقمر والشمس .

(٧) الحنّانة : ذات الولد من زوجها الأول فتى رأت ولدها حنّت لوالده ، والبروك : التى تتزوج ولها ولد كبير بالغ .

(٨) الطماحة : التى فارقها زوجها فتطمح له أبداً وتتهالك فى محبته أو التى تطمح إلى كل شهوة ، والهلوك : الفاجرة .

(٩) الغل : القيد الذى يقيَّد به الأسير أى يوضع فى عنقه ويديه ، والقمل : الذى كثر فيه القمل .

(١٠) لا يندمل : لا يبرأ .

إلى أن يكشفَ القوابل أمرَها ، فأُودِعَت عنـــد إمام المسجد ، فلمَّا أصبح الإمام وصل إلى القاضى وهو يتأوّه ويقول : ذهبت الأمانة من النِّساء ، فسأله القاضى عن قضيته ، فقال : إنَّ مُشْترِى الجارية قد اطمأنَّ إلى بائعها وأخذها منه على أنها بكر ، فخدَعَه فيها وخانه ، وإنِّى قد جرَّبتُها البارحة فوجدْتُها ثيِّبا واسعة . . . فمن ذا الذى يُوثَق به ومن ذا الذى يركن إليه !

ومن هذه الطرف ما رواه الجاحظ فى البيان : قال : تَزَوَّجَ معاويةُ بنُ مَرْوانَ بن الحَكم بعضَ بنات الأشراف ، وكانت بكراً ، فافْتَضَّها ، فلمَّا أصبح قال لأبيها على رُءوس الاشهاد : ما أرتنا ابنتُكَ البارحةَ دماً ! فاستَحْيا ، وقال : إنَّها من نساء يَخْبَأْنَ ذلك لأزواجهنَّ . . . ومُعاوية هذا هو شقيق عبد الملك ابن مروان ، أُمّهما عائشَة بنت معاوية بن المغيرة ، وكانَ مُحَمَّق ، وهو الذى رأى جرساً على بعض دوابّ الطحن ، فسأل رَبّ الدابَّة عن ذلك ! فقال : رُبَّما أدركتنى نعسَة ، فإذا لم أسمع صوت الجرس علمت أنها قد وقفت ، فَصِحْتُ بها ، قال : فإنْ وقفت وحرّكت رأسها هكذا — وجعل معاويةُ يحرك رأسه يَمنَةً ويَسْرَة . . . ! فقال : وَمَن لدابتى بمثل عقل الأمير . . . !

ومما يتصل بهذا الباب ذلك التشبيه البديع لعبد الله بن المعتز :

تَظَلُّ الشمس نرمُقنا بِطَرْفٍ خـــفيٍّ لحظُه مِن تحت سِتْر
تحـــاول فتقَ غيم وهو يأبى كعِنِّينٍ يُحاول فتقَ بِكر

ومما له تَعَلُّقٌ بهذا الباب قول بشار أو إبراهيم بن هَرمَة :

أبو ثابت يتشهَّى المديحَ ويرغب عن صِلة المادح
كبِكْرٍ تُحِبُّ لذيذَ النكاح وترهب مِن صولة الناكح

وقد كرر ابنُ هَرْمة هذا المعنى فقال : يهجو العباس بن الوليد بن عبد الملك وكانَ لا يحب أن يعطى أحداً شـــيئاً وكان ينكر على الشعراء عدم مدحهم إياه[1] .

فأنت وَالمدح كالعذراء يعجبها ... مَسُّ الرجال ويَشْنى قلبها الفَرَق

وَمن هذا الباب قول ابن عَبد رَبِّه صاحب العقد :

نَهـــارٌ لاحَ فى سِرْبَالِ لَيل ... فما عُرِفَ الرّواح من البكور

وَعَيْنُ الشمس ترنو من بعيدٍ ... رُنُوّ البِكْرِ مِنْ خَلْف السُّتور

وَرأى القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب جارية فعَشقها ، ولم يزل يسعى فى تملكها إلى أن اشتراها فلما هُيِّئَت له وعَزم على افتضاضها — وكانت بكراً — أدركها الحيض ؛ فأعلمته بذلك ، فكَفَّ عنها ، وأعلم بذلك أبا إسحاق الزجاج النحوى وطلب منه أن ينظم فى ذلك شعراً ، فقال :

فارسٌ ماض بِحَرْبَتِه ... ضَرِبٌ بالطعْنِ فى الظُّلَمِ

رَامَ أنْ يُدْمِى فريستَه ... فاتَّقته من دَمٍ بِدَمِ

ومن كناياتهم :

تقول العرب : باتت فلانةُ بِلَيْلَةِ حُرَّةٍ ، يَعْنُونَ أنَّها لم تُمَكِّنْ زَوجَها مِن افتضاضها فى الليلة التى زُفّت فيها ، أو لم يَقْدِرْ بَعلُها على افتِضاضها ، قال النابغة يَصِفُ نِساءً :

---

(١) انظر الأغانى ج ٦ ص ١٠٢ ،

شُمُسٌ مَوانِعُ كُلَّ لَيْلَةِ حُرَّةٍ يُخْلِفْنَ ظَنَّ الفاحِشِ المِغْيارِ (١)

قالوا : فإن افتَضَّها زَوجُها فى الليلة التى زُفَّت إليه فهى بِلَيْلَةٍ شَيْباء ، قال الزَمَخْشرى فى أساس البَلاغة : وباتَتْ بِلَيْلَةٍ شيباء : إذا غَلَبَها على نفسِها الزَّوْجُ ليلَةَ هِدَائها — زفافِها — كأنَّها دُهِيَت بأمْرٍ شديدٍ تَشِيبُ منه الذَّوائب، وجاء فى اللسان ما يؤخذ منه أن ياء شيباء بَدَلٌ من واو ، فيكون ذلك لأن ماء الرجل شاب ماء المرأة ...

* * *

وَعُرِضَ على رجُل جاريتان ، إحْداهما بِكْرٌ والأُخْرَى ثَيِّبٌ ، فمال إلى البِكر ورَغِبَ عن الثيب ، فقالت الثيِّب : لِمَ رَغِبْتَ عَنِّى بها دُونى وما بَيْنِى وبينها إلاَّ يَومٌ واحد ؟ فقالت البِكر : إن يوماً عند ربك كألْفِ سَنَةٍ مما تَعُدُّون ...

وَمن طريف كناياتهم عن افتضاض العذرة ما يُروَى فى أخبار بشار بن بُرد أنَّ يزيدَ بنَ مَنصور الحِمْيَرِىّ دخل على المَهْدِىّ — الخليفة العباس والدموس الهادى وهارون الرشيد — وبَشَّارٌ بين يَدَيه يُنْشِدُه قصيدَةً امتدحَه بها ، فلمَّا فَرَغَ منها أقبَلَ عليه يزيد — وكانت فيه غَفْلَةٌ — فقال له : يا شَيْخ ، ما صِناعَتُك ؟ فقال : أثْقُبُ اللؤلُؤ ، فَضَحِكَ المَهْدِىُّ ، ثم قال لبشار : أعْزُبْ

---

(١) الفاحش : البخيل ، أو ذو الفُحْشِ والخَنَا ، والمغيار : الشديد الغيرة ، ومن شأن الفاحش المغيار سوء الظن بالنساء فهؤلاء النسوة يخلفن ظنه لأنهن عفيفات ، وشُمُس جمع شَمُوس والشموس من النساء : التى لا تطالع الرجال ولا تطمعهم .

ويلك ، أتتنادَرُ على خالى ! فقال بشار : وَما أَصنَع بِه ! يَرَى شيخاً أعمَى يُنشِدُ الخليفَة شِعْراً ويسأله عن صناعته !

وَقال الصاحبُ بن عباد لأبى العلاء الأسدى وَقد دَخَل بأهله ، من أبيات :

وَقد مَضى يومان مِن شَهْرِنا ... فقُل لنـــا هل ثُقِبَ الدُّر

وَقال أيضاً :

قلبي على الجَمْرَة يا با العَـــلا ... فهل فَتَحْتَ المَوضِعَ المُقفَلا

وَهل فَـكَـكتَ الـكِيس عن خَتْمِه

وَهل كَحَلْتَ النـــاظِرَ الأحْولا

المهور :

قال عَزَّ وجل (وآتوا النِّساء صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فإِنْ طِبْنَ لـكم عَن شيء منه نفساً فَـكلوهُ هَنيئاً مَريئاً) .

«صَدُقاتِهِنَّ : مُهورهُنَّ ، ونِحْلَة . مِن نَحَلَهُ كذا : إذا أعطاه إيَّاه ووهبهُ له عن طِيبَة نفسٍ ، ونَصْبُه على المصدر ، فـكأنه قِيل : وانحِلُوا النساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلِةً ، أى أعطوهُنَّ مهورَهُنَّ عن طيبة نَفْسٍ .

وقال بعض العلماء : هى نِحْلَة من الله للنساء ، أنْ جَعَل على الرَّجلِ الصداقَ ولم يَجْعَلْ على المرأة شيئا مِن الغُرْم ، والمخاطب بهذه الآية الأولياء ، وكانوا فى الجاهليَّة لا يُعطونَ النساءَ مِن مُهورهِنَّ شيئا ، وكانت العربُ تقول فى الجاهليَّة للرجُل إذا وُلِدَت له بِنْتٌ : هنيئاً لكَ النَّافِجَةُ ، أى المُعَظِّمَةُ لِمَالِكَ ، وذلك أنَّهُ يُزَوِّجُها فيأخُذُ مَهْرَها من الإبل فيَضُمُّها إلى إبِلِه ، فَيَنْفُجها : أى يُكَثِّرُها ، ويقال للإبل التى يَرِثُها الرجلُ فَتَكْثُرُ بها إبِلهُ : نافِجَة ؛ وقيل : الخطاب للأزوَاج ، أى أدُّوا المُهُورَ عن طيب نفس منكم كما تُطيبونَ نَفْساً بسائر المعاوضات ، ثم قال سبحانه : فانْ طِبْنَ لـكم عن شيء منه

نفسا فكلوه ، فانّ العلماء : لم يختلفوا فى أنّ المالكة لأمْرِ نَفْسِها إذا وهبَت مَهْرَها لزَوجها يُنَفَّذُ عنها ولا رجوع لها فيه ، إلّا ما رُوى عن القاضى شريح أنه رأى أنّ لها الرجوع فى ذلك ، قال : فانها لو طابت به نفساً لم تطالبه به «انظر كتب الفقه» .

وقال سبحانه (وإنْ أرَدْتُم استبدالَ زَوجٍ مَكانَ زَوْجٍ وآتيتم إحْدَاهُنّ قِنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخُذُونَهُ بُهْتاناً وإثماً مُبيناً ؟ وكَيْفَ تأخذونه وقد أفْضَى بعضكم إلى بعض وأخَذْنَ مِنكم ميثاقاً غليظاً) .

«قال علماؤنا» هذا إذا لم يكن بِمُرَادِهِنّ واختيارِهِنّ ، وأمّا إذا طِبْنَ به نفساً فيجُوزُ لهم أخذه كما تقدّم ، هذا ، وقد رَوَوا أنّ عُمَرَ بن الخَطّاب رضى الله عنه قامَ خطيباً على المِنبَر فقال : أيُّها الناس ، لا تُغَالُوا بِصَداقِ النساء ، فلو كانت مَكرُمَةً فى الدنيا أو تقوى عند الله لكانَ أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصْدَقَ امرأةً مِن نسائه أكثرَ من اثنَتَىْ عَشْرَةَ أوقيّة — ٤٨٠ درهماً — فقامَت إليه امرأةٌ فقالت له يا : أميرَ المؤمنين ، لِمَ تمنَعُنا حَقّاً جعله الله لنا ؟ والله يقول : وآتيتم إحداهُنّ قنطاراً ؟ فقال عمر : كُلُّ أحَدٍ أعلَمُ مِنْ عُمَر ! ثم قال لأصحابه : تسمعونني أقول مِثلَ هذا القول فلا تُنكرونه عَلَيّ حتي تَرُدّ علىّ امرأةٌ ليست مِن أعلم النساء ! قال الغزالى : وهذا لم يقُلْه عمر عَلَى وَجْهِ التحريم ولكن على وجه النّدب والتعليم ، قال : وقد تناهى الناسُ فى الصدقات حتى بلغ صَداقُ أحَدِهِم ألفَ ألفٍ ، وهذا قلّ أنْ يوجَدَ من حلال . . .

وقال القاضى عياض : لا خلافَ بين العلماء أنّه لا حَدَّ لأكثَرِ الصّدَاقِ وأمّا أقَلُّه فقال مالِكٌ : لا يجوزُ النكاحُ بأقَلّ مِن رُبْعِ دِينار ، وهذا مما تفرّد به مالك ، وكافّةُ العلماء على جَوازِه بِمَا تَرَاضَى عليه الزّوجان أوْ مَن له العَقدُ مما

فيه منفعة وإن كانت قيمته أقلّ من درهم ، وهو قول الشافعى وربيعة الرأى وابن أبى الزناد والأوزاعىّ وداود الظاهرى وفقهاء الحديث ، مع استحباب بعضهم أن يكون المهر مما له بالٌ ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : أقلّه عشرة دراهم ، وقال ابن شبرمة : أقلّه خمسة دراهم ، وكره النخعىّ أن يتزوّج بأقلّ من أربعين درهماً «انظر كتب الفقه» .

* * *

وقال سيدنا رسولُ الله (أعظمُ النساء بركةً أيسرُهن مؤنةً) وقال صلوات الله عليه (تياسَروا فى الصداق فإنّ الرجل ليُعطى المرأةَ حتى يبقى ذلك فى نفسه حسكة» .

«حسكة : أى عداوة وحقداً» .

وقال عروة بن الزبير : أوّلُ شؤم المرأة كثرةُ صداقها . . . وسأل بعضُ الصحابة عائشةَ رضى الله عنها : كم كان صداق النبى (صلعم) لأزواجه ؟ قالت : كان صداقُه ثنتى عشرة أوقيّة ونشًا ، قالت : والنشُّ : نصف أوقيّة .

«قال الإمامُ الجوهرى : النشُّ : عشرون درهماً ، وهو نصف أوقية ، لأنهم يُسمّون الأربعين درهماً أوقيّة ، ويُسمّون العشرين نشًا ، ويُسمّون الخمسة نواة» .

أقول : ولا يُعترضُ على هذا الحديث بالحديث الذى يُروى عن الزهرى : أنّ النجاشىّ زوّج أمّ حبيبة بنت أبى سفيان من رسول الله وأمهرها عنه أربعة آلاف درهم ، وكتب بذلك إلى رسول الله فقبلَه ، فإنّ هذا شىء فعله النجاشىّ وتطوّع به من ماله ولم يبتدئه النبىّ ولا أدّاه من ماله .

* * *

وَرُوى أنَّ عبد الرحمن بنَ عوفٍ تزوَّج امرأةً على وَزْن نَواةٍ ، فرأى النبيُّ بَشَاشَةَ العُرْسِ ، فسألَهُ ؟ فقال : تَزَوَّجْتُ على وَزْنِ نَواةٍ . . .

«النَّواة : خمسة دراهم كما تقدَّم» .

وَجاء رجل إلى رسولِ الله فقال : يا رسولَ الله ، إنِّى تَزَوَّجْتُ امرأةً من الأنصار ، فقال له رسولُ الله : هل نَظَرْت إليها ؟ قال : قدنَظَرْتُ ، قال : عَلَى كَمْ تَزَوَّجتَها ؟ قال : على أربَعِ أَوَاقٍ فقال النبى صلوات الله عليه : عَلى أربَعِ أَواق ؟ لكأنَّما تَنْحَتُونَ الفِضَّةَ مِن عُرضِ هـــذا الجبل ! ما عِندَنا ما نُعطِيك ، ولـكن عَسَى أنْ نَبْعَثَكَ فى بَعثٍ تُصيبُ منه ، فبَعثَ بَعثًا إلى بَنى عَبْسٍ بُعِثَ ذلك الرجلُ فيهم . . .

وَأصْدَق علىُّ بن أبى طالب فاطِمَةَ بنت سيدنا رسول الله دِرعاً من حديد .

«وهذه الدرع هى دِرعُهُ المعروفةبالحُطَمِيَّة ، نسبة إلى بطنٍ مِن عبد القيس يقال لهم حُطَمَةُ بن محاربٍ كانوا يَعملونَ الدُّروع ، والحُطَمِيَّةُ أيضًا هى التى تُحطِمُ السيوفَ ، أى تكسِرُها ، وقد باعَ سيدنا رسول الله هذه الدرع بأربعمائة وثمانينَ دِرهماً وزَوَّجَ عَليًّا عليها» .

* * *

وَقال رجل لحكيم ، إنِّى أُريد أن أتزوّج ؟ فقال : كم المَهْرُ ؟ قال : مائة دينار ، قال : لا تَفْعَلْ ، تَزَوَّجْ بعشرةِ دنانيرَ فإنْ وَافقَتْكَ رَبِحْتَ تِسْعِين ، وَإن لم تُوافِقْكَ تَزَوَّجْتَ بعَشرة أُخرى . وَلا بُدّ فى عَشْرِ نِسْوَةٍ من امرأةٍ تُوَافِقُك . . .

* * *

وتزوَّجَ مصْعَبُ بنُ الزُّبَير سُكينَةَ بنتَ الحُسَين بن على بن أبى طالب وعائشَةَ بنتَ طلحة فامهَرَ كُلَّ واحِدَةٍ منهما بالْفِ أَلْفِ دِرهم ، وفى ذلك يقول أَنَسُ بن زنيم الليثى :

أَبْلِغْ أميرَ المُؤمِنينَ رِسالَةً ... مِن ناصِحٍ لك لا يُرِيدُ خِداعا
بُضْعُ الفتاةِ بأَلْفِ أَلْفٍ كامِلٍ ... وتَبيتُ حُرَّاسُ الثُّغورِ جِياعا !

فبلَغَ ذلك أخا مُصْعَب عَبدَ الله بن الزُّبير ، فقال : إنَّ مُصعَبا قَدَّمَ أَبْرَه وأَخَّرَ خيرَه ! وكتب إليه يُؤَنِّبُه على ما فعَل ويَأْمُرُه بالشُّخوص ويُقْسِم عليه ألاّ يَنْزِل بمَكَّةَ ولا بالمَدِينَةِ ، وأنْ يَكونَ نُزولهُ بالبَيْدَاء ، وقال : إنِّى لأرجو أن يكونَ هو الذى يُخْسَفُ به فى البَيداء ، فصارَ إليه مُصعَب يَتَرَضَّاه ، فقال : ويحكَ يا مصعب ، أرأيتَ مَن صنَع ما صنعت ! أتَعْمِدُ إلى مالِ الله فتَعْهَرُ منـــه عائِشَةَ أَلْفَ أَلْفِ دِرهم ! أَبُرَاكَ تَعْرِفُ مِن بَحْر ! فلانَ له مُصْعَبٌ وقال : قد كان ما كان ، فتَغافَلَ عنه ، وعَاد مُصْعبٌ إلى عمله ودَخَل بعائشَةَ . . . وكان عبدُ الله بن الزبير بخيلا ولم يكن فى آل الزبير جواد غير مُصْعَبٍ . . .

نظر الرجل إلى المرأة التى يريد تزوُّجها :

قَال المُغيرة بن شعبة : خطبت امرأةً على عهد رسول الله «صلعم» فقال لى : أَنَظَرْتَ إليها ؟ قُلْتُ : لا ، قَال : فانظُر إليهـــا فإنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بينكما . . . «أَنْ يُؤْدَمَ بينكما : أى تَكُونَ بينكما المحبَّة والاتفاق ، يقال : أَدَمَ الله بينَهما يأدِمُ أَدْماً : أى أَلَّفَ ووَفَّق ، ويقال : آدَمَ بينهما يؤدِم إيداماً أيضاً ، فَعَل وأفعَل بمَعْنًى» .

وَقَالَ الغَزالِيُّ : كان بَعضُ المُتَوَرِّعِين لا يُنكِحُونَ كرائمَهم إلاَّ بَعْدَ النظر احترازاً من الغُرور — يريد الخداع — وقال الأعمش : كُلُّ تزويج يَقَعُ على غير نَظَر فآخِرُهُ هَمٌّ وَغَمٌّ ، وهو معلوم أنَّ النَّظر لا يُعَرِّف الخُلُقَ والدِّينَ والمالَ ، وإنما يُعَرِّفُ الجمالَ مِن القُبح ، فيُستَحَبُّ إزالَةُ الغرور — الخداع — فى الجمال بالنَّظر ، وفى الخُلُق بالوصْفِ والاستيصاف ، ومن ثَمَّ ينبغى أن يُقَدَّمَ ذلك على النِّكاح — الزّواج — ولا يَستَوْصِفَ إلاَّ بَصيراً حاذقاً خَبيراً بالظّاهر والباطِن مِن أحوالِها ، ذا دِينٍ ، لا يَميلُ إليها فيُفْرِطَ فى الثناء ، ولا يَحسُدَها فيُقَصِّرَ ؛ فالطباعُ مائِلةٌ فى مبادِى النكاح ووصف المنكوحات إلى الإفراط والتفريط ، وقَلَّ مَن يَصْدُقُ فيه ويَقتَصِد ، والخِداعُ أغلبُ ، فالاحتِياطُ فى ذلك فى الغايه من الأهمِّيَّة . . .

* * *

قَالَ العلماء : ولا يُحتاج فى نَظر الرجل إلى المرأة بعد عَزْمه على نكاحها وخِطبَتِه لها إلى استئذانها ، خلافاً لمالك ، فإنَّهُ شَرَط استئذانَها وكَرِهَ أن يَستَغفِلها مِن كُوَّةٍ ونحوها ، وذلك سَدّاً للذريعة ، وهذا من أصول مالك ، كأنَّه خافَ أن يتَسبَّبَ به أهل الفساد إلى الاطلاع على مَواضِع الفِتَنِ فإذا عُثِرَ على أحدهم قال : أنا خاطِب . . . واقتصر مالك على جواز النظر إلى الوجه والكفَّين خاصَّةً ، وزاد أبو حنيفة ظُهورَ القَدَمَين على أصلِه فى أنها ليس عليها سَترهما فى الصلاة ، وأباح غيرهما النَّظرَ إلى جميع بَدَنِها ما عدا السَّوْءتَين ، وقد رُوى أنْ عُمر بن الخطاب خطب إلى علىّ بن أبى طالب ابنته أُمّ كلثوم فذَكر له صِغَرَها ، فقيل له : إنَّه رَدَّك ! فعاوَدَه ، فقال له علىٌّ : أبْعَثُ بها

إليك فإنْ أرْضَتْكَ فهى امرأتُكَ ، فأرسلَ بها إليه ، فكَشَفَ عن ساقَيها ، فقالت : مَهْ ! لولا أنَّكَ أميرُ المؤمنين لَطَمَتْ عينَك ، وكانت أُمُّ كلثوم هذه وُلِدت قَبلَ وَفاةِ النَّبيّ ، وأُمُّها فاطمةُ بنتُ سيدنا رسول الله ، ويَزيد فى هذه القصة رُواةُ الأخبار أنَّه بعَثَ إليه بِثَوْبٍ وقال لها : قولى له : هذا هو الذى أخبَرَكَ عنه ، فقال لها عمر : قولى له : رضينا به ، فلما أدْبَرَت كشف عن ساقيها ، فقالت له ما تقدم ، ولمَّا رجعت إلى أبيها قالت : بَعَثْتَنى إلى شيخ سوء فعَلَ كذا وكذا ! فقال : هو زَوْجُكِ يا بُنَيَّة . . .

فأمَّا السَّوءتان فلا يباحُ النظر إليهما إلاَّ ما يُحْكَى عن داود الظاهرى من إباحَة النظر إلى سائر جسد المخطوبة حتى إلى الفَرْج ، وهذه الرِّواية إنَّما حكاها عنه أبو حامد الإسْفَرَايينى ، ولم تُرْوَ عن داود فى كتب أصحابه ، والأدِلَّة المانِعَة مِن النظر إلى العورَة تمنَع من ذلك ، ولا بَأسَ أنْ يبعَثَ امرأةً تنظر له وتُؤدِّى إليه ما رأته ، قال أنس رضى الله عنه إنَّ رسول الله «صلعم» أرْسَلَ أُمَّ سُلَيم تنظر إلى امرأةٍ وقال لها : شَمِّى عوارِضها — أسنانَها — وانظُرِى إلى عُرقُوبَيها .

وخَطَبَ رسولُ الله «صلعم» امرأةً ، فبعَثَ عائِشَةَ تنظُر إليها ، فجاءت فقالت : يا رسولَ الله ، ما رأيتُ طائلا ، فقال رسول الله : لَقَدْ رَأَيْتِ بِخَدِّها خالاً افْشَعَرَّ له كلُّ شَعْرَةٍ منكِ ، فقالت : يا رسولَ الله ! ما دونَكَ سِرٌّ ..

ويجوز للمرأة المخطوبَةِ مع ذلك أنْ تتَجَمَّلَ لمن أرادَ رُؤيتَها من الرجال وأنْ تُشَوِّق بزِينَتها .

الرهز :

الرَّهَز والارتهاز : كنايةٌ عن حركات وأصوات وألفاظ تصْدُر عَنِ المتناكِحين فى أثناء عملهما تعظُم بها لذَّتُهما وتتقوّى بها شهوتُهما .

قالت أُمُّ الضحّاك المُحارِبيَّة :

شفـــاءُ الحبِّ تقبيلٌ وضمٌّ ... وجرٌّ بالبُطونِ على البُطـــونِ
ورَهْزٌ تَهْمُلُ العينانِ منـــه ... وأخْـــذٌ بالذَّوائبِ والقُرون

وعُرِضَت على المتوكّل جارِيةٌ ، فقال لها : ما تُحْسِنين ؟ قالت : عِشْرِينَ فنًّا مِن الرَّهَز . . . فاشّ . اها . . .

وقال الأصمعيُّ : قال رجل من أهْلِ الحاضِرَة لرجل من أهْلِ البادِيَة : أتَعْرِفونَ الزِّنا عندكم بالبادِية ؟ قال : فما عندكم ؟ قال : الضَّمَّة والشَّمَّة والقُبلة قال الحضرى : ليس الأمرُ عندنا هكذا ، هو أنْ يُباضع الرَّجلُ المرأة ، فقال الأعرابيُّ : هذا طالِبُ ولَد .

وفى هذا المعنى يقول المأمون :

ما الحُبُّ إلاَّ قُبْلَةٌ ... وغمْزُ كَفٍّ وعَضُدْ
أَوْ كتْبٌ فيهـــا رُقَى ... أنفَذُ مِن نَفْثِ العُقَدْ
مَن لم يَكُنْ ذا حُبِّهُ ... فإنَّمـــا يبغى الوَلَدْ
ما الحبُّ إلا هَكذا ... إنْ نُكِحَ الحبُّ فَسَدْ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : حدّثنى أُمُّ الهيثم قالت : حجَّت زُبَيْدَةُ فى بعض الأعوام ، فلمَّا انتهت إلى حِمَى ضَرِيَّةَ ضُرِبَتْ لها القِبابُ

والفَساطيطُ ، ثمَّ أحبَّت أنْ تَأنَسَ بجوارى الحىّ ، فأمرَت بجمعهنَّ اليها ، قالت: وكُنتُ فيمَن دُعى ، فلمَّا صِرنا عندها أطعَمَتْنا طَعاماً خِلناه والله مِن الجَنَّة ، ثمَّ سُقِينا شَراباً حُلواً مالَ بنا كُلَّ مَيلٍ ، وشَرِبَتْ هِىَ منه ، وجعلَت تُحَدِّثُنا بحَديث كَقِطَعِ الرَّوض ، ثم قالت: ياأعرابياتُ ؟ ما تَعُدُّونَ العشقَ فيكُنَّ ؟ قلنا : أيَّتُها المَلِكَةُ ، يُحِبُّ الفَتى الفتاةَ فيَجْتَمِعانِ فيتشاكيانِ ويتباكيانِ ويتَواصَفانِ ما يَجِدانِ ، ثمَّ يَفْتَرِقانِ ، قالت : أبحَيثُ يُرَيان ؟ قلنا : بل بحَيْثُ لا يُرَيان ، قالت : ما صَنَعْتُنَّ شيئاً . قلنا : أيَّتُها المَلِكَةُ ! وكيف الأمرُ فى أهل الحَضر ؟ قالت : تَكونُ النظرةُ فتَزْرَعُ المَحبَّةَ ، ثمَّ يتراسلانِ ويتخاطبانِ ثم يتواعَدانِ ، فيَجْتَمِعانِ ، ثم يضْرِبُ عبد الله زيداً ؟ قالت : إنْ دَخَلْتِ الحضَر عَرَفْتِ ذلك ، قلت : دخلتُ العراقَ ولاأعْرِفُهُ ، قالت : فَضَحِكَتْ وحرَّكت بيدها على مِنكَبى وقالت: تجاهَلْنَ ياأُمَّ الهيثم تجاهَلْنَ .!

***

أُحِبُّكِ يا سَلْمَى على غَيرِ رِيبَةٍ ... وَمَا خَيرُ حُبٍّ لا تَعِفُّ سَرائِرُهْ
وَما ذا الذى يَشْفِي مِنَ الحبِّ بَعْدَمَا ... تَشَرَّبَهُ بَطْنُ الفُـــؤادِ وظاهِرُهْ

نعود إلى قولهم فى الرَّهز . ومن بديع كناياتهم عن الرَّهز قول بعضهم :

وأنت أُمامَـــةُ ما تَعلَمين ... فَضَلْتِ النساء بِضِيْقٍ وَحَرّْ
ويُعْجِبُنى منك عند الجماع ... حَياةُ الكلام ومَوْتُ النظَرْ

وقالت فلانةُ : كنتُ عند عائشةَ بنت طلحةَ فقيل : قد جاء عُمر بن عبـــدالله — تعنى زوجها — فتَنَحَّيْتُ ودخلَ : فكنت أسمَعُ كلامَهُما ،

فلاعَبَها مُدَّةً ثم وقع عليها ، فشخَرَتْ ونخرت وأتت بالعجائب من الرهز وأنا أسْمَعُ فلما خرجَ قلت لها : أنتِ فى نفسكِ وشَرَفكِ ومَوضِعكِ تفعَلين هذا ! فقالت عائشة : إنَّ الخَيلَ لا تشرب إلاَّ بالصَّفِير . . .

وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى ونقَلَه الى باب آخر فقال :

أدِرْها بالصَّغـــير وبالكبير وخُذْها مِن يَدَىْ قمَرٍ مُنِيرِ
ولا تَشْرَب بـــلا طرَب فإنى رأيتُ الخيلَ تَشْرَبُ بالصَّفِيرِ

* * *

وكان الخليفة العباسى المتوكل مُستهتَراً بالنساء مشغوفاً بهِنَّ ، وكانَ رُبّما يُجامع ويميل إلى المعاوَدَة ، فيجد أعضاءه قد ضَعُفَتْ من حركات الرّهَز ، فَجُعل له حوضٌ قد مُلِئَ زئبقاً وبُسِطَت له عليه الفُرُش ، فكان يجامعُ عليه وكانَ الزّئبَق يُحَرِّكه دون أن يلجأ إلى الحركة ، فلَذَّهُ ذلك وأعْجَبَهُ فسأل عن مَعْدن هذا الزّئبق فقيل له : إنّه بالشّيز من أذربيجان ، فوَجّه إلى حَمدون بن اسماعيل النديم ليُوَجِّهَ إليه بكل ما يُحَصّلُ من الزّئبق وولاه المتوكل على شيز هذه ، فكَرِهَها وكتب اليه :

ولايَةُ الشّيز عَزْلٌ والعَزْلُ عنهـــا ولايَهْ
فوَلِّنِى العزَل عنهـــا انْ كُنتَ بى ذا عِنايَهْ

وما زال يُلِحُّ فى طلب العزل حتى عُزِل وأُعْفِى من الولاية[1]

---

(١) انظر «شيز» فى معجم ياقوت وكتاب تحفة العروس .

ومن هذا الباب قول فتاةٍ بَنِي الحَجَّاج لمَّا أُنشِدَت قول عمارة :

ومِن ليلةٍ قد بتُّها غيرَ آثِمٍ بِساجِيَةِ الحِجْلَيْنِ رَيَّانَةِ القُلْبِ[1]

فضحكت وضَرَبت بكُمِّها على وجهها وقالت : فَهَلاَّ أثِم — صَرَمَهُ الله ! وقالت امرأة العَجَّاج — واسمها الدَّهناء بنت مِسْحَل — :

والله لا تَخْدَعُنِي بِضَمٍّ ولا بتقبيـــل ولا بِشَمِّ[2]

وقالت أُخْرَى :

لا يُقْنِعُ الجارِيَةَ اللِّعـــابُ ولا الوِشاحانِ ولا الجِلبابُ[3]

قال البكرى بعد هذا الذى نقلنا عنه : وأكثرُ الناسِ يَرَى أنَّ الظَّفَرَ بالمَعْشُوقةِ يُسْقِطُ شَطْرَ عِشْقَيْهما :

قيل لأعرابى — وقد طال عِشْقُه لجارية — : ما كنتَ صانعاً لو ظَفِرْتَ بها ولا يَرَاكما غيرُ الله ؟ قال : إذَنْ والله لا أَجْعَلُهُ أَهْوَنَ الناظِرَيْنِ ، لكنى أَفْعَلُ بها ما أفعَلُه بحضْرَةِ أهلها — شَكْوَى ، وحَدِيث عَذْب ، وإعراض عما يُسْخِطُ الرب ، ويَقْطع الحبّ .

---

(١) الحِجْلُ : الخلخال والقُلْبُ السوار .

(٢) قال ابن برّى : هذا الشعر للدهناء بنت مِسْحَل زوج العجاج وكانت رفعته إلى المغيرة بن شعبة فقالت له : أصلحك الله ، إنِّى مِنْه بِجُمْعٍ — أى لم يَقْتَضِّنى — فقال العجّاج :

الله يعلم يا مُغيرةُ أنَّنى قد دُسْتُها دَوْسَ الحصانِ المُرْسَلِ
وأخَذْتُها أخْذَ المُقَصَّبِ شاتَه عَجْلانَ يَذْبَحُها لقومٍ نُزَّلِ

فقالت الدهناء هذه الأبيات

(٣) اللعاب : اللعب .

وقال ابن الدُّمينة :

وجلس أعرابيٌّ فى حلقة يُونُسَ بن حبيب فتذاكروا النساء وتفاوضوا فى أوصافهنَّ ، فقالوا للأعرابى : أىُّ النساء أفضلُ عندك ؟ قال : البيضاء العَطِرَة ، اللَّيِّنَةُ الخَفِرَة .

«يشير بقوله : إذا ضوجعت أنَّت إلى رَهَزها» .

وسَمِعَ عَقيلُ بنَ عُلَّقَةَ بنتاله ضَحِكَتْ ثم شهقت فى آخر ضَحِكها ، فاخْتَرَطَ السيفَ وحَمَل عليها وهو يقول :

فَرِقت إنِّى رَجُـــلٌ فَروقُ مِن ضَحِكٍ آخِرُهُ شَهِيقُ

فاستَغَاثَتْ بإخْوَتِها فحالوا بينَها وبَيْنَهُ ، وكانَ عَقِيلٌ شديد الغَيرة كما سيمر بك فى غير مَوضع .

* * *

وفى رقة كلام المرأة يقول امرُؤ القيس :

ولَمَّا تَنَازَعْنا الحـــديث وأسْمَحَت هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذى شمارِيخَ مَيَّالِ

وصِرْنا إلى الحُسْنَى ورَقَّ كلامُنا ورُضْتُ فَذَلَّت صعبةٌ أىَّ إذلال

ويقول :

تَقُولُ — وقد جَرَّدتُهـــا مِن ثيابها كما رُعْتَ مَكحولَ المَدامعِ أتلَعَا[1]

وحَقِّكَ لو شَىءٌ أتانا رَسولُهُ سواكَ ولـكن لم نَجِدْ لك مَدفَعَا[2]

---

(١) الأتلع طويل العنق وهو الظبى .

(٢) أراد : لو أحَدٌ أتانا رسوله سواك لدفعناه ، فحذف جواب لو لدلالة قوله : «ولـكن لم نجد لك مدفعاً» .

وأخذ هذا المعنى عمر بن أبي ربيعة فقال :

وناهِدةِ الثَّدْيَيْنِ قلت لها : اتَّكِى ... على الرَّمْلِ مِن دَيْمُومَةٍ لم تُمَهَّدِ[1]

فقالت : على اسم الله أمْرُكَ طاعَةٌ ... وإنْ كُنتُ قد كُلِّفْتُ ما لم أُعَوَّدِ

فلما دنا الإصباحُ قالت : فَضَحْتَنِي ... فَقُمْ غيرَ مَطْرُودٍ وإن شِئْتَ فازْدَدِ

وعلى قول امرئ القيس : دُرَّةَ كلامنا ، حكى الجاحظ قال : كان عندنا بالبَصْرَةِ مُخَنَّثٌ يجتمع الناسُ في مَنزله ، وكانَ بَعْضُ أصحابنا يتعشَّقُ امرأةً مشهورةً بالجمال ، فلَمْ يَزَل المخنَّثُ يتلطَّفُ بها حتى جَمَع بينه وبينها ، قال الجاحظ : فاجتمعتُ به وسألتُه عن كيفيَّة اجتماعِهما ، فقال : لَمَّا اجتمعنا رَقَّ الكلام ، ووَقَعَ الالتزام — الضَّمُّ — وقُضِيَت الأمور ، وشُفِيَت حرارَاتُ الصُّدور . في كلام غير هذا ، قال الجاحظ : فلو كانَ قد أعَدَّ هذا الكلامَ لِمسألتي قبلَ ذلك بدهر لكانَ قد أجاد وأمْلَح . . .

التحميض :

التَّحْميض في أصل اللغة من حَمَضَت الإبل فهي حامضة : إذا كانت تَرْعى الحَلَّةَ وهي من النَّبت ما كانَ حُلْواً ثم تصير إلى الحَمْض تَرْعاه وهو ما كانَ من النَّبْتِ مالحا أو حامِضاً ، ومنه : تَحَمَّضَ الرجل : إذا تَحَوَّلَ مِن شيء إلى شيء ، ويقال : أحْمَضَ القَوم إحماضاً : إذا أفاضوا فيما يُؤنِسُهم من الحديث والكلام ، وكان ابن عَبَّاس يقول — إذا أفاض مَن عنده في الحديث بَعْدَ القرآن والتفسير — : أَحْمِضوا ، وذلك لَمَّا خاف عليهم المَلالَ أَحَبَّ أنْ

---

(١) الديموحة : الفلاة الواسعة يدوم السير فيها لبُعدها ، ولم تمهد : لم تذلل ولم تُصْلَح ولم تُسَوَّ .

يُريحهم فأمرَهم بالإحماض بالأخذ فى مُلَح الكلام والحكايات . . .

هذا هو أصلُ التحميض أو التَّحَمُّض أو الإحماض .

والذى نريده هنا من هذا الحَرْف هو إتيان الزَّوجَة فى دُبُرها .

وَ بعد فلا خلافَ بين العلماء في جَواز وطء المرأة — الزوجَة — فيماعَدَا الدُّبر ، مِن مَغابِنِها[1] وسائرِ جَسَدِها ، وإنَّما اختلفوا فى جواز وطْئِها فى الدُّبر وأكثَر العلماء على مَنعه ، ووصفوه بأنَّهُ اللواط الأصغر .

وقد جاء فى القرآنِ الكريم (نساؤكم حَرْثٌ لكم فَأْتُوا حَرْثَكُم أنَّى شِئْتُم) .

«حَرْثٌ لكم : أى مَواضع حَرْث لكم ، وهذا مَجازٌ شُبِّهْنَ بالمحارث تشبيهاً لما يُلقَى فى أرحامِهِنَّ من النُّطَف التى منها النسل بالبُذور ، وقوله سبحانه : فأتوا حَرْثكم أنى شئتم تمثيل ، أى فأتوهُنَّ كما تأتونَ أراضِيَكم التى تُريدونَ أن تحرُثوها من أىِّ جهة شئتم ، لا تُحْظَرُ عليكم جهةٌ دونَ جهة ، والمعنى : جامعوهن من أىِّ شقٍّ أردتُم بعد أنْ يكونَ المأتى واحِداً وهو مَوْضعُ الحرْث .

ورُوى أن اليهود كانوا يقولون : إذا نكحَ الرجلُ امرأتَهُ مُجَبِّيَةً جاء الولدُ أحْوَلَ — مُجَبِّيَةً أى مُنْكَبَّةً على وجهها — فذُكر ذلك لرَسول الله فقال : كذبَت اليهود ، ونزلت هذه الآية » . . .

* * *

وَعَنِ ابن عَبَّاس : كانَ هذا الحى مِن الأنصار ، وهم أهْل وَثَنٍ ، مع هذا الحىِّ مِن يَهود ، وهُم من أهل الكتاب ، فكانوا يَرَون لهم فضلا عليهم فى

---

(١) المغابن جمع مغبن مَفْعِل كمجلس وهو الناحية .

العِلْم ، وكانوا يَقْتَدُونَ بِكَثِير من فِعْلِهِم وكانَ مِن أَمر أَهْل الكِتاب ألاّ يأتوا نِساءهم إلاَّ على حَرْفٍ ، وذلك أَسْتَرُ ما تكون المرأة ، وكان هذا الحيُّ من الأنصار قد أَخَذوا ذلك من فعلهم ؛ وكانَ هذا الحيُّ مِن قُرَيش يَشْرَحُونَ النساء شَرْحًا مُنْكَرًا [1] ويَتَلَذَّذُونَ بِهِنَّ مُقْبِلاتٍ ومُدْبِراتٍ ومُسْتَلْقِيَاتٍ ، فلما قَدِم المهاجرون المَدِينَةَ تَزَوَّجَ رَجُلٌ منهم امرأةً مِن الأنصار ، فَذهب يَصْنَعُ ذلك ، فأَنْكَرَتْه عليه وقالت له : إنَّما كُنَّا نُؤْتَى على حَرف فاصنع ذلك وإلاَّ فاجْتَنِبْنِي حتى شَرِيَ أمرها [2] فَبَلَغَ ذلك رسول الله فأنزَل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حَرْثَكم أنَّى شئتم) أى مُقْبِلاتٍ أو مُدْبِرَاتٍ أو مستلقيات أو على حَرْفٍ ، ولكن فى موضع الوَلَد .

* * *

وَقيل لعبد الله بن عمر : كيف تَرَى التَّحمِيض ؟ قَال : وما التَّحميض ؟ قَال السائل : أَنْ يأتِيَ الرَّجُل المرأَة فى دُبُرِها ، قَال ابن عُمَر : أَوَ يَفْعَلُ هذا أَحَدٌ مِن المسلمين [3] ؟

* * *

كيف كان نظامهم فى الجاهلية :

جاء فى صحيح البخارى : حَدَّثَ عُرْوَةُ بنُ الزُّبَير أنَّ عائشةَ زَوجَ

---

(١) قال فى اللسان : شرح جاريته : إذا وَطِئها نائمة على قفاها .

(٢) شَرِيَ ، استشرى : ارتفع ولَجَّ .

(٣) انظر الخلاف بين العلماء فى جواز هذا الأمر فى كتب الفقه .

النبيّ «صلعم» أخبرته أنّ النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاحٌ منها نكاحُ الناسِ اليومَ ، يخطُبُ الرجلُ إلى الرجل وليّتَهُ أو ابنتَهُ فيُصْدِقُها ثم ينكحُها[1] ، ونكاحٌ آخرُ : كانَ الرَّجُلُ يقول لامرأتِهِ إذا طَهُرَتْ من طَمْثِها[2] : أرسِلى إلى فُلانٍ فاستَبْضِعى منه[3] ، ويَعْتَزِلُها زوجُها ولا يَمَسُّها أبداً ، حتى يتَبَيَّنَ حَمْلُها من ذلك الرجل الذى تستبضعُ منه ، فإذا تَبَيَّنَ حَمْلُها أصابَها زوجُها اذا أحَبَّ ، وانما يَفْعَلُ ذلك رَغْبَةً فى نَجابَةِ الولد ، فكانَ هذا النِّكاحُ نِكاحَ الاستِبْضاع ، ونِكاحٌ آخرُ : يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ (مادونَ العَشرَة) ، فيَدْخُلونَ على المرأةِ كُلُّهم يُصِيبُها[4] ، فإذا حَمَلَت وَوَضَعَتْ ومَرَّ عليها ليالٍ بعد أن تَضَعَ حملَها أرسلَتْ اليهم ، فلم يَستَطِع رجُلٌ منهم أنْ يمتنع حتى يجتمعوا عندها . تقول لهم : قد عَرَفتم الذى كانَ من أمْرِكم ، وقد وَلَدْتُ ، فهو ابنُكَ يا فلان[5] ، تُسَمِّى من أحَبَّت باسْمِهِ ، فيَلْحَقُ به ولَدُها ، لا يَستطيعُ أن يمتنع منه الرجل ، ونكاح الرابع : يَجتمعُ الناسُ الكثيرُ فيدخُلونَ على المرأة

---

(١) يُصدقها ثم ينكحها : أى يُعَيِّنُ صداقها و يسمى مقداره ثم يعقد عليها .

(٢) إذا طَهُرت من طمثها : أى حَيْضِها ، وكان السِّرُّ فى ذلك أن يسرع علوقُها منه .

(٣) فاستبضعى منه : أى اطلبى منه المباضعة ، أى المجامعة ، فى البُضع وهو الفرج .

(٤) يصيبها : يَطَؤُها وكان ذلك عن رضا منها واتفاق بينهم و بينها .

(٥) أىْ إن كان ذكراً فلو كانت أنثى لقالت : هى ابنتك ، لكن يحتمل ألا تفعل ذلك إلا إذا كان ذكراً لما عرف من كراهتهم البنت ، وقد كان منهم من يقتل بنته التى يتحقق أنها بنته فضلا عمن تجىء بهذه الحال .

لا تمنعُ مَن جاءها ، وهنَّ البَغَايا ، كُنَّ يَنْصِبْنَ على أبوابهنَّ رايات تكون عَلَماً ، فَمَنْ أرادَهنَّ دخلَ عليهنَّ ، فإذا حَمَلت احداهنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَها جُمِعُوا لها ودَعَوْا لهم القافَةَ[1] ثم ألحقُوا ولَدها بالذى يَرَوْن فالتاطَ به[2] ودُعِيَ ابنَه لا يمتنع من ذلك ، فلما بُعِثَ محمد «صلعم» بالحق هَدَمَ نِكاحَ الجاهلِيَّةِ كلَّهُ إلا نكاح الناس اليوم . . .

حقوق الزوج على الزوجة :

قال الإمامُ الغزالىّ فى الإحياء : القول الشافى ، ذلك أنَّ النِّكاحَ نَوْعُ رِقٍّ ، فهى رقيقَةٌ له ، فعليها طاعَةُ الزَّوج مُطلقاً فى كُلِّ ما طلَب منها فى نفسها ممَّا لا مَعْصِيَةَ له فيه[3] ، قال : وَقد وردَ فى تعظيم حقِّ الزَّوج عليها أخبارٌ كثيرة ، قال «صلعم» (أيُّمَا امرأةٍ ماتَتْ وزَوجُها عنها راضٍ دَخَلت الجنَّة) . . .

وكان رجل قد خرَجَ إلى سَفر وعَهِدَ إلى امرأته ألاّ تنزلَ منَ العُلْوِ إلى السُّفْلِ ، وكانَ أبوها فى الاسفَلِ ، فمَرِضَ ، فأرسلَت المرأةُ إلى رسولِ اللهِ تَسْتَأذِنُ فى النزول إلى أبيها ، فقال «صلعم» : أطيعِى زَوجَكِ ، فماتَ ، فاستأمَرتْهُ ، فقال : أطيعِى زَوجَكِ ، فدُفِنَ أبوها فأرسلَ رسول الله إليهـــا

---

(١) القافة جمع قائف وهو الذى يعرف شبه الولد بالوالد بواسطة آثار خفية .

(٢) التصق به وألحق به .

(٣) قال بعض العلماء : لا يصح هذا الإطلاق فإن العزل لامعصية فيه ومع ذلك فلا يلزمُها طاعته فيه اتفاقاً .

يُخبرُها أنَّ الله قد غفرَ لأبيها بطاعتها زوجَها . . . وقال «صلعم» : اذا صلَّتِ المرأةُ خمسَها وصامَت شهرَها وحفظتْ فرجَها وأطاعت زوجَها دخلت الجنّة ... وفى الحديث الشريف (لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجُدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزوجها) وقال ابنُ عباس أتت امرأةٌ من خثعَم الى رسول الله «صلعم» فقالت : يا رسول الله ، انّى امرأةٌ أيِّمٌ وأُريد أنْ أتزوّج فما حقُّ الزوج ؟ قال : انَّ من حق الزّوج على الزوجةِ اذا أرادَها فراوَدَها عن نفسها وهى على ظهر بعيرٍ ألاّ تمنَعَه ، وألاّ تُعطىَ شيئا من بيته الاّ بإذْنِه ، فإنْ فعلَتْ ذلك كانَ الوِزْرُ عليها والأجرُ له ، ومن حقِّه ألاّ تصومَ تطوّعا الاّ بإذْنِه فان فعلتْ جاعت وعطِشَتْ ولم يُتقبَّلْ منها وان خرجَت من بيتها بغير اذنه لعنَتْها الملائكةُ حتى ترْجع الى بيته أو تتوب . الى أن قال الغزالى : فحقُوقُ الزّوج على الزوجة كثيرة ، وأهمُّها أمران : أحدُهما الصيانةُ والتّستُّر ، والآخرُ تركُ المُطالَبةِ بما وَراء الحاجة ، والتّعفُّفُ عن كسْبِه اذا كانَ حرَاماً وهكذا كانت عادة النساء فى السَّلَف ، كان الرجل اذا خرجَ من منزله تقول له امرأته أو ابنتُه اياكَ وكسبَ الحرام فإنّا نَصْبِرُ على الجوع والضُّرِّ ولا نَصْبرُ على النار . . . الى أن قال الغزالى : والقول الجامع فيما يجب على المرأة أنْ تكونَ قاعِدَةً فى عُقْر بيتها لازمَةً لمغْزَلِها لا يَكثُرُ صعودُها واطّلاعُها قليلةَ الكلام لجيرانها لا تَدْخُل عليهم إلاّ فى حالٍ يُوجب الدُّخولَ ، تحفَظُ بَعلَها فى غَيبَتِه وتطلب مَسَرَّتَه فى جميع أُمورها ، ولا تَخونُه فى نفْسها ومالِه ولا تخرُج من بيتها إلاّ بإذْنِه ، فإنْ خرَجَتْ بإذنِه فمُختَفِيَة فى هيئةِ رثّةٍ تطلُبُ المواضعَ الخالية دونَ الشوارع والأسواق ، محترزة من أن يَسمعَ غريبٌ صوتَها أو يَعرفَها بشَخصها ، لا تتَعرَّفُ إلى صَديقِ بَعلِها فى حاجاتها

بل تتنكَّرُ عَلَى منْ تَظُنُّ أنَّه يعرفُها أو تعرفُه ، هَمُّها صلاحُ شأنِها وتدبيرُ بيتِها ، مُقْبلةٌ عَلَى صلاتِها وصيامِها ، وإذا استأذَن صديقٌ لبعْلِها على الباب وليس البَعْلُ حاضِراً لمْ تستَفْهِم ولم تُعاوِدْهُ فى الكلام غَيرَةً على نفسها وبعلها وتكونُ قانِعةً مِن زَوجِها بما رَزَقَ الله ، وتُقدِّمُ حَقَّهُ على حقِّ نفسها وحقِّ سائرِ أقاربِها . . . قال : وألاّ تتفاخر على الزَّوج بجمالِها ولا تزدرِى زوجَها لِقُبْحِه فقد رُوِى أنَ الأصمَعِيَّ قال : دَخلتُ البادِيَةَ فإذا أنا بامرأةٍ مِن أحْسنِ الناسِ وجهاً تحت رجل مِن أقبحِ النَّاسِ وجهاً ، فقلتُ لها : يا هذه أترْضَينَ لِنَفْسِكِ أنْ تكونِى تحت مِثلِه ؟ فقالت : يا هذا ، اسكُتْ . فقد أسأتَ فى قولك ، لعلَّه أحْسَنَ فيما بينه وبين خالقِه فجعلنى ثوابَهُ ، أو لعلى أسأتُ فيما بينى وبين خالِقى فجعلَهُ عُقوبَتى أفلا أرْضَى بما رَضِىَ الله لى فأسْكَتَتْنِى

وقال الأصمعى : رأيتُ فى البادِيَةِ امرأةً عليها قميص أحمرُ وهى مُختَضِبةٌ وبيدِها سُبْحَةٌ ، فقلت : ما أبْعَدَ هذا من هذا !

فقالت : ولله مِنِّى جانِبٌ لا أُضيعُهُ وللَّهْوِ مِنِّى والبَطَالَةِ جانِبُ

فعلِمتُ أنَّها امرأةٌ صالحة لها زَوج تَتَزَيَّنُ له . . .

قال الغزالى : ومِمَّا يجب عليها إذا ماتَ عنها زَوجُها ألاّ تحِدَّ — من الحِداد — عليه أكثر مِن أربَعةِ أشْهُرٍ وعَشْرٍ ، وأن تتجنَّبَ الطِّيبَ والزينة فى هذه المُدَّة . . .

* * *

وفى الحديث الشريف (لُعِنَت الغائِصَة والمُغَوِّصَةُ) .

«الغائضة : الحائض التى لا تُعْلِم زَوْجَهَا أنَّها حائضٌ ليَجْتَنِبَهَا فيجامِعها وهى حائض ، والمغوِّصَة : التى لا تكون حائضاً فتكْذِب فتقول لزَوْجِها إنى حائض» .

* * *

وأتى رَجُلٌ إلى النبى «صلعم» فقال : يا رسول الله ، إنَّ لى امرأةً إذا أُتيتُ مَهْمُوماً فاءت إلىَّ فأخَذَت بطرَفِ رِدائى ومسحَت على وَجْهى وقالت : إن كانَ هَمُّكَ للدُّنيا فصَرَفه اللهعنك ، وإن كانَ هَمُّكَ للاخرة فزادَكَ اللهُ هَمًّا ؟ فقال رسولُ الله : إنَّ لها أجْرَ الشُّهداء ورِزقهم . . .

* * *

وقالت أسماء بنت أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنهما : تَزَوَّجنى الزُّبَيْرُ — ابن العَوَّام — وما لَهُ فى الأرض مِن مالٍ ولا مملوكٍ ، ولا شىء غير ناضحٍ وغير فرَسِه[1] فكُنتُ أعلِفُ فرَسَه وأستَقِى الماء وأخرِزُ غَرْبَه[2] وأعجِنُ ولم أكُنْ أُحسِنُ أخبِزُ ، وكان يَخبِزُ جاراتٌ لى مِن الأنصار ، وكُنَّ نِسوَةَ صِدْق ، وكنتُ أنقُلُ النَّوَى مِن أرْضِ الزُّبَيْرِ التى أقطعَهُ رسولُ الله «صلعم» على رأسِى وهِىَ مِنِّى على ثُلُثَىْ فَرْسخٍ ، فجِئتُ يوماً والنَّوَى على رأسى فلَقِيتُ رسولَ الله «صلعم» ومعه نَفَرٌ من الأنصار ، فدَعانى ثُمَّ قال : إخْ إخْ[3] ليَحْمِلَنى خَلْفَه ، فاستَحْيَيْتُ أنْ أسيرَ مع الرجال وذَكَرْتُ الزُّبَيرَ وغَيرَتَه ، وكان أغْيَرَ الناس ، فعرَفَ رسولُ الله أنِّى قد استَحْيَيْتُ فمَضَى ، فجِئتُ الزُّبير فقلت : لقِيَنى رسولُ الله وعلى رأسِى النَّوَى ومعه نَفَرٌ مِن أصحابِه ، فأناخَ

---

(١) الناضح : البعير يستقى عليه .

(٢) الغَرْبُ : الدلو .

(٣) كلمة تقال للبعير لمن أراد أن يُنيخَه .

لِأركَبَ فاستحييتُ منه ؛ وعَرَفتُ غَيْرَتَك ، فقال : وَالله ، لَحَمْلُكِ النَّوَى كانَ أشدَّ عليَّ مِن ركوبكِ معه . . . حتى أرسلَ إليَّ أبو بَكر بعد ذلك بخادِمٍ تَكفيني سياسةَ الفَرَسِ ، فكأنَّما أعْتقَنى ... انظر البخارى وشراحه .

* * *

وكانَ الزِّبرقانُ بن بَدْرٍ إذا زَوَّجَ ابنَةً له دَنا من خِدْرِها وقال : أتَسْمَعين؟ لا أُعَرِّفَنَّ ما طَلَبْتِ ، كونى له أَمَةً يكُنْ لكِ عبداً . . .

* * *

وقال أسماء بن خارِجَةَ الفَزَارِىَ لابنَتِه عند الزِّفاف : إنَّكِ خرَجتِ مِنَ العُشِّ الذى فيه دَرَجْتِ وصِرْتِ إلى فراشٍ لم تَعرفيه ، وقَرِينٍ لم تألَفيه ، فكونى له أرْضاً يكنْ لكِ سَماءً ، وكونى له مِهاداً يكنْ لكِ عماداً ، وكونى له أَمَةً يكنْ لكِ عَبداً ، لا تُلْحِفى به فيَقْلاكِ[1] ولا تَباعَدى عنه فيَنْساكِ ، إنْ دَنا منكِ فاقْرُبى منه ، وإنْ نأى فابْعُدى عنـــه ، واحْفَظى أَنْفَهُ وسَمْعَهُ وعينَهُ فلا يَشَمَّنَّ منك إلا طيباً ، ولا يَسْمَعُ منك إلاَّ حُسْناً ، ولا ينظُرُ إلاَّ جميلا . . . وإياكِ والغَيرَةَ فإنَّها مِفتاحُ الطلاق ؛ وعليك بالزِّينَة ، فَأَزْيَنُ الزِّينةِ الكُحْلُ ، وعليكِ بالطِّيب : وأطْيَبُ الطِّيبِ إسْباغُ الوُضوء ، وكونى كما قلتُ لِأُمِّك فى بَعضِ الأحايين[2] :

خُذِى العَفْوَ مِنِّى تَسْتَدِيمى مَوَدَّتِى ولا تَنْطِقِى فى سَوْرَتِى حينَ أُغْضَبُ[3]

---

(١) لا تُلْحِفى به : لا تَلُحّى عليه ولا تُعَنِّتِيه فيَقلاك : فَيُبْغِضُكِ وليس للملحف مثل الرَّدِّ .

(٢) وقد قيل إنَّ هذا الحديث والشعر لأبى الأسود الدؤلى .

(٣) العَفْو : الفضل الذى لا عُسْرَ فى إعطائه .

ولا تَنقُرِيني نَقْرَكِ الدُّفَّ مَرَّةً فإنَّك لا تَدْرِينَ كيف المُغَيَّبُ
ولا تُكثِرِي الشكْوَى فَتَذْهَبَ بالهَوَى
ويأباك قَلْبي والقُلُوبُ تَقَلَّبُ
فإني وَجَدْتُ الحُبَّ في الصدْرِ والأذى
إذا اجتَمعا لَمْ يَلْبَثِ الحُبُّ يَذْهَب

* * *

وزَوَّجَ عامِرُ بنُ الظَّرِب ابنَتَهُ مِن ابن أخيه ، فلمَّا أرادَ تحويلَها قال لأمِّها : مُرِي ابنَتَك ألاَّ تَنزِلَ مَفازَةً إلاَّ ومَعَها ماءٌ فإنَّه للأعلى جلاءٌ وللأسفل نَقاء ، ولا تُكثِرْ مُضاجعَتَه ، فإنَّهُ إذا مَلَّ البَدَن مَلَّ القلبُ ، ولا تمنَعه شهوتَه فإنَّ الحُظْوة في المُوافقة ، فلَمْ تَلْبَثْ إلاَّ شهراً حتى جاءتْه مَشجوجَةً ، فقال لابن أخيه : يا بُنَيَّ ، ارفَع عَصاكَ عن بكْرَتك[1] فإنْ كانَت نَفَرَت من غير أن تُنفَّرَ فذلك الداءُ الذي ليس له دواء ، وإنْ لم يكُنْ بينكما وِفاقٌ ففِراقُ الخُلْع[2] ، أحسَنُ من الطلاق ، ولَنْ تَترُكَ مالَكَ وأهلَكَ فَرَدَّ عليه صَداقَه وخَلَعَها ، فهُو أوَّل من خلَع من العَرَب . . .

* * *

وقال عَزَّ وتَقدَّس (الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النِّساء بما فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُم على بعْضٍ وبمـــا أنفقوا مِن أموالهم ، فالصالحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ للغَيْب بما حَفِظَ اللهُ) . . .

«قَوَّامُونَ على النساء : يَقومُونَ عليهن آمِرينَ ناهينَ كما يَقومُ الوُلاةُ على

---

(١) البكرة : الفتية من الإبل .

(٢) الخلع . الطلاق على عوض .

الرَّعايا ، ثمَّ عَلَّلَ سبحانه هـذه القِوامة بأمْرَين وَهْبِيٍّ وكَسْبِيٍّ أما الأول فهو أن الرجال أفضل من النساء» .

وَقال الزمخشرى : وقد ذكروا فى فضل الرجال العقْلَ والحَزْمَ والعَزْمَ والقوَّةَ والفُروسيَّةَ وأنَّ منهم الأنبياء والعلماء وفيهم الإمامَة الكبرى — الخلافة — والصغرى — الإمامَة فى الصلاة — والجهاد والأذان والخُطبة والاعتكاف وتكبيرات التشريق عند أبى حنيفة والشهادَة فى الحدود والقصاص وَزيادَة السهم والتعصيب فى الميراث والحمالة والقسامة والولاية فى النكاح . . .

السرارى وأمهات الأولاد وأجناس الأمهات :

كانت الناس قدَماً — ملوكا كانوا أو سوقة — يَتَسَرَّوْن ؛ أى يتمتعون بالسَّرارى[1] ، جمع سُرِّيَّة . بضم السين ، نسبة إلى السِّرِّ[2] ، على غير قياس ؛ وهي الأَمَةُ يَتَسَرَّى . بها مالكُها ويتَّخِذُها للوطء ، واشترط الفقهاء فى صدق هذه التسمية حصولَ الوطء ولو مرة ، وتَظْهَرُ فائدةُ الاشتراط فيمن جعل بيد زوجته عِتْقَ السُّرِّية التى يتخذها عليها ، فإن لم يطأها لم يكن لها عتقها ، والسرارى يُسَمَّوْنَ بعد أن يوطأن : أمهات أولاد ، وقد كانت السرارى من أُمَم شتى . . .

وكان أهل العلم والتقى فى الصدر الأول لا يُفَرِّقُونَ بين مسلم ومسلم إلا .

---

(١) كان التمتع بالسرارى إلى أن حورِبَ الرق وأُبْطِلَ فى أكثر ما يُسَمُّونَ «البلاد المتمدينة» .

(٢) السر : أى النكاح ، قال تعالى : «ولكن لا تواعدوهن سراً» وعندى أن تسمية الأمة المتخذة للوطء سُرِّيَّةً نسبة إلى السر لأنهم فى الغالب كانوا يتخذون السُّرِّيَّة فى سِرٍّ من زوجاتهم الحرائر —

بالتقوى ، ولا يفضلون عربياً على عجمى ولا صريح النسب على هجين ، لأن ذاك عربى خالص النسب وهذا عجمى أو هجين ، وإن كانت هناك من ملكت رأسه النَّعَرَةُ والعصبية العربية والعنْجُهِيَّةُ الجاهلية فيحتقرون أولاد أمهات الأولاد ، وكانوا يُعَيِّرُونَ بعضُهم بعضاً بذلك ...

قال المُبَرِّد فى الكامل : ولم يكن الإكرامُ للموالى في جُفَاة الأعراب ..

* * *

عبقريانهم فى أولاد السرارى :

قال عمر بن الخطاب : ليس قَوْمٌ أكيسَ من أولاد السرارى ، لأنهم يَجْمَعُون عِزَّ العَرَب وَدَهاء العجم . . . «يريد إذا كن من العجم» .

وَقال شاعرهم :

لا تَشْتُمَنَّ امرأً فى أن تكون له ... أُمٌّ مِنَ الرُّوم أو سوداء عجماء

فإنما أُمَّهاتُ الناس أَوْعِيَةٌ ... مُسْتودَعاتٌ وللأبناء آباء[1]

وَرُبَّ واضحةٍ ليستْ بِمُنْجِبَةٍ ... وربما أَنْجَبَتْ لِلْفَحْلِ سَوْداء

وَقال عمر بن الوليد للوليد بن يزيد : إنك لمعجب بالإماء ! قال : وكيف لا أعجب بهن وهن يأتين بمثلك . . . !

وكانَ لمعاوِيَة بن أبى سفيان عَيْنٌ — جاسوس — بالمَدينة ، يكتب إليه بما يكونُ من أمُور الناس وَقُرَيْشٍ ، فكتب إليه : إنَّ الحُسينَ بنَ على أعتق جارِيَةً له وتَزَوَّجها ، فكتب مُعاوِيَةُ إلى الحُسَين :

---

(١) فى رواية وللأحساب آباء .

مِن أمير المؤمنين مُعاوية إلى الحُسَين بن على : أمَّا بعد فإنَّه بلغنى أنَّكَ تزوَّجْتَ جاريتك ، وتركت أكفاءكَ مِن قُرَيْش ، ممن تَستحسنُه للولد ، وتمجد به فى الصِّهر ، فلا لنفسكَ نظرت ، ولا لولدك انتقيت . . .

فكتب إليه الحسين بن على :

أمَّا بعد ، فقد بلَغنى كتابُك ، وتَعْيِيرُك إياىَ بأنِّى تزوَّجْتُ مَولاتى ، وتركتُ أكفائى من قُريش ، فليس فوقَ رَسول الله مُنْتَهًى فى شَرَف ، ولا غايَةٌ فى نَسَب ، وإنَّما كانت ملكُ يَمينى خَرَجَت عن يَدِى بأمرٍ التمسُ فيه ثوابَ الله تعالى ، ثم ارتجَعْتُها عَلَى سُنَّةِ نَبِيِّهِ (صلعم) ، وقد رَفَعَ الله بالاسلام الخَسيسَة ، وَوَضعَ عنابه النقيصة ، فلا لَوْمَ على امرئٍ مسلم إلا في أمْرٍ مَأْثَمٍ وإنما اللَّومُ لَومُ الجاهليَّة .

فلما قرأ معاويَةُ الكتابَ نَبَذَهُ إلى يزيدَ ، فقرأه وَقال : لَشَدَّ ما فَخَر عليك الحُسَين ! قال : لا ، ولكنها ألْسِنَة بَنى هاشم الحِدَاد التى تفلق الصخر وتَغْرِفُ مِن البحر . . .

* * *

ومثل هذه القصة حَدَث بين عبد الملك بن مروان وبين على بن الحسين — المعروف بزين العابدين — حين تزوَّج أُمّ ولد لبعض الأنصار ، فلامَهُ عبد الملك فى ذلك ، فكتب إليه على كتاباً يشبه كتاب أبيه إلى معاوية ، فقال عبد الملك : إن علىّ بن الحسين يتشرَّف من حيث يتَّضِعُ الناس . . .

وسُئِل بعضهم عن ولد الرُّومِيَّة ؟ فقال : صَلِفٌ ، مُعْجَب ، بَخيل ؛ قيل : فولد الصَّقْلَبِيَّة ؟ قال : طَفِسٌ زَنِيم ، قيل : فَوَلد السَّوداء ؟ قال : شُجاع ، سَخِىٌّ

قيل : فولد الصَّفراء ؟ قال : هُمْ أنجب أولاداً ، وألين أجساداً ، وأطيبُ أفواهاً ، قيل : فولد العَربيَّة ؟ قال : أَنِفٌ حَسود ، قيل : فولد النُّوبيَّة ؟ قال : فاسق ، قيل : فولد اليَهوديَّة ؟ قال : دَغِلٌ قَذِر ، قيل : فولد الفارسيَّة ؟ قال : مَكر وخديعة .

* * *

وقال عبد الملك بن مَروانَ : مَن أراد البَاءةَ فعليه بالبَرْبَريات ، ومَن أرادَ الخدمَة فعليه بالروميات ، ومَن أرادَ النَّجابَة فعليه بالفارسيات .

وقال مُوسَى الكاظم : عليك بالقيان ، فإنَّ لهن فِطَناً وعُقولا لَيْسَتْ لكثير من النِّساء .

«القيان : جمع قَيْنَة ، وهى الأمَةُ ، مُغَنِّيَةً كانت أوغيرَ مُغَنِّيَةٍ ، و بعض الناس يَظُنُّ القينة : المُغَنِّيَة خاصةً ، وليس الأمْرُ كذلك ، هذا كلام علماء اللغة ، ولكن الظَّاهر أن الكاظم إنَّما أراد بالقيان الإماء المُغَنِّيات بالاصطلاح العرفى » .

* * *

وقال مسلمة بن عبد الملك[1] : أنِّى لأعْجَبُ من رَجل أَحْفَى شعَره ثُمَّ أعفاه[2] ، ومِن رَجُلٍ لَبِسَ القصيرَ كيف يلبَسُ الطويل ، وممَّن كان صاحب سَرارِىَّ ثُمَّ اتَّخذَ المهيرات . . .

«المهيرَة : الحرَّة المَمْهورَة ، فعليه بمعنى مفعوله ، من قولك : مَهَرْتها : إذا جعلت لها مَهْرا ، وقد يقال : أمهرتها ، بالألف ، وهو قليل» .

---

(١) هو من أمَّهات الأولاد .

(٢) أحفى الرجل شاربَه : بالغ فى أخذه واستقصى قَصَّه .

وقالوا : الأمة تُشترى بالعين ، وتُرَدُّ بالعيب ، والحُرَّة غُلٌّ فى عُنُق من صارت إليه «وهذه الكلمة تصح أن تكون تعليلا لقولة مسلمة آنفاً : ممن كان صاحب سَرارىّ ثم اتخذ المهيرات» وقال الجاحظ فى ذلك : قال بعض من احتجّ للعِلّة التى من أجلها صارَ أكثرُ الاماء أحظى عند الرجل من أكثر المهيرات أنّ الرَّجُلَ قبلَ أن يملك الأمةَ قد تأمّلَ كلّ شىء منها ، وعرفَ ما خلا الخلوة ، فأقدَمَ على ابتياعها ، بعد وقوعها بالموافقة ، والحُرّةُ إنما يُستشارُ فى جمالها النساء ، والنساء لا يُبصِرْنَ من جمال النساء وحاجات الرجال ومُوافقتهن ، قليلا ولا كثيراً ، والرِّجالُ بالنِّساء أبصر ، وقد تُحسِنُ المرأة أن تقول : كأنّ أنفها السيف ، وكأنّ عينها عينُ غزال ، وكأنّ عُنُقَها إبريقُ فِضّة ، وكأنّ شَعْرها العناقيد . . . وهناك أسبابٌ أُخَر بها يكونُ الحُبّ والبغض . . .

«أقول : هذا كلام بمكان من الصِّدق والسّداد مَكين ، فليَعْتَبِرْ به من يُعَوِّل على الخاطبات ، وعلى النساء كافة ، حينَ يَهُمُّ بالزواج فيُوَسِّطُهُنَّ فى الخطبة ، فهُنَّ لعمري باسدات الذوق وفاسد الذوق لا يُعطيه كما يقول فقهاؤنا ، ذلك إلى أنهنَّ قد يَكْذِبْنَ تمشّيا مع هَواهُنَّ وضلعهن مع من يَعنيهن زَواجُهُنَّ» . . .

* * *

وكان عند أبى العباس السَّفاح أُمُّ سَلَمَةَ بنتُ يعقوب بن عبد الله المخزومى وكانَ قد أحبّها حُبًّا شديداً ، ووقعَتْ فى قلبه مَوقعاً لطيفاً ، فخلف لها أن ألا يتخذ عليها سرية ولا يتزوج عليها امرأة ، فوفى لها بذلك فخلا به خالد بن صفوان يوماً ، فقال له يا أمير المؤمنين فكرت فى أمرك وسعة ملكك ،

وأنك قد مَلَكْتَ ، نفسك امرأة وافتصرت عليها ، فإن مرضت مرضت وإن حاضت حضت وحرَمْتَ نفسك التلذذ بالسرارى ، واستطراف الجوارى ومعرفة اختلاف حالاتهن ، وأجناس التمتع بما يشتهى منهن ، فنهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء ، والبيضة البيضاء ، والعتيقة الأدماء والذهبية السمراء والبربرية العجزاء ، والمولدات المدنيات اللواتى يفتن بمجاورتهن ويخلبن بحلاوتهن ولو رأيت يا أمير المؤمنين السمراء واللعساء من مولدات البصرة ، والكوفة ذوات الألسن العذبة ، والقدود المهفهفة ، والأوساط المختصرة ، والثُّدِيِّ النواهد المحققة ، وحسن زِيِّهِنَّ وشكلهن لرأيت فتناً ومنظراً حسناً ، وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر فيما عندهن من الحياء والتحضر والدلال والتعطر وأقبل خالد يجيد فى الوصف ويكثر فى الأطناب بحلاوة لفظه وجودة كلامه فلما فرغ قال له أبو العباس ويحك يا خالد والله ما سلك مسامعى قط كلام أحسن مما سمعته منك فأعده على فأعاده عليه وزاد فيه ثم انصرف خالد وبقى أبو العباس متفكراً مغموماً فدخلت عليه أم سلمة وكانت تبره براً كثيراً وتتقمن مسرته وموافقته فى جميع ما أراده فقالت له ما لى أراك مغموماً يا أمير المؤمنين فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر ارتعت له قال لم يكن شىء من ذلك قالت فما قصتك فجعل يكتم عنها فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد قالت فما قلت لابن الفاعلة : قال : سبحانَ اللهِ أينصحنى وتشتمينه ، فخرجت من عنده وأرسلت إلى خالد عبيداً لها وأمرتهم بضربه والتنكيل به ، قال خالد : وكنت انصرفت إلى منزلى مسروراً بما رأيت من إصغاء أمير المؤمنين إلى كلامى وإعجابه بما ألقيت إليه ، وأنا لا أشك فى الصلة ، فلم ألبث

أن جاء أولئك العبيد فلما رأيتهم أقبلوا نحوى أيقنت بالجائزة فوقفوا على وسألوا عنى فعرَّفتهم بنفسى ، فأهوَى إلىَّ أحدهم بعمود كان فى يده فبادرت إلى الدار وأغلقت الباب ومكثت أياماً لا أخرج من منزلى ، وطلبنى أمير المؤمنين طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا على فقالوا أجب أمير المؤمنين ، فأيقنت بالموت وقلت : لم أر دَمَ شيخ أضيَع من دمى وركبت فلم أصل إلى الدار حتى استقبلنى عدة رسل فدخلت إلى أمير المؤمنين فوجدته جالساً فأومأ إلى بالجاوس فناب إلى عقلى فجلست وفى المجلس باب عليه ستور قد أرخيت وخلفه حركة فقـــال لى : يا خالد لم أرك منذ ثلاث ، قلت : كنت عليلا يا أمير المؤمنين قال : إنك وَصفت لى آخر دَخْلة من أمر النساء والجوارى ما لم يخرق سمعى قط كلام أحسن منه فأعده على قلت : نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن العرب إنما اشتقت اسم الضَّرَّة من الضرر وإن أحداً لم يكن عنده امرأتان إلا كان فى ضرر وتنغيص قال ويحك لم يكن هذا فى حديثك قلت نعم يا أمير المؤمنين وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافىِّ القدر تغلى عليها أبداً وأن الأربع شر مجموع لصاحبه يُهْرِمْنَه وَيُسْقِمْنَه ويُصْعِقْنَه وأن أبكار الاماء رجال ولـكن لا خُصَى لهن ، قال فقال برئت من قرابتى من رسول الله (صلعم) إن كنت سمعت منك من هذا شيئاً قط ، قال خالد بلى ، والله يا أمير المؤمنين وعرَّفتك أن بنى مخزوم ريحانة قريش ، وأن عبدك ريحانة الرياحين وأنت تطمح بعينيك إلى الأماء والسرارى ، قال فقـــال ويحك أتـكذبنى وتـكذبنى ، قلت أفتقتلنى يا أمير المؤمنين ، قال فسمعت ضحكا من وراء الستر وقائلا يقول صدقت والله يا عماه بهذا حَدَّثتهُ ولـكنه بدَّل وغيَّر

ونطق على لسانك بما لم تنطق به ، قال خالد فقمت عنهما وتركتهما يتراوضان فى أمرهما فما شعرت إلا برسل أم سلمة ومعهم المال وتحف وثياب فقالوا لى تقول لك أم سلمة إذا حدثت أمير المؤمنين فحدثه بمثل حديثك هذا .

وقال الأصمعى : كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم علىّ بن الحسين والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، وسالم بن عبد الله ابن عمر ، ففاقوا أهل المدينة فقهاً وورعاً ، فرغب الناس فى السرارى[1]

* * *

وقال أبو العباس المبرّد : يروى لنا عن رجل من قريش لم يسمّ لنا ، قال : كنتُ أجالسُ سعيدَ بن المسيّب ، فقال لى يوماً : مَن أخوالك ؟ فقلتُ : أمّى فتاة — يريد : سُرّية — أمة — فكأنى نقصتُ فى عينه ،

---

(١) أمّ على بن الحسين المعروف بزين العابدين هى سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك فارس وهى أخت أمهات القاسم وسالم ، وذلك أن الصحابة لما أتوا المدينة بسبى فارس فى خلافة عمر بن الخطاب كان منهم ثلاث بنات ليزدجرد فأمر عمر ببيعهن ، فقال له على بن أبى طالب : إنّ بنات الملوك لا يعاملن معاملة السُّوقة ، قال : وكيف الطريق معهن ؟ قال : يُقوّمن ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن ، فقوّمن فاشتراهن علىّ بن أبى طالب ودفع واحدة لعبد الله بن عمر وأخرى لولده الحسين وأخرى لمحمد بن أبى بكر الصديق ، فأولد عبد الله أمته سالما وأولد الحسين أمته ولده زين العابدين وأولد محمد بن أبى بكر أمته ولده القاسم ، قال المبرد : وكانت أم على بن الحسين معروفة النسب خيّرة : وكان يقال لعلى ابن الحسين : ابن الخيرتين ، لقول رسول الله : لله من عباده خيرتان فخيرته من العرب قريش ومن العجم فارس ، ويزدجرد هو ابن شهريار بن أبرويز بن هُرْمُز ابن أنوشروان آخر ملوك الفرس ، مات سنة إحدى وثلاثين للهجرة .

فأمهلتُ ، حتّى دخل عليه سالم بن عبد الله بن عمر عمر بن الخطاب رحمه الله ، فلما خرَجَ مِنْ عِنده قُلتُ : يا عَمِّ ، مَن هذا ؟ فقال : يا سُبحانَ الله ، أتجهَلُ مِثلَ هذا مِن قَومك ! هذا سالم بنُ عبد الله بن عمر ، قلت : فمَنْ أُمُّه ؟ قال : فتاةٌ ، قال : ثُمَّ أتاهُ القاسِم بنُ محمد بن أبي بكر الصِّدِّيق رَحِمه الله ، فجلَس عنده ، ثُمَّ نَهض ، فقلت : يا عم ، مَن هذا ؟ فقال : أتجهَلُ مِن أهلِكَ مِثلَه ! ما أعْجَبَ هذا ! هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر ، فقلت : فمَن أُمُّه ؟ قال : فَتاة ، فأمْهَلْتُ شيئاً حتّى جاء عَلِيُّ بنُ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فسلَّم عليه ثُمَّ نَهض ، فقلت : يا عمّ ، مَن هذا ؟ قال : هذا الذي لا يَسَعُ مسلماً أن يجهَلَه ! هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، قلت : فمن أُمُّه ؟ قال : فتاة ، قال : قلت يا عَمِّ ، رأيتُني نَقَصْتُ في عَيْنك لمَّا عَلِمتَ أنّي لأمِّ ولد ، أفالى في هؤلاء أُسْوَة . . . ! قال : فجَلَلْتُ في عَينه جداً . . .

وقال الجاحظ : قال الحجّاجُ بنُ يُوسُفَ لِعَبْد الملكِ بن مَرْوانَ : لو كانَ رَجُلٌ مِن ذَهَبٍ لكُنْتُه ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لم تَلِدْني أَمَةٌ ما بيني وبين آدَمَ الا هاجِرُ ، — أُمُّ اسماعيل بن ابراهيم الخليل — فقال له عبد الملك . لولا هاجِرُ لكُنْتَ كلباً من الكلاب . . .

ويقال : إنّ أوّلَ مَلِكٍ وُلِدَ مِن سُرِّيَّة في الإسلام هو يَزيد بن الوليد ابن عبد الملك ، وذلك أن قُتيبَة بن مسلم حين افتتح الصُّغْدَ وجد جاريتَيْن — فتاتَيْنِ — من أولاد فيروزَ بنِ يَزْدَجِرْد فبعَث بهما إلى الحجّاج ، فبعَث بواحِدَةٍ منهما إلى الوَليد بن عبد المَلِك فوَلَدَت له يَزيد ، وكانت سُلافَةُ أُمُّ زين العابدين عمةَ أُمِّ يزيد .

قال ابن حزم فى كتابه « نقط العروس » : وَلَمْ يَلِ الخِلافَةَ فى الصَّدْرِ الأوّل مَن أُمُّهُ أَمَةٌ ، حاشا يَزيدَ بنَ الوليد ، ولا وَلِيَها من بَنِي العبّاس مَن أُمُّهُ حُرَّةٌ حاشا السفّاح والمَهْدِيَّ والأمين ، قال : ولَمْ يَلِهَا مِن بَنِي أُمَيَّةَ فى الأندلس مُن أُمُّهُ حُرَّةٌ أصلاً . . .

قال التيجانى صاحب « تحفة العروس » : وقَدْ أَخْبَرَ النّبى (ص) أَنَّ مِثلَ هذا مِن أَشْرَاطِ الساعة ، فقال فى حديث ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عَن أَمَارَتِها فقال : أَنْ تَلِدَ الأَمَةَ رَبَّتَها ، وأَنْ تَرَى الحُفاةَ العُرَاةَ رعاء الشّاء يتطاولونَ فى البُنْيان . . قال العلماء : معنى قوله : أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها : أنّ الإسلامَ يَتَّسِعُ وتَكْثُرُ السَّرارىّ وَيَسْتَوْلِدُهُنَّ الملوك وغيرُهُم مِن سائر الناس ، فكأنَّ ابْنَةَ السُّرِّيَّة — وهى الأَمَة — رَبَّتُها ، لأنها مِلْكُ لأبيها ، وَمِلْكُ الأبِ فى التقدير كأنهُ مِلْكٌ للولد .

« أقول : هذا بَعْضُ حديث أوردَه البخارى فى باب الإيمان وفى باب الفتن وفى باب التفسير ، كما أوردَه مسلم وغيره . ونحن نورده على الوَجْه الآتى قال الرواة بينما نحن ذات يَوم عند رسول الله (ص) إذْ طَلَعَ علينا رَجُلٌ شَديد بياض الثياب ، شديد سواد الشَّعْر ، لا يُرَى عليه أَثَرُ السَّفَر ، ولا يَعْرِفُهُ منا أحد ، حتَّى جَلَسَ إلى النَّبِى (ص) فأسْنَدَ رُكْبَتَيه إلى رُكْبَتَيْه ، وَوَضع كَفَّيه على فَخِذَيْه ، فقال : يا رسولَ الله . ما الإيمان ؟ قال : الإيمانُ : أَنْ تُؤْمن بالله ، وملائكته ، وبلقائه ، وَرُسُله . وَتُؤمن بالبَعْث ، قال : ما الإسلام ؟ قال : الاسلام : أَنْ تَعْبُدَ الله ولا تُشْرِكَ به ، وتُقِيم الصلاةَ ، وتُؤدِّى الزكاة المفروضَة ، وَتَصُومَ رَمَضانَ ، قال : ما الاحسان ؟ قال : أَنْ تَعبُدَ الله كأنك

تَرَاه ، فإن لم تكنْ تَراهُ فإنَّهُ يَراك ؛ قال : مَتَى تقومُ الساعة ؟ قال : ما المَسْئُول عَنها بأعْلَم مِن السَّائل ، وسأُخْبِرك عن أشراطها — عَلاماتها — إذا وَلَدت الأمَةُ رَبَّتَها ، وفى رواية ربَّها وإذا تَطاوَلَ رُعاةُ الابل البُهْمُ فى البُنْيان ، فى خَمْس لا يَعْلَمُهُنَّ إلاَّ الله[1] ؛ ثُمَّ تَلاَ النبى (ص) : إن الله عِندَهُ عِلْمُ السَّاعة . الآية[2] ، ثمَّ أَدْبَرَ — أى السائل — فقال — أى الرسول — رُدُّوهُ ، فَلَمْ يَرَوْا شيئاً ؛ فقال : هذا جبريلُ جاء يُعَلِّمُ الناس دينَهم . . .

ونحن لا نَرَى داعياً لتفسير هـــذا الحديث[3] اللهم إلا ما تَعَلَّقَ منه بموضوعنا وهو قوله : أَنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها ، وفى رواية : ربَّها — وقد ذهب علماؤنا فى معنى ذلك مذاهب شتَّى ، أحَدُها ما أوردَه التيجانى آنفاً ، ومن

---

(١) فى خمس أى أن علم وقت الساعة داخل فى جملة خمس ، أى أن هناك أموراً خمسة من الغيب لا يعلمها إلا الله ، وفى هذه الأمور الخمسة علم وقت الساعة .

(٢) قال الإمام القرطبى : المقصود الإخبار عن تبدل الحال بأن يَسْتَوْلِىَ أهلُ البادية على الأمر ويتملكوا البلاد بالقهر ، فتكثر أموالهم وتَنْصَرِفَ هممهم إلى تشييد البنيان والتفاخر به ، ومنه الحديث الآخر : لا تقوم الساعة حتى يكون أسعدَ الناس بالدنيا لُكَعُ بنُ لُكَعٍ ! « اللكع : اللئيم » ، ومنه إذا وُسد الأمر — أى أسند — إلى غير أهله فانتظروا الساعة .

قال علماؤنا : إنما كان ذلك كذلك لافضائه إلى اختلال الأمر والنهى ووهن الدين وضعف الإسلام وغلبة الجهل ورفع العلم وعجز أهل الحق عن القيام به ونُصْرته .

(٣) نظم الآية هكذا : إن الله عنده علم الساعة ، وَيُنَزِّلُ الغَيث ، ويعلم ما فى الأرحام : وما تدرى نفس ما ذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير « آخر سورة لقمان » .

هذه التفاسير : أن يَكْثُرَ العُقوقُ فى الأولاد ، فيُعامِلَ الوَلَدُ امَّهُ مُعامَلَة السيِّد أَمَتَه ، من الاهانَة ، بالسَّبِّ والضَّرْب والاستِخْدام .

«راجع فتح البارى شرح البخارى باب الإيمان» .

وقال المبرد فى الكامل : أَنْشَدَنِى الرِّياشىُّ :

إن أولادَ السَّرارى كَثُروا يا رَبِّ فينا
رَبِّ أَدْخِلْنِى بلاداً لا أرى فيها هجينا

وقال السُّلَيْكُ بنُ السُّلَكَةِ[1] — والسُّلَكَةُ أُمُّه ، وكانت سَوْدَاء حَبَشِيَّةً — :

أشابَ الرأسَ أَنِّى كُلَّ يومٍ أرَى لِى خالَةً وَسْطَ الرِّحالِ[2]
يَشُقُّ عَلَىَّ أنْ يَلْقَيْنَ ضَيْماً وَيَعْجِزُ عن تَخَلُّصِهِنَّ مالِى

وقال عُبَيْدُ الله بن الحُرِّ — وكانَ شاعِراً متقدماً ، وكان لأُمٍّ ولَد ، وهو من وَلَد مَرْوَانَ بن الحكم :

فإنْ تَكُ أُمِّى مِن نِساء أفَاءَها جيادُ القَنا والمُرْهَفاتِ الصفائحِ[3]
فَتَبًّا لِفَضْلِ الحُرِّ إنْ لَمْ أَنَلْ بِهِ كرائمَ أولاد النِّساء الصَّرائحِ

---

(١) شاعر جاهلى لص فتاك ، وكان أحد الْعدَّائين الذين لا تلحقهم الخيل . وهم الشنفرَى وتأبَّطشرا وعمرو بن بَرَّاق ونفيل بن براقة .

(٢) الرحال : البيوت .

(٣) أفاءها من الفىء وهو الغنيمة تقول : أفأتُ على قومى فيئا : إذا أخذت لهم بِسَلَبِ قوم آخرين فجئتهم به ، وجياد فاعل أفاء ، والصفائح : السيوف العراض .

قال المُبَرِّدُ : وإنما أخذ هذا من قول عَنترة :

وأنا امرُؤٌ مِن خيرِ عَبْسٍ مَنْصِبًا شَطْرِى وأَحْمِى سائِرِى بالمُنْصُلِ (١)

وقال بِلالُ بنُ جَرير — وبَلَغَه أَنَّ مُوسَى بنَ جَرير كانَ إذا ذَكَرَه نَسَبَهُ إلى أُمِّهِ ، لأنه ابنُ أُمِّ وَلَدٍ ، فيقول : قال ابْنُ أُمِّ حَكيم — فقال بلال :

يارُبَّ خالٍ لِى أَغَرَّ أَبْلَجَا مِنْ آلِ كِسْرَى يَغْتَدِى مُتَوَّجا .

لَيْسَ كَخالٍ لَكَ يُدْعَى عَشْنَجا

والعشنج : المُتَقَبِّضُ الوَجْهِ ، السيئُ المَنْظَر ، وهو مخفف من عَشَنَّج ، يفتح الشين والنون المُشَدَّدة ، قال المُبَرِّد : وكانَ سَبَبُ أُمِّ بلال عند جَرير أَنَّ جَرِيرا فى أول دُخوله العِراقَ دَخَلَ عَلَى الحَكَمِ بنِ أيُّوبَ بن أبى عَقِيلٍ الثَّقَفِىِّ ، وهُو ابنُ عَمِّ الحَجّاجِ وعامِلُه عَلَى البَصْرَةِ . وفى ذلك يقول جَرِير :

أَقْبَلْنَ مِن نَهْلانَ أَوْ وادى خِيَمْ عَلَى قِلاصٍ مِثْلِ خِيطانِ السَّلَمْ (٢)

إذَا قَطَعْنَ عَلَمًا بَدَا عَلَمْ حَتَّى أَنَخْنَاها إلى بابِ الحَكَمْ (٣)

---

(١) شطرى مبتدأ والخبر هو « من خير عبس » والمنصل بضم الميم مع ضم الصاد وفتحها اسم للسيف ، قال ابن سيدة : لا نعرف فى الكلام اسما على مُفْعُل ومُفْعَل إلا هذا وقولهم : مُنْخُل ومُنْخَل .

(٢) أقبلن : يريد جماعة الركبان الذين معه ، ونهلان وخيم جبلان بنجد ، والقلاص جمع قلوص وهى الناقة الفتية ، والخيطان جمع خوط — بالضم — جمع خوطة وهى الغصن الناعم ، والسَّلَمُ : شجر واحدته سَلَمة ، يصف ضُمور الناقة .

(٣) العلم : الجبل وقوله أنخناها إلى باب الحكم يروى * حتى تناهين بنا إلى الحكم .

خليفةِ الحجّاجِ غيرِ المتّهَمْ في ضِئْضِئِ المجدِ وبحبوحِ الكرَمْ (١)

فكتب الحكمُ بعدَ أنْ فاطنَهُ (٢) إلى الحجّاجِ ، وذلك في أوّلِ سببه ، : أنّهُ قدِمَ علَيَّ أعرابيٌّ بافِعةٌ (٣) لمْ أرَ مِثلَهُ . . . فكتبَ إليهِ الحجّاجُ أنْ يحمِلَهُ معَهُ ، فلمّا دخلَ عليه قال له : بلَغَنِي أنّكَ ذو بديهةٍ ، فقُلْ في هذهِ الجاريةِ ، لجاريةٍ قائمةٍ على رأسِهِ ، فقال جَرير : مالِي أنْ أقولَ فيها حتى أتأمّلَها ، ومالِي أنْ أتأمّلَ جاريةَ الأميرِ فقال بلى ، فتأمّلَها واسألْها فقال لها ما اسمكِ يا جارية ؟ ، فأمسكَتْ ، فقال لها الحجّاجُ : خبّرِيهِ يا لَخْناءُ (٤) فقالت . أُمامَةُ ، فقال جَرير :

وَدِّعْ أُمامَةَ حانَ منكَ رَحيلُ إنَّ الوَداعَ لِمَنْ تُحِبُّ قَليلُ

مِثلَ الكَثيبِ تَمايَلَتْ أعْطافُهُ فالرِّيحُ تَجْبُرُ مَتْنَهُ وتَهيلُ

هٰذِي القلوبُ صَوادِياً تيَمّتْها وَأرَى الشِّفاءَ وَما إليه سَبيلُ

فقال له الحجّاجُ : قدْ جَعَلَ اللهُ لكَ السبيلَ إليها ، خُذْها هي لكَ ، فضَرَبَ بيدِهِ إلى يَدِها ، فتَمَنَّعَتْ عليه ، فقال .

---

(١) الضِّئْضِئُ : الأصل ، وبحبوح الكرم : وسطه .

(٢) فاطنَه : راجعه في الحديث قال الراعي :

إذا فاطَنَتْنَا في الحديثِ تَزْهَزَبَتْ إليها قُلُوبٌ دُونَهُنَّ الجوانِحُ

«تهزهز إليه قلبي : ارتاح وَهشَّ» .

(٣) الباقعة في الأصل : الطائر الحذر الذي إذا شرب نظر يمنة ويسرة ولا يرد المياه المحصورة خوف أن يصاد ، يشبَّه به الداهية الحذر الحاذق البصير بالأمور لا يفوته شيء .

(٤) من اللَّخَنِ وهو نتن الريح وأكثر ما يقال للأمة السوداء ويقال : هي التي لم تُختَتَن .

إن كان طِبُّكُمُ الدَّلالُ فإنَّهُ حَسَنٌ دَلالُكِ يا أُمامَ جَمِيلُ (١)

فاستُضْحِكَ الحجّاجُ ، وأمَر بتجهيزها معه إلى اليمامة . قال المُبرِّد : وخُبِّرتُ أنَّها كانت من أهلِ الرَّيِّ ، وكان إخوتُها أحْراراً ، فاتَّبَعُوهُ ، فأعْطَوْهُ بها حَتَّى بَلَغُوا عِشرينَ ألفاً ، فَلَمْ يَفْعَلْ ، ففى ذلك يقول :

إذا عَرَضُوا عِشْرِينَ ألفاً تَعَرَّضَتْ لِأُمِّ حَكِيمٍ حاجَةٌ هِيَ ماهِيا

لَقَدْ زِدْتِ أَهْلَ الرَّيِّ عندى مَوَدَّةً وحَبَّبْتِ أَضْعافاً إلَيَّ المَوالِيا

فأوْلَدَها حَكيما وبِلالاً وحَزْرَةَ بَنِي جَرير ، وهؤلاء مَن أذْكُرُ مِن وَلَدِها . ويُقالُ : إنَّ الحَمَّانِيَّ — شاعر راجزٌ — قاوَل بِلالاً ذاتَ يَوم فيما كان بينَهما مِن شَرٍّ ، فقال : يا ابْنَ أُمِّ حَكيم ! فقال له بِلال : ما تَذْكُر من أُبْنَةِ دِهْقانٍ (٢) وأَخِيذَةِ رِماحٍ (٣) وعَطِيَّةِ مَلِك ! ليست كامُّك التى بالمَرُّوتِ (٤) تَغْدُو على إثْرِ ضَأْنِها كأنَّما عَقِبُها حافِرا حمار ! فقال له الحمانِيّ : أنا أعْلَمُ بأمِّكَ إنَّما عَتَبَ عليها الحجّاجُ فى أمْرِ الله أعْلَمُ بِه ، فخلف أن يدفعَها إلى الأمِ العَرَب ، فَلَمَّا رأى أباكَ لم يَشْكُكْ فيه . . .

* * *

---

(١) لك أن ترفع الطب وتنصب الدلال ولك أن تعكس ، والطب : المذهب ، والدلال : الدالّة .

(٢) الدهقان : التاجر .

(٣) أخيذة ، أسيرة .

(٤) المَرُّوتُ : اسم وادٍ لبَنى حَمَّان بالعالية .

ومن كَلِمَةٍ لمحمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رحمهم الله — وكانَ قد خَرَجَ على أبي جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ ، وكان يُلَقَّبُ بالمهدى وبالنَّفْس الزّكيَّة — فكتب إلى أبي جعفر ما هذا بعضه — : واعْلَم أنّى لستُ من أولاد الطُّلَقاء[١] ، ولا أولاد الأُمَناء[٢] ، ولا أُعرِقَت فِيّ الإماء[٣] ، ولا حَضَنَتْنِي أُمّهات الأولاد ، وقد رَدّ عليه أبو جعفر المنصور برسالة مستحسنة جداً تراها فى آخر الكامل يقول فيها مما يتعلق بغرضنا : وأمّا ما ذكرتَ أنّهُ لم تُعرق فيك الاماء فقد فَخَرْتَ على بنى هاشِم طُرًّا ، أوّلُهُم إبراهيم[٤] بن رسول الله (ص) ، ثم علىّ بنُ الحسينَ — زَينُ العابدين — الذى لم يولَد فيكم بعد وفاةِ رسول رسولِ الله (ص) مولود مثله .

* * *

---

(١) الطلقاء جمع طليق وهو الأسير يخلى عنه ويطلق فلا يُسْتَرَقُّ ، يعرّض ببنى العباس بن عبد المطلب وكان قد أسر يوم بدر .

(٢) يعرض بمعاوية وأخيه يزيد وأبيه أبى سفيان ، لقول سيدنا رسول الله وقد رأى أبا سفيان راكباً جملا يقودُه معاوية ويسوقه يزيد أخوه : لعن الله الجمل وراكبه وقائده وسائقه .

(٣) يريد : لم تَمَسَّنى عروق الإماء ولم تخالطنى ، يقال : أعرق فيه اللئام وعَرَّقوا : إذا خالطه من لؤمهم شيء وتخلق بأخلاقهم ، يريد بذلك آخر ملوك بنى أمية : مروان بن محمد الذى مزقت ملكه شيعة بنى العباس وبدّدوا شمله ، وأمّه أمَةٌ كانت لابراهيم بن الأشتر النخعى .

(٤) إذ أنه ابن مارية القبطية التى أهداها إليه المقوقس .

وَرَوَى عَبدُ الملك بنُ حَبيب عن أنس بن مالك قال : جاء عُمرُ إلى مَنزِلِهِ فرأى امرأةً عليها جِلبابٌ — خِمار تُغطّى به المرأة رأسَها وصَدْرَها فرَجَع ، ثمَّ جاء إلى مَنزِلِه ثانِيَةً ، ثُمَّ رَجَع ، حتى فَعَلَ ذلك مِراراً ، فَلَمَّا انصرفت قال لأهله : مَن هَذه التى عَنَّتْنَا منذ اليوم ؟ قالوا : هى أَمَة فلان ، فلمَّا راح عُمَرُ قال للناس : لا تَتَشَبَّهُ الأَمَةُ بِسَيِّدَتِها ، لا تُلْبِسوهُنَّ الجلابيب ، فإنَّ الله تعالى يقول : يا أيها النَّبي قُلْ لأزواجكَ وبَناتك ونساء المؤمنين يُدْنين عليهن مِن جلابيبهن . قال ابن حبيب : وَلَمْ أَرَ بالمدينة أَمَةً تخرج وإن كانت رابيَةً إلا مَكشُوفَةَ الرأس ، لا تُلقى جلبابًا على رأسِها ، قال : ولا بأسَ أَنْ تُصَلِّيَ الأَمةُ كذلك مَكشُوفَةَ الرأس والمِعْصَم ، ولا بأسَ أَنْ تُبْدِيَ ذلك فى غير الصلاة ، والسَّرارِيُّ فى هذا وغيرُ السَّرارِيِّ بِمَنْزِلة وَاحدة ، وفَرَّقَ بعضُ العلماء فى هَذا بين الإماء الحِسان المصُونات المقصورات الحاملات من الجمالِ أكثر مِمّا تحملهُ الحرائر ، وبين الإماء المُبْتَذَلات ، فمال إلى وُجوب التَّستُّرِ عَلَى مَنْ كانت مِنْهُنَّ بالصِّفةِ الأولى ، وسُقوطِه عمن كانت بِضِدِّ ذلك ، وحُكِيَ عن الحسنِ البَصْرِيِّ أَنَّهُ كانَ يُوجبُ الخِمارَ على السُّرِّيَّةِ ، يعنى الأَمَةَ التى اتخذها الرَّجُلُ لِنَفْسِه ، سواءٌ كانتِ جميلةً أو شوهاء ، وأمّا أُمَّهات الاولاد فإنَّ حُكْمَهُنَّ حُكْمُ الحرائرِ فى لباسِهِنَّ وصَلاتِهِن . . .

* * *

طرف من استظهار العرب فى البداهة :

ذَهَبَ أعرابيٌّ إلى سَوَّارِ القاضِى[1] ، فقال : إنَّ أبى مات ، وَتَرَكَنِى

---

(١) هو سَوَّار بن عبد الله كان قاضياً بالبَصْرَة لأبى جعفر المنصور .

وأخاً لي وخَطَّ خَطَّين ناحِيَةً ، ثم قال : وهَجيناً لنا — وخَطَّ خَطًّا آخرَ ناحِيَة — ثُمَّ قال : كَيفَ يُقْسَمُ المالُ بيننا ؟ فقال : المالُ بينَكُم أثلاثاً إن لم يَكُنْ وارِثٌ غيرُكم . فقال له : لا أحْسَبُك فَهِمْتَ ! إنَّهُ تَرَكَني وأخِي وَهَجيناً لنا ، فقال سوّار : المالُ بينكم سَواء ، فقال الأعرابيُّ : أيأخُذُ الهجينُ كما آخُذُ ويأخذ أخي ؟ قال : أجَلْ ، فَغَضِبَ الأعرابيُّ وقال : تَعَلَّمْ والله إنَّكَ قليلُ الخالاتِ بالدَّهناء[1] .

وَحَكَى الجاحِظُ قال : قلت لعبيد الكلابي — وكانَ فصيحاً فقيراً — : أيَسُرُّكَ أن تكونَ هَجيناً ولكَ أَلْفُ جَريب[2] ؟ قال : لا أُحِبُّ اللُّؤْمَ بِشَيء فلت : فإنَّ أميرَ المُؤمنين ابنُ أمَة ! قال : أخْزَى اللهُ من أطاعَه !

* * *

وكانَ عَقيلُ بنُ عُلَّقَةَ الشاعر مِنَ الغَيْرَةِ والأنَفَةِ على ما لَيسَ عليه أحَدٌ فَخَطَبَ إليه عَبدُ الملكِ بنُ مَرْوَانَ ابنَتَهُ على أحَدِ بَنيه ، وكانت لِعقيل إليه حاجاتٌ ، فقال عقيل : أمَّا إذ كُنْتَ فاعِلاً فَجَنِّبْني هُجَناءَك «يريد أبناء الإماء ، وهم : عَبدُ الله ، ومَسْلَمَةُ ، والمُنذِرُ ، وعَنْبَسَةُ ، ومحمد ، وسعيد الخير ، والحجاج» . . .

وَخَطَبَ إليه ابنَتَهُ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوَليد بن المغيرة ، وهو خالُ هشام بن عبد الملك ، وَوالى المدينة ، وكانَ أبيَضَ شَديدَ البياض ، فَرَدَّه عقيل وقال :

---

(١) قالوا : إنَّه ليس بالدَّهناء أمَة ، وإنما كان بها الحرائر .

(٢) الجريب : المَزرعة .

رَدَدتُ صَحِيفَةَ القُرَشِيِّ لَمَّا أَبَتْ أعراقُه إلاَّ احْمِرَارا

* * *

وقال المختار بنُ أبى عبيد الثقفى[1] لإبراهيم[2] بن الأشتر يومَ خازر، وهو اليومُ الذى قُتِلَ فيه عُبَيْدُ الله بنُ زياد: إنَّ عامَّة جُنْدِك هُؤلاء الحمراء، وإنَّ الحربَ إنْ ضرَّستْهم هَربوا، فاحْمِلِ العَرَبَ على مُتونِ الخيل وأَرْجِلِ الحمراء أمامَهم (انظر الكامل ج ٤ ص ١٩٥ وما بعدها).

الموالى فى اللغة:

المَوالى صُنُوفٌ وشكُول، فمنهم الهجين، وهو: العربىّ ابن الأمة[3]، من الهُجْنَة وهى العيب، وقال الإمامُ ثَعْلَب: الهجين: الذى أبوه خير من أمِّه، قال المُبَرِّد: إنَّما قيل لولد العربى من غير العربية هجين لأنَّ الغالبَ على ألوانِ العَرب الأُدْمَة — السُّمْرَة — وكانت العَربُ تُسَمِّى العَجَمَ: الحمراء ورِقابَ المَزادِ — جمع مَزادة: وعاء يتزوّد فيه الماء كالقِرْبَة ونحوها — لغلبةِ البياضِ على أَلْوانهم، ويقولون لِمَنْ عَلا لَوْنَهُ البياضُ: أَحْمَر، ولذلك قال

(١) هذا المختار هو الذى زعم أنه وزير محمد بن الحنفية وأنه أمَرَه بقتال عَدُوِّه والطلب بدم الحسين وأهل بيته، فتبعه الشيعة وخلق كثير.

(٢) وكان قد وجّهه سنة ست وستين لقتال عبيد الله بن زياد ومن معه من أهل الشام، وكان مَرْوان بن الحكم لمَّا استوثقت له طاعة الشام بعثه إلى العراق وجعل له ما غلب عليه، وأمره أن ينهب الكوفة إن هو ظفر بأهلها ثلاثةَ أيام، فالتقى الجيشان عند نهر بين إربل والموصل يقال له: خازر.

(٣) الأمة أى ولو أعجمية.

النبي (ص) لعائشة : يا حُمَيراء لغَلَبَةِ البياضِ على لَونها ، وقال صلوات الله عليه بُعِثْتُ إلى الأحمَرِ والأسود ، فأَسْوَدُهُمْ العَرب ، وأَحْمَرُهُمْ العَجم ؛ وقالت العرب لأولادها من العَجَمِيَّات اللاتى يَغْلِبُ على أَلْوانِهِنَّ البياض : هُجْنٌ وهُجناء ، لغَلَبَةِ البياض على ألوانِهم وشَبَهِهم أُمَّهاتِهم ؛ قال المُبَرِّد : وإذا كانت الأُمُّ كريمَةً ، والأبُ خَسيساً قيلَ له : المُذَرَّع ، قال الفَرَزْدَق :

إذَا باهِلِيٌّ تَحْتَهُ حَنْظَلِيَّةٌ له وَلَدٌ منها فَذاكَ المُذَرَّعُ[1]

وقال ابن قيس العدوى :

إنَّ المُذَرَّع لا تَغْنى خُئُولَتُهُ كالبَغْلِ يَعجِزُ عن شَرطِ المحاضير[2]

وإنَّما سُمِّى مُذَرَّعاً للرَّقْمَتَيْنِ[3] اللَّتَيْنِ في ذِراعِ البَغْل ، وإنَّما صارَتا فيه من ناحِيةِ الحِمارِ[4] قال بعضهم يَهْجو قوماً :

قَومٌ تَوارَثَ بيتَ اللُّؤْمِ أَوَّلُهُم كما تَوارَثَ رَقْمَ الأَذْرُعِ الحُمُرُ

«الحُمُرُ جمع حِمار» .

وَمِن أَمْثالِهم : مَن أَبوكَ يا بَغْل ؟ فقال : خالِي الفَرَس . . .

* * *

قالوا : فإذا تَرَدَّد فى الهجين أَعْرَاقُ العَجَم فهو المُعَلْهَجُ .

---

(١) الباهلى نسبة إلى باهلة : امرأة من همدان سميت قبيلة اللؤم باسمها ، وحنظلية نسبة الى حنظلة بن مالك . . . وهى أكرم قبيلة يقال لها : حنظلة الأكرمون .

(٢) المحاضر : جمع مِحضَر وهو : الفَرَسُ السريع .

(٣) الرقمتان واحدتهما رَقَمة وهما أثران بباطِنِ الذِّراعين لا يُنْبِتان الشعر .

(٤) يريد أنه نزع بهما الى أبيه الحمار .

وأمَّا الفَلَنْقَس فهو الذى أُمُّه أَمَةٌ وخالُه عَبد .

والمُكَرْكَسُ : الذى أُمُّ أُمِّه وأُمُّ أبيه وأُمُّ أُمِّ أُمِّه وأُمُّ أُمِّ أبيه إماءٌ كأنه المُرَدَّدُ فى الهُجَناء .

وإذا أَحْدَقَتْ به الإماءُ فى كُلِّ وَجه فهُو : المَحْيُوس ، من الحَيْس وهو الخَلْط وإذا وَصَفوا الإنسانَ بغَاية اللُّؤْمِ قالوا : قِنٌّ ، وهو الذى مُلِك هو وأبواه وعَبدُ العَصَا لِكلِّ ذليل .

ومن المَوالى مَولى السَّائبة . وهذا كَانَ فى الجاهِليَّة .

وذلك أَنَّ الرَّجُلَ كانَ إذا نَذَرَ لِقُدومٍ من سَفَر أَوْ بُرْءٍ من مَرَض ، أو غير ذلك ، قَال : ناقَتِى سائِبَة ، فلا تُمْنَعُ مِن ماء ولا مَرْعًى ، ولا تُحْلَبُ ولا تُرْكَب ؛ وكان إذا أَعْتَقَ عَبداً فقال : هو سائبة ، فلا عَقْل — دِيَة — بينهما ولا مِيراث ، وَيصيرُ طَليقاً خليعاً . .

الموالاة قرابة :

قَال سيدنا رسول الله : الوَلاءُ لُحْمَةٌ كَلُحْمَةِ النَّسَب .

«قال ابن الأثير : قَد اختُلف فى ضمّ اللحمة وفَتحها فقيل : هى فى النّسب بالضَّمّ وفى الثَّوب بالضَّمّ والفتح وقيل : الثوب بالفتح وحدَه ، وقيل : النسب والثوب بالفتح وأما بالضم فهو ما يُصادُ به الصيد ، قال : ومعنى الحديث : المخالطة فى الوَلاء ، وأنها تجرى مَجْرَى النسب فى الميراث ، كما تُخَالِطُ اللُّحْمَةُ سَدَى الثَّوب حتى يصيرا كالشىء الواحد لما بينهما من المداخلة الشديدة» .

حثهم على اختيار ذوات الدين

والحسب والنسب والترغيب عن لئام ذوات المال

ومن يجب تجنبه من النساء

من أبرع ما قيل فى باب النهى عن التزوج من المرأة السوء التى لا دين لها ولا حسب قوله صلوات الله عليه : إياكم وخضراء الدمن ، قيل : وما ذاك يا رسولَ الله ؟ قال : المرأة الحسناء فى المَنبتِ السوء . . «الدمن جمع دِمنة كسِدْرَة وسِدَر ، وهى : الموضع تتلبّدُ فيه أبعار الإبل وأبوالُها ، أى مَرْبِضُها فربّما نبتَ فيه النباتُ الحسَنُ النَّضير وأصلُه من دِمْنَة ، شبَّهَ رسولُ الله (ص) المرأةَ الحسناء الخبيثةَ الأصلِ بما ينبتُ فى الدِّمَنِ من الكلإ يُرَى له غَضارَةٌ وهُوَ وبِئُ المَرْعى مُنْتِنُ الأصلِ . قال زُفَرُ بنُ الحارث :

وقد يَنْبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ الثَرَى ... وتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفوسِ كما هِيا[1]

والمَنبتُ بكسْرِ الباء كما نطَقَ به العَرب ، وإن كانَ القياسُ فتح الباء ، لأنَّهُ من نَبَتُ ينبُتُ ، ومثلُه أحرفٌ معدودةٌ جاءت بالكسرِ ، منها : المسجِد والمطلِع والمَشرق والمَغرِب والمسكِن والمَنسِك » .

* * *

وقال مَروان بنُ زنباع العبسى : يا بَنِى عبْس ، احفَظُوا عَنِّى ثلاثاً : اعْلَموا أنَّه لم يَنقُلْ أحد إليكم حَديثاً إلاَّ نَقَل عنكم مِثلَه ؟ وإياكم والتَّزْويجَ فى بيوتات

---

(١) الحزازات جمع حَزازة : وَجَع القلب من غَيْظ ونحوه ، قال أبو عبيد والبيت ضرب مثلا للرجل يظهر مَوَدَّةً وقلبُه نَغِل بالعداوة .

السَّوْء ، فإنْ له يوماً ناجِثاً[1] استَكْثِرُوا مِن الصَّدِيق ما قَدَرْتم ، استَقِلُّوا مِنَ العَدُوِّ ؛ فإنَّ استِكثارَه ممكن . . .

* * *

ومن بارع ما جاء فى هذا قوله ﷺ : وإنَّ من النساء غُلاً قَمِلاً يَقْذِفُه الله فى عُنُقِ مَن يَشاءُ ثُمَّ لا يُخرِجه إلا هو . . . «الغُلُّ : القَيدُ يُوضَعُ فى العُنُقِ أو اليد ؛ وقَمِلَ كَكَتِف من قَمِلَ رأسُه كتَعِبَ : كَثُرَ قَمْلُ رأسِه ؛ وأصلُ هذا أن العربَ كانُوا إذا أسرُوا أسيراً جَعلوا فى عُنُقِه غُلاً — قيداً — من جِلْد ، وعليه شعَر ، فرُبَّما قَمِلَ فى عُنُقِه إذا قَبَّ وَيبِسَ ؛ فتَجْتَمِعُ عليه مِحْنَتَان الغُلُّ والقَمل ، ضربَه مَثلا للمرأةِ السَّيِّئَةِ الخُلُقِ الكَثيرَةِ المَهْرِ لا يَجِدُ زَوجُها منها مَخلَصاً ، نَعُوذُ بالله من الوُقوع على مثل هذه المرأة ، ونسأل الله لِمَن ابتُلِي بها أن يُلهِمَه الصَّبرَ عليها كما نُلْهِمُ الصَّبرَ على المصائب المُبْهِظَة» .

وقال أكثمُ بنُ صَيْفِيٍّ : لا يَفْتِنَنَّكم جمالُ النِّساء عَن صَراحَةِ النَّسب ، فإنَّ المَناكِحَ الكريمةَ مَدْرَجَةُ الشَّرَف .

وقال عثمان بن أبى العاصى لأولادِه : يا بَنِيَّ ، إن المَناكِحَ مُغْتَرَس ، فلْيَنْظُرِ المَرء حَيثُ يَضَع غَرسَه ، فإنَّ عِرقَ السَّوء قلما يُنْجِبُ ، وإني قد أنجبتكم من أُمَّهاتكم .

وقال بَعضُ شُعَرَاء بَنِى أسَد :

وأوَّلُ خُبْثِ المـــاء خُبْثُ تُرابِه ... وأوَّلُ خُبْثِ القَومِ خُبْثُ المَناكِح

---

(١) الناجث الذى يَحْفِرُ البئر ليستخرج التراب ، ونجيث البئر والحفرة : ما خَرَجَ من ترابهما ، ويقال : هذا أمر له نجيث : أى عاقبة سوء .

وَعن عُرْوَةَ بن الزُّبير : ما رَفَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ بعد الإيمان بالله بمثل مَنْكِحِ صِدْق ، ولا وَضَعَ نَفْسَهُ بعد الكُفْرِ بالله بمثل مَنْكِحِ سوء ، ثمَّ قال : لَعَنَ الله فُلانَة ، ألفتْ بَنِي فُلان بِيضاً طِوالاً فقلَبَتْهُمْ سُوداً قِصاراً . . .

وَقال أبو عمرو بن العَلاء : قال رَجُلٌ لا أتزوَّجُ امرأةً حَتَّى أنظُرَ إلى وَلَدِي منها ، قيلَ له . كيف ذاك ؟ قال : أَنْظُرُ إلى أبيها وأُمِّها فإنَّهما تجُرُّ بأحدِهما . . .

إذا كُنْتَ مُرْتَاداً لِنَفْسِكَ أيِّماً ... من الناسِ فانْظُرْ مَنْ أَبُوها وخالُها
فإنَّهما منها كما هي منهما ... كما النَّعْلُ إنْ قِيسَتْ بنَعْلٍ مِثالُها
وَإنَّ الذي تَرْجُو من المال عندها ... سَيأْتِي عليه شُؤْمُها وَخَبالُها

«الأيِّمُ : يريدبها الزَّوجة أيَّةً كانَتْ ، بِكْراً كانت أو ثَيِّباً ، وقولُه : كما النعل الخ . هُوَ كقَوْلِهِمْ : حَذْوَكَ النَّعل بالنَّعْل : والحَذْوُ : التقدير ، وأنت إذا قَدَّرتَ وَقِسْتَ وقطعت نعلاً عل مثالِ نعلٍ فهي مثلُها : وقد رُوِيَتْ هذه الأبيات على وُجوه أخرَى» .

وَقالَ الأعشَى لِسَلامَةَ ذِي فائِشٍ الحِمْيَرِي — من كلمة له يمدحه هو وقومَه :

وَقَوْمُكَ إنْ يَضْمَنُوا جارَةً ... يكونُوا بِوَضْعِ أنْضادِها
فلَنْ يَطْلُبُوا سِرَّها لِلْغِنَى ... وَلنْ يُسْلِموها لِإزْهادِها

« الأنضادُ جمعُ نَضَد وهم الأعمامُ والأخوال المتقدِّمونَ فى الشَّرف ، يريد : أنهمْ يكونونَ بموْضع ذَوِى شرَفِها وحَسَبِها ، والسِّرُّ : النكاحُ ، وإزهادُها : قلَّةُ مالِها ، يقالُ : أزْهدَ الرجلُ إزْهاداً : إذا كانَ مُزْهِداً : أى يُزْهِدُ فى مالِه لقلَّتِه ؛ قال أبو العبَّاسِ المبرِّدُ فى الكامل :

فى هذا البيت قولان : أحدُهما : أنَّهُمْ لا يَطلبونَ اجترارَها — جرَّها — إليهم على رَغم أولياءِها ، من أجلِ مالِها ، تَعصُّباً للجوار ، ولا يُسلِمونَها إذا انقطعَ رجاؤهم من الثوابِ والمكافأةِ ؛ والآخرُ : أنهمْ لا يَرْغبونَ فى ذَواتِ الأمْوَال ، وإنما يَرْغبون فى ذَواتِ الأحْسابِ ، اختياراً للأولاد ، وَصيانَةَ للأصْهارِ أن يطمَعَ فيهم مَنْ لا حسبَ لَهُ ، وفى اللسان جاء البيت الثانى هكذا :

فَلَنْ يَطْلُبُوا سِرَّهَا لِلْغِنى ... وَلَنْ يتركوها لإزْهَادُهَا

قال : يقول : لا يتركونَها لقلَّةِ مالِها ، وهو الإزْهادُ ، وَقال أبو منصور الأزهرى : المعنى أنهم لا يسلمونَها إلى من يُرِيدُ هَتْكَ حُرْمَتِها لِقِلَّةِ مالِها» .

وَعنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسولُ اللهِ عليه الصلاة والسلام .

«تُنْكحُ المرْأةُ لِأرْبَعٍ : لِمالِها ولحسَبِهَا وجَمالِها ولدِينِها ، فاظْفَرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يداكَ» .

وَقبْلَ أنْ نَمْضِىَ فى شرْحِ هَذَا الحديثِ الشَّريف نُوردُ عليكَ حديثين آخَرَيْنِ فى مَعناهُ ، أمَّا أوَّلُهما فهُوَ : لا تَزوَّجُوا النِّساءَ لحُسْنِهِنَّ فلعَسَى حُسْنُهُنَّ أنْ يُرْدِيَهُنَّ ، ولا تَزوَّجُوهُنَّ لأمْوَالِهِنَّ فلعلَّ أمْوَالَهُنَّ أنْ تُطْغِيَهُنَّ ولكنْ تَزوَّجُوهُنَّ لدِينِهِنَّ ، ولأمَةٌ سَوْدَاءُ ذات دِينٍ أفْضَلُ . . . وأمَّا الآخَرُ فقَوْلُهُ صلوات الله عليه : ما أفَادَ رَجُلٌ بعْدَ الإسْلَامِ خيراً من امرأةٍ ذاتِ دِينٍ تَسرُّهُ إذا نَظَرَ إليْهَا وتطيعُهُ إذا أمَرَهَا ، وتحفَظُهُ فى نَفْسِهَا ومالِهِ إذا غَابَ . . . أمَّا قولُه ﷺ فى الحديث الأوَّل : تَرِبَتْ يَدَاكَ فإنَّهُ يقالُ لِلرَّجُلِ إذا قَلَّ مَالُهُ : قد تَرِبَ ، أى افتقَرَ حَتَّى لَصِقَ بالتُّرابِ ، وأتْرَبَ : إذَا استَغْنَى وكَثُرَ مَالُه ، وهذه الكَلِمَةُ — تَرِبَتْ يَدَاكَ — جاءت على ألْسِنَةِ العَرب — لا يريدون بها الدُّعاء على المخاطَبِ ولا وُقوعَ الأمرِ بهِ وهذا

كما يقولون : قاتَلَهُ اللهُ ، وكثيراً ترِدُ للعرب ألفاظٌ ظاهِرُها الذَّمُّ وإنما يريدون بها المدح ، كقولهم : لا أَبَ لَك ، ولا أُمَّ لك ، ونحو ذلك ، وفى حديث أنَس : لم يكُنْ رسُولُ الله ﷺ سَبَّاباً ولا فحَّاشاً ، كان يقول لأحَدِنا عِنْدَ المعاتَبَةِ : تَرِبَ جَبينُه ، يُرِيدُ بذلك الدعاءَ لَهُ بكثرة السُّجُودِ ... هذا وَلْيُلْحَظْ أَنَّ المرادَ بذاتِ الدِّين : التى صَقَلَهَا الدِّينُ وهذَّبَها وكَساها فُنُونَ الحياءِ والعِفَّةِ والخُلُقِ الطَّاهِرِ الكريم . . . وأمَّا بَعدُ فإذا كان سيدنا رسول الله ﷺ قد نَصَحَ لنا بأَنْ نُؤْثِرَ ذات الدِّين على من لا دينَ لَها وإنْ كانت جَمِيلةً أو ذات مالٍ فليس معنى ذلك أن نُسْقِطَ المالَ والجمالَ من الدِّين ، فَحَبَّذَا ذاتُ الدين إذا كانت على ذلك ذات مال وجمال ، أمَّا المال والجمال . . . لا يَصْحَبُهُما دِينٌ وَخُلُقٌ كريم فإنهما يُصْبِحان مَصْدَرَ بلاءٍ ومِحْنَة ، ولا سيَّما الجمال الفائق والمال الكثير ، وقد رَوَوا فى ذلك : أنَّ رجُلاً شاوَرَ حَكيماً فى التَّزَوُّج — فقال له : افعَلْ ، وإيَّاكَ والجمالَ الفائق ، فإنَّهُ مَرْعًى أنيق ، فقال الرجل : ما نَهَيْتَنِى إلاَّ عَمَّا أطلُب ، فقال الحكيم : أما سَمِعْتَ قولَ القائل :

وَلَنْ تُصادِفَ مرعًى ممرِعاً أَبَداً ... إلاَّ وجَدْتَ به آثارَ ما كُولِ[1]

---

(١) جاء فى محاضرات الأدباء ما يأتى : كان عند الأحنف امرأة فطلقها وتزوجها ابن عم لها ، وكتب إلى الأحنف :

إن كنتَ أزمعْتَ أمراً فامضِيَنْ لَهُ ... إنَّ الغزالَ الذى ضيعتَ مَشْغُولُ

فكتب إليه الأحنف :

إنْ كُنْتَ مشتغلا فاللهُ يصلحُهُ ... فقد لَهَوْنا بأمرٍ منه مَوْصُول

ولن تصادِفَ مرعًى مونِقاً أَبَدًا ... إلاَّ وَجَدْتَ به آثارَ ما كُول

وإذن يكون ما جاء فى عيون الأخبار بدل ما كول : منتجع ليس بذاك .

وقالوا : الجمال للرجال مَطْمَع ، وأنشدوا :

لا تطلب الحسن إن الحسن آفته أن لا يزال طَوَالَ الدهر مطاوبا
وما تصادف يوماً لؤلؤاً حسناً بين اللآلئ إلا كان مثقوبا

وقيل لحكيم تزوج امرأة دميمة : هلا تزوجت بحسناء ؟ فقال : اخترت من الشر أقلّه .

قلنا : حبذا المال والجمال إذا صحبهما الدين والحسب ، ففى الحديث : أعظم النساء بركة أحسنهن وجوها وأرخصهن مهوراً . . وفيه : إنما النساء لُعَبٌ ، فمن اتخذ لعبة فليستحسنها .

وقال الإمامُ الغزالى فى الاحْيَاء : وليس أَمْرُه ﷺ بمراعاةِ الدين نهياً عن مراعاة الجمال ولا أمراً بالاضراب عنه ، وإنما هو نهىٌ عن مراعاته مجرداً عن الدين ، فانَّ الجمال فى غالبِ الأمْرِ يُرَغِّبُ الجاهِلَ فى النكاح دون الالتفاتِ إلى الدِّين ولا نظر إليه ، فوقع النهىُ عن هذا وأمر ألاَّ نُغْفِلَ النظر فيه ، قال : وأَمْرُ النبي (ص) مَن يريدُ التَزَوُّجَ بالنظر إلى المخطوبة يدُلُّ على مراعاة الجمال ، إذ النظر لا يفيد معرفةَ الدّين وإنما يُعْرَفُ به الجمال والقُبْح ، قال القاضِي عِياض : وفى قولِهِ (ص) تُنكَحُ المرأةُ لِمَالِها دَليلٌ على أن للرجل الاستمتاعَ بمال الزوجة ، وإلا كانت كالفقيرة ، ولم يكن لهذا الكلام فائدة ، قال : فان كان استمتاعه عن طيبِ نفسٍ منها فذلك ما لا إشكالَ في جوازه وإن امتنعت فلهُ بقدر ما بذَلَ من الصَّدَاق ، قال : وَمِنْ هـذا اختلفُوا فى إجبارِها عَلَى التَّجْهيز بصدَاقِها ، فَأَلْزَمَها مالِكٌ ذلك ، ولم يُجِزْ لها قضاء دَيْنٍ ولا

نفقة فى غير الجهاز ، إلا الشيء اليسيرَ من الكثير ، وقالَ غيرُه : لا تُجْبَرُ على شيء من ذلك ، وهو مالُهَا تفعلَ فيه ما شاءت .

بَقِىَ أَنْ نُفَسِّرَ لك الحسَبَ الذى جاءَ في الحديث فالحسَبُ فى الأصل الشَّرَفُ بالآباء وما يَعُدُّه الانسانُ من مفاخرِهِمْ ، ولكنه فى الحديث : الفعال الحسن للرجل ولآبائه ، وباغة الدين : التقوى ، وهى جماع كل خير .

***

وحضرت رجلا من ربيعة الوفاةُ ، فقال لابنه : يا بنى ، إذا حَزَبك أمر فاحكك ركبتيك بركبة من هو أسَنُّ منك ثم استشره[1] .

قال الابن : فمَاتَ أَبِى ، فَأَردْتُ التَّزَوُّجَ ، فجِئْتُ شَيْخاً مِنْ قَوْمِهِ ، فَجَلَسْتُ فى ناديهِ ، فلما قَامَ النَّاسُ مِنْ عنده قَالَ : أَلَكَ حَاجَةٌ يا بنَ أَخِى ؟ قُلتُ : نَعَمْ يا عَمِّ ، إنِّى أُرِيدُ التَّزَوّج قَالَ : يا بن أخى ، أقصيرة النسب أم طويلته ؟ فلم أفهم عنه . . . فقال : يا بنَ أَخِى ، إنِّى أَعْرِفُ فى العَيْنِ إذا عَرَفَتْ ، وَأَعْرِفُ فى العين إذا نَكِرَتْ ، وأَعْرِفُ فى العَيْنِ إذا لم تَعْرِفْ وَلَمْ تُنْكِرْ[2] ، أَمّا إذا عَرَفَتْ فانَّهَا تُحَاوِصُ[3] ، وأَمَّا إذَا نَكِرَتْ فَإِنها

---

(١) قال أبو جهل : حتى إذ تحاكت الركب قالوا منَّا نَبِىٌّ ، والله لا أفعل ، أى تماست واصطكت ، يريد : تساويهم فى الشرف والمنزلة ، أو يريد تجاثيهم على الركب للتفاخر فذاك من ذاك .

(٢) يقال : نَكِرَ الشيء وأنكَرَهُ قال :

وأنكَرَتْنِي وما كان الذى نكِرَتْ من الحوادث إلا الشيب والصلعا

ومن ثم استعملنا مضارع أنكَرَ وإن استعملنا نَكِرَ فى الماضى .

(٣) يقال : هو يحاوص فلانا أى ينظر إليه بمؤخر عينيه .

تَجْحَظُ ، وأما إذا لم تعرف ولم تُنْكِر فإنَّها تَسْجُو سُجُوًّا ، وقد رأيتُ عينك ساجِيَةً ، فالقصيرة النسب ، التي إذا ذكرتْ أباها اكتفت به — لمكانه من الصيت والسيادَة والمجد — والطويلة النسب : التي لا تُعْرَفُ حتى تطيل في نِسْبَتِها — لمكانها من الخمول والدناءة — فإياك يا بن أخي أن تتزوج إلى قوم أهلِ دناءَةٍ قَدْ أصابُوا مِن دنياهم شيئاً ، فتشركهم في دناءتهم ويستأثروا عليك بدنياهم . . .

* * *

وقال خالد بن صفوان : مَن تزوَّجَ امرأةً فليتزوَّجْها عَزيزةً في قومها ، ذليلةً في نفسها ، أدَّبها الغِنَى وأذلَّها الفقر ، حَصاناً مِن جارِها — عفيفةً رزانا بينها وبين مَن عدا زوجها — ماجنةً على زوجها .

ورُوِي عن هذا خالد بن صفوان أنه قال لدَلال — وهو أحد المُخَنَّثين الذين يخطبون النساء على الرجال — : اطلُبْ لي بِكْراً كثيِّب أو ثيباً كبكر ، لا ضَرْعاً صَغيرَةً ولا عَجوزاً كبيرَة ، قد عاشَت في نَعْمَةٍ وأدركتها حاجة ، فخُلُقُ النِّعْمة معها وذُلُّ الحاجَةِ فيها ، حسْبي مِن جَمالها أن تكونَ فَحْمَةً مِن بَعيد ، مليحَةً مِن قريب ، وَحَسْبي مِن حَسَبِها أنْ تكونَ واسِطَةً في قومِها — من خِيارهم وأمْثلهم —

* * *

وقال بعضهم لآخر : ابْغِنِي امرأة لا تؤهِّلُ داراً — أي لا تجعَلُ دارَها آهِلةً بدُخولِ الناس عليها — ولا تُؤْنِسُ جاراً — أي لا تُؤْنِسُ الجيرانَ بدخولها عليهم — ولا تَنفِثُ ناراً — أي لا تُنِمُّ — تَشِي — وتُغْرِي بين الناس .

* * *

وقال عمر بن الخطاب : ثلاث من الفواقر — الدواهي — : جارُ مُقامَةٍ ، إن رأى حَسَنَةً سَتَرَها ، وإن رأى سَيِّئَةً أذاعها ، وامرأةٌ إن دَخلتَ عليها لَسَنَتْكَ — أخَذَتكَ بلسانِها وذكرتك بالسوء — وإنْ غِبْتَ عنها لم تأمَنْها ، وسُلطان إن أحْسَنْتَ لم يَحْمَدْكَ ، وإن أسأت قتلك .

* * *

وقال الزِّبرقانُ بنُ بدر : أحَبُّ كَنائِنِي إلَيَّ[1] الذليلةُ فى نَفْسِها ، العَزيزَةُ فى رَهْطِها ، البَرْزَةُ[2] الحَيِيَّةُ ، التى فى بَطنها غلام ويَتْبَعُها غلام ، وأبْغَضُ كَنائِنِي إلَيَّ الطُّلَعَةُ الخُبَأةُ[3] التى تَمشى الدَّفِقَّى وتَجْلِسُ الْهَبَنْقَعَةَ[4] الذليلة فى رَهْطِها ، العَزيزَةُ فى نفسِها ، التى فى بَطْنِها جارِيَةٌ وتَتْبَعُها جارية[5] .

تفضيلهم الغريبة على القريبة

فى الحديث الشريف «اغْتَرِبُوا لا تُضْوُوا» وفيه أيضاً «لا تَنْكِحوا القرابةَ القريبة فإن الولدَ يُخْلَقُ ضاويا» .

«اغتربوا لا تضووا : أى تزوجوا فى البعاد الأنساب ، لا فى الأقارب ، لأن ولد الرجل من قرابته يجيء ضاوياً ، أى نحيفاً» .

---

(١) الكنائن جمع كنة بفتح الكاف وهى امرأة الابن أو الأخ .

(٢) البَرْزَة يريد التى تبرز للرجال ثقة برأيها وعفافها .

(٣) أى تُكثِرُ التطلع ثم تختبئ .

(٤) الدفق : مشى واسع ، والهَبَنْقَعَةُ : أن تتربع وتمدَّ إحدى رجليها فى تربعها .

(٥) هو فى هذا يضرب على نغمة جاهلية ، إذ كانوا إذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مُسْوَدًّا وهو كظيم ، وكانوا من ثَمَّ يئدون بناتهم .

ورووْا : أن عمر نظر إلى قوم من قريش صغار الأجسام ، فقال : إنكم قد أضْوَيْتم فانكحوا فى الغرائب[1].

« فى الغرائب تروى فى النزائع ، أى فى النساء الغرائب من عشيرتكم ، لأنها تُنْزَع من عشيرتها» .

وَقال ذو الرمة :

فَتًى لم تَلِدْهُ بنتُ عَمٍّ قريبـــةٌ
فيَضْوَى وقد يَضْوَى رَدِيدُ القرائب

«رديد : مردود» .

وَقال آخر :

أُنْذِرُ من كان بعيدَ الهَمِّ تزويجَ أولادِ بنـــات العَمِّ
فليس بناجٍ من ضَوًى وسُقْمِ

وَقال الأصمعى : بنات العم أصبر ، والغرائب أنْجَب ، وما ضَرَب رءوسَ الأبطال كابْن الأعجميّةِ ...

« أنجب » : أكثر إنجاباً ، كما قالوا : ما أولاه للمعروف » .

رغبة المرأة فى الزواج

زوج من عود خير من قعود :

كانَ ذو الإصْبَع العدْوانىُّ — واسْمُه حُرْثَان بنُ مُحَرِّث ، وإنَّما لُقِّبَ ذو الاصْبَع لأنَّ حَيَّةً لَسَعَتْ إصْبَعَه ، فقَطَعَها ، وكان أحد حُكام العرَب فى الجاهِلِيَّة ، وكانَ شاعراً — كان غيوراً ، وكانت له بناتٌ أرْبَعٌ ، وكانَ لا يُزَوِّجهُنَّ

غَيْرَةً ، فاستمع عليهنَّ يوماً وقد خَاوَنَ يتحدَّثْنَ ، فقالت قائلةٌ منهن : لِتقلْ كلُّ واحدةٍ منكُنَّ ما فى نفسِها ، ولْنَصْدُقْ جميعاً ، فقالت كُبراهُنَّ :

أَلاَ لَيْتَ زَوجِي مِن أُناسٍ ذَوِي غِنًى ... حَدِيثُ الشبابِ طيبُ النَّشْرِ واللِّذْكرِ
لَصوقٌ بأَكْنَادِ النِّساءِ كأَنه ... خَلِيقَةُ جانٍ ، لا ينام عَلَى وِتْرِ

فقُلْنَ لها : أَنتِ تُرِيدِينَ فَتى ليس مِن أَهْلِك ؛ وقالت الثانية :

أَلاَ لَيْتَهُ يُكْسَى الجَمالَ بَدِيئَةً ... لهُ جَفْنَةٌ تَشْقَى بها النِّيبُ والجُزْرُ
له حَسَكاتُ الدَّهرِ مِن غير كَبْرَةٍ ... تَشِينُ فَلا فانٍ ولا ضَرَعٌ غُمْرُ

فقُلْتُ لها : أَنت تُرِيدِين سيداً شريفاً . فقالت الثالثة :

أَلاَ هَلْ أَراها مَرَّةً وضَجِيعُها ... أَشَمُّ كَنَصْلِ السيفِ عَينُ المُهَنَّدِ
عليمٌ بأَدواءِ النِّساءِ وأَصلِه ... إذا ما انْتَمَى مِن سِرِّ أَهْلِي ومَحْتِدِ

فقُلْنَ لها : أَنتِ تُرِيدِينَ ابْنَ عَمٍّ لك فَدْ عَرَفْتِهِ ، وقُلْنَ للصُّغْرَى : ما تَقُولِين ؟ فقالت : لا أقول شيئاً ، فقُلْنَ لا نَدَعُكِ ، إنَّك اطَّلَعْتِ على أَسْرَارِنا وتَكْتُمِينَ سِرَّك ! فقالت : زَوجٌ من عُود خَيرٌ مِنْ قُعود . . . فَخُطِبْنَ ، فزَوَّجَهُنَّ جُمَعَ ، ثُمَّ أَمْهَلَهُنَّ حولا ، ثُمَّ زارَ الكُبرَى ، فقال لها : كيف رأيتِ زوجَك ؟ قالت : خيرَ زَوج ، يُكْرِمُ أَهْلَه ، ويَنْسَى فَضْلَه ، قال : فامالُكم ؟ قالت : الابل ، قال : وَما هي ؟ قالت . نَأْكُلُ لُحْمانَها مُزَعا وَنَشْرَبُ أَلبانَها جُرَعا ، وتَحْمِلُنا وضَعَفَتَنا مَعاً ، فقال : زَوجُ كريم ، ومالٌ عَمِيم ، ثُمَّ زارَ الثانية ، فقال لها : كيف رأيتِ زَوجَك ؟ قالت : يُكْرِمُ

الحليلة ، ويُقرِّبُ الوَسيلَة ، قال : فما مالُكُم ؟ قالت : البَقر ، قال : وما هى ؟ قالت : تألفُ الفِناء ، وتَملأُ الاناء ، وتُوَدِّكُ السِّقاء . ونِساءٌ مَعَ نِساء ، قال لها : رَضِيْتِ وحَظيتِ ، ثم زارَ الثالثة فقال لها : كيف رأيت زَوجَكِ ؟ فقالت : لا سَمْحٌ بَذِرٌ ، ولا بَخيلٌ حَكِرٌ ، قال : فما مالُكم ؟ قالت : المِعْزَى ، قال : وَما هى ؟ قالت : لا بأس بها : نُوَلِّدُها فُطُما ، ونَسْلُخُها أَدَماً ، لم نَبْغِ بها نَعَما ، فقال لها : جَذْوَةٌ مُغْنِية ، ثم زارَ الرابعة فقال لها : كيف رأيت زَوجَكِ ؟ فقالت : شَرّ زَوج ، يُكْرِمُ نَفْسَهُ ، ويُهِينُ عِرْسَه ، قال لها : فما مالُكم ؟ قالت : شرّ مال ، الضأن ، قال لها : وماهُنَّ ؟ قالت : جُوفٌ لا يَشْبَعْنَ ، وهِيمٌ لا يَنْقَعْنَ ، وصُمٌّ لا يَسْمَعْنَ ، وأمْرَ مُغْوٍ يَتْبَعْنَ ؟ فقال : أشْبَهَ امْرُؤٌ بعضَ بَزِّه . . . فأرسلها مثلا .

«قَولُ الكبرى : ذَوى غِنًى يُرْوَى ذَوِ عِدًى ومعناه أنْ يكونَ لهم أعداء لأنَّ مَن لا عدُوَّ له هو الفَسْلُ الرَّذْلُ الذى لا خير عنده ، أما الكريم الفاضل من الناس فهو المُحَسَّدُ المُعادَى . والنَّشرُ : ما انتشر من الرائحة الطيبة ، وقولها : لصوق بأكباد النساء كَنَّت بذلك عن شِدَّة محبتهن له وميلهنَّ إليه ، ومن المحتمل أن تكون أرادَت فى المضاجعة ، وقولها كأنَّه خليقَةُ جان أى كأنَّه حَيَّةٌ لِلُصُوقِهِ ، والجان : جنس من الحيَّات ؛ خفَّف لضرورة الشعر ، والوَتر — بفتح الواو وكسرها — الثأر ، وقول الثانية بديئةً فالبديئة أوَّل ما يَفجَؤُكَ منه كالبَدَاءةِ والبداهة ، ورواها المرتضى * يُكْسِ الجمالَ نَدِيُّه * وقال : الندىّ : المجلس ، والنَّيب جمع ناب وهى المُسنَّة من النوق ، والجزر جمع جزور : الناقة التى تنحر وإنما عطفت أحدهما على الآخر لأن من الإبل ما يكون للنحر لا غير ، وقولها : له حكمات الدهر من غير كَبْرَةٍ ، تقول له تجربة وحُنْكة من غير أن يكون كبيراً كَبْرَة تشينه ، يقال : عَلَتْه كَبْرَة مثل تَمْرَة إذا كبِر وأسَنَّ ، والفانى : الشيخ الهَرِم ،

والضَّرَع : الضعيف ، والغُمْر بضم الغين وفتحها — الذى لم يُجرِّبْ الأمور ؛ وقول الثالثة أشمُّ فالشَّمَمُ : ارتفاع أرنبة الأنف وَوُرودُها يقال : رجل أشمّ وامرأة شمّاء وقوم شُمّ ، قال حسّان :

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابهم شُمُّ الأنوف من الطِّراز الأول

الشَّمَم : الارتفاع فى كل شيء ، ويحتمل أن يكون حسان أراد بشُمّ الأنوف ماذكرنا من ورود الأرنبة لأذلك عندهم دليل العِتْق والنجابة ، ويجوز أن يريد بذلك الكناية عن نزاهتهم وتباعدهم عن دنايا الأمور وسَفْسَافِها ، وخَصّ الأنوف بذلك لأنّ الحميّة والغضب والأنَف يكون فيها ، وهذا أشْبَهُ أن يكونَ مراده لأنّهُ قال بيض الوجوه ولم يُرِدِ اللونَ فى الحقيقة وإنّما كنّى بذلك عن نقاءِ أعراضهم وجميل أخلاقهم وأفعالهم ، وما يقول القائل : جاءنى فلان بوَجْهٍ أبيضَ ، وقد بيَّضَ فلان وجهى إلاّ ويعنى ما ذكرنا ، وقول المرأة أشم كنصل السيف يحتمل الوجهين أيضاً ، وقول حسان من الطراز الأوّل أى أن أفعالهم هى أفعال آبائهم وسلفهم وأنّهم لم يُحْدِثوا أخلاقاً مذمومة لا تُشْبِهُ نجارهم وأصولهم ، وقولها : عَينُ المهنَّد أى هو المهند بعينه ، كما يقال : هذا بعينه ، وعين الشيء نفسه وتروى : غير المهند : أى ليس هو السيف المنسوب إلى الهند فى الحقيقة وإنما هو يُشْبِهُه فى مضائه ؛ وقولها : مِن سِرِّ أهلى أى من أكْرَمِهم وأخلَصِهم ، يقال : فلان من سرقومه أى فى صميمهم وشَرَفِهم ؛ والمَحتِد : الأصل ، وقول الكبرى : نأكل أحْمانها مُزَعافاللحمان جمع لحم كلُحُوم والْحُم ، ومُزعا جمع مُزعَة وهى القِطعَة ، والتمزيع : التقطيع والتشقيق ، ويقال : إنّهُ ليكاد يَتَمَزَّع من الغيظ ، والجرع جمع جرعة وهى الماء القليل يبقى فى الإناء وقوله : ومال عميم أى : كثير ، وقول الثانية : يُكْرِمُ الحليلة ويقرب الوسيلة فالحليلة : امرأة الرجل ، والوسيلة : كل ما يُتَقَرَّبُ به من عمل الخير ، وقولها : وتُوَدّك السّقاء : أى تجعل فيه الوَدَك ؛ وهو دَسم اللحم ودهنه الذى يستخرج منه ؛ وقول الثالثة : لا سَمْحٌ بذر فالبذِر : الذى يبذر ماله يبسط يده فيه كل البسط ، وهو وصف مُبالَغٌ فيه مثل حَكِر ، وهو الذى لا يزال يَحْبِسُ سلعتَه حتى يَبيعَ بالكثير من شِدّة حَكْرِه ، وقولها : تُوَلِّدها

فُطما ، فتُوَلِّدُها بتشديد اللام تريد معنى الكثرة ، مثل قولهم : نَتَجَ فلان إبله ، بتشديد التاء ، وفطما بضمتين جمع فطيم بمعنى مفطوم ، وهذا من قبيل مجاز الأوْلِ تريد الانتفاع بها ، والأدَم من الأديم وهو الجلد ، وقوله : جَذْوَةٌ مغنية ، يريد : قلّتها ، والجذوة فى الأصل : القطعة من الخشب فيها نار ، وقول الرابعة : يهين عرسه فالعرس : الزوجة ، وقولها : جوف لا يشبعن فالجوف جمع جوفاء وهى : العظيمة الجوف ، وقولها : هيم لا ينقعن فالهيم : العِطاشُ ، ولا ينقعْن : لا يَرْوَيْنَ ؛ وقولها : صُمٌّ لا يَسْمَعْنَ من طريف كلام العرب ، وذلك أنه يقال لكل صحيح البصر ولا يُعْمِلُ بَصرَه : أعْمى ، يراد أنّه قد حَلّ محل مَن لا يبصر ألبتةَ إذا لم يُعْمِل بَصرَه ، وكذلك يقال للسميع الذى لا يَقْبلُ : أصَم ، والعرب تقول : أبْلَدُ ما يُرْعى الضأنُ ، فقولها : وَأمْرَ مُغْوِيَتهِنّ يتبعن معناه أن القطيع من الضأن يَمُرُّ على قنطرة فتنزلُ واحِدَةٌ فتَقَعُ فى الماء ، فيقعْنَ كلُّهُن إتْباعاً لها ، فمن ثم توصف الضأن بالبلادَة أى قِلّةِ الذكاء ؛ وقوله : أشْبَهَ امرُؤٌ بعض بَزّه فهذا مثل يضْرَبُ للمُتشابِهِينَ أخلاقاً ، والبزُّ : متاع البيت من الثياب خاصةً ، كنى به عن الضأن ، وهى متاع» .

حديث بنت ملك اليمن والنسوة اللاتى أشَرْنَ عليها بالزواج وَوَصفْهُنَّ لها محاسِنَ الزوج

جاء في أمالى القالى ما يلى : حدثنا فلان ... عن ابن الكلبى عن أبيه قال : كانَ قَيْلٌ من أقيالِ حِمْيَر مُنِعَ الوَلَدَ دَهْرًا ، ثمَّ وُلِدَتْ له بِنتٌ ، فَبَنَى لها قَصْراً مُنِيفاً بَعيداً مِنَ الناس ، ووَكّلَ بها نساءً من بنات الأقيال يَخْدُمْنَها ويُؤَدِّبْنَها حتى بَلَغَتْ مبلَغ النِّساء ، فنشأت أحسنَ مَنْشأٍ وأتمَّهُ فى عقلها وكمالها فلما مات أبوها مَلَّكَها أهلُ مخلافها[1] فاصْطَنَعَتِ النِّسْوةَ اللواتى رَبَّيْنَها

(١) المخلاف : الكُورة ، والرُّستاق .

وأحسنت إليهن ، وكانت تُشاوِرُهُنَّ ولا تَقْطَعُ أمْرًا دونهنَّ . فقُلْنَ لها يوماً : يا بنتَ الكرام ، لو تزوَّجتِ لتَمَّ لكِ المُلْكُ ، فقالت : وما الزَّوْج ؟ فقالت إحداهنَّ : الزوج عِزٌّ فى الشدائد ، وفى الخُطوبِ مُساعِد ، إن غَضِبْتَ عطَفَ ، وإن مَرِضتِ لَطَفَ ، قالت نِعْمَ الشيءُ هذا ! فقالت الثانية : الزوجُ شِعَارِى حين أَصْرَدُ[1] ومُتَّكَئِى حين أَرْقُدُ ، وَأُنسِى حين أفْرُد ، فقالت : إن هذا لَمِنْ كمال طِيب العيش . فقالت الثالثة : الزوج لما عَنَانِى كاف ، وَلما شَفَّنِى شاف ، يَكْفِينى فقدَ الأُلاَّف ، ريقُه كالشَّهد ، وَعِنَافُهُ كالخُلْد ، لا يُمِلُّ قِرَانُهُ وَلا يُخَافُ حِرانُهُ ، فقالت : أَمْهِلْنَنِى أنظرْ فيما قُلْتُنَّ ، فاحْتَجَبَتْ عنهنَّ سَبْعاً ثم دَعَتهن فقالت : قد نظرت فيما قلتنَّ فوجَدْتُنِى أُمَلِّكُهُ رِقِّى ، وَأُبْثُهُ باطلى وحقِّى ، فإن كان محمودَ الخَلائق ، مأمونَ البَوائق ، فقد أدركتُ بُغْيَتِى ، وإن كان غيرَ ذلك فقد طالت شِقْوَتى ، على أنه لا ينبغى إلاَّ أن يكون كفْئًا كريماً يَسُودُ عَشِيرَتَه ، وَيَرُبُّ فَصِيلَتَه[2] ، لا أتقنَّعُ به عاراً فى حياتى ، ولا أرفعُ به شَنَاراً لقومى بعدَ وفاتى ، فعَلَيْكُنَّه فابْغِينَه وتفرَّقْنَ فى الأحْيَاء ، فَأَيَّتُكُنَّ أَتَتْنِى بما أُحِبُّ فلها أجزَلُ الحِباء[3] ، وعلىَّ لها الوفاء ، فخرجْنَ فيما وَجَّهْتُهُنَّ لَهُ ، وكنَّ بَنَاتِ مَقَاوِل ذواتِ عقل ورأى ، فجاءتها إحداهُنَّ وهى عَمْرَطَةُ بنت زَرعة بن ذى خَنْفَر فقالت . قد أَصَبْتُ البُغْيَة ، فقالت . صِفِيه ولا تُسَمِّيه . فقالت . غَيْثٌ فى المَحْلِ[4] ، ثِمَالٌ فى

---

(١) أصرد : أبْرَد .

(٢) يَرُبُّ : يجمع ويُصلح .

(٣) الحباء : العطاء .

(٤) المحل : الجَدْبُ ضد الخصب .

الأزْل[١] مُفيدٌ مُبيد[٢] ، يُصْلِحُ النَّائِر[٣] ، ويَنْعَشُ العَاثِر[٤] ، ويَغمرُ النَّدِيّ ، ويقتادُ الأبِيّ ، عِرْضُهُ وَافِر ، وَحَسَبُهُ باهر ، غَضُّ الشَّباب ، طاهر الأثواب . قالت : ومن هو ؟ قالت : سَبرة بن عَوَّال بن شَدَّاد بن الهَمَّال . ثم خلت بالثانية فقالت : أصبتِ مِن بُغْيتك شيئاً ؟ قالت : نعم ؛ قالت : صِفيه ولا تُسَمِّيه . قالت : مُصامِصُ النَّسَب[٥] ، كريم الحَسَب ، كامل الأدب ، غَزيرُ العطايا ، مألوف السَّجَايا ، مُقْتَبَلُ الشباب[٦] ، خِصْبُ الجَنَاب ، أمرُه ماض وعشيره راض . قالت : ومن هو ؟ قالت : يَعْلَى بن حَزَّال بن ذى جدَنٍ . ثم خلَتْ بالثالثة فقالت : ما عِندَكِ ؟ قالت : وجدْته كثير الفوائد ، عَظيم المرَافِد يُعْطي قبل السُّؤال ، ويُنيل قبل أن يُسْتَنال ، فى العشيرة معظَّم ، وفى النَّدِيّ مكرّم ، جمّ الفواضل ، كثير النوافِل ، بَذَّال أموال ، مُحَقِّقُ آمال ، كريم أعمام وأخوال ، قالت : ومن هُوَ ؟ قالت : رَوَاحَة بنُ خُمَيْر بن مضحى بن ذى هُلاَهِلَة ، فاختارت يَعْلَى بن هَزَّال فتزوَّجَتْه ، فاحتجبَتْ عن نسائها شهراً ثم

---

(١) الأزْل : الشدّة والضيق ، والثمال : الغِياث والمُطْعِمُ فى الشدّة ، قال أبو طالب يمدح سيدنا رسول الله :

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوَجْهِهِ ثِمَـــــالُ اليتامَى عِصْمَةٌ للأرامِلِ

(٢) تريد أنه يستفيد المال ويتكسّبُه ثم يبيده أى يجود به على مُعْتَفِيه أى أنه كسوب للمال معْطَاءٌ له .

(٣) تريد أنه يصلح ما بين المتشاحنين الذين بينهم نائرةٌ أى عداوة وبغضاء .

(٤) العاثر من عثر به الدهر ونكبه فهو ينعشه بالعطاء .

(٥) المصامص : الخالص وإنه لَمُصَامِصٌ فى قومه : إذا كان زاكى الحسب

(٦) مقتبل الشباب : مستقبلهُ لم يُرَ عليه أثر كِبَر .

بُرِّزَتْ لهن ، فأجزلَتْ لهن العِطاء ، وأعظَمَتْ لهنّ العَطاء .

منين النساء إلى الرجال :

وكانَ لِهَمّام بن مُرَّة[1] ثلاثُ بنات ، فعَنَّسَهُنَّ ، فقالت الكُبْرَى : أنا أكفيكموهُ اليومَ ، فقالت :

أَهَمَّامُ بنَ مُرَّةَ حَنَّ قلبي إلى قَنْفاءَ مُشْرِفَةِ القَذالِ

فقال هَمّام : قَنفاءَ مُشْرِفة القذال ! تَصِفُ فَرَسا ، فقالت الوُسْطَى : ما صَنَعْتِ شيئا ، وَقالت :

أَهَمَّامُ بنَ مُرَّةَ حَنّ قلبي إلى اللّاتي يَكُنّ مَعَ الرجالِ

فقال هَمّام : يكون مع الرجال الذَّهَبُ والفِضَّةُ ، فقالت الصُّغْرَى : ما صَنَعْتُما شيئاً وقالت :

أَهَمّامُ بنَ مُرّة حنّ قلبي إلَى عَرْدٍ أَسُدّ بِهِ مَبالِي

فقال همّام : قاتَلَكُنّ الله ! والله ، لا أمْسَيْتُ أوْ أُزَوّجَكنّ ، فزَوّجَهنّ . . .

«القنفاء : تريد الذَّكَر ، والقنفاء فى الأصل : الأذن الغليظة المسترخية فى الإنسان والشاة ، ويقال أَقْنَفَ الرجل : إذا أجمع أمره ، ومشرفة : مرتفعة ، والقذال : جِماعُ مؤخّر الرأس من الانسان والفرس ، وروى المبرد هذا العَجز * إلى صَلْعاءَ مشرفةِ القَذال * استعارَت القذال لما تُريد كما استعارت له الصلع ، وهو ذَهاب الشَّعَر ، وفى الكامل لمّا أنشدت هذا البيت قال همام : يا فجار ، أرَدْتِ بَيضةً حصينةً — ما يُلبَس فوق الرأس — » .

---

(١) هو هَمّامُ بن مُرة بن ذُهل بن شيبان ، شاعر قديم جاهلى .

واللأى مع الرجل : مَتَاعُه — أيْره وخصيتاه والعَرد : ذكر الإنسان وقيل : هو الذكر الصلْب الشديد وجمعه أعراد .

النِّساء شقائق الرجال .

* * *

وكان لرجل من العرب ثلاثُ بنات قَدْ عَضَلَهنّ ومَنَعَهنّ الأكفاء ، فقالت إحداهُنّ . إنْ أقامَ أبونا على هذا الرأى فارَقنا وَقَدْ ذَهَبَ حَظُّ الرِّجال مِنا ، فَينْبغِى لنا أنْ نَعْرِضَ له ما فى نُفوسِنا — وكانَ يَدْخُل على كلِّ واحِدَةٍ مِنْهُنّ يَوماً — فلمـــا دَخَل عَلَى الـكُبْرَى تحادَثَا ساعَةً ، فحينَ أرَادَ الانصراف أنْشَدَت .

أَيُعْذَلُ لاَهيناً ويُلْحَى عَلَى الصِّبَا ... وما نَحن والفِتيانُ إلاَّ شقائِقُ (١)

يَؤُبْنَ حَبيباتٍ مِراراً كثيرَةً ... وتنباقُ أَحْياناً بِهِنّ البَوائِقُ (٢)

فَلَمَّا سَمِعَ الشِّعْرَ ساءه ، ثمّ دَخَل على الوُسْطَى فتحادَثَا ، فلمّا أرادَ الانصراف أنشَدَت .

أَلاَ أيُّها الفِتيانُ إنَّ فتاتَـكُم ... دَهَاها سَماعُ العاشِقينَ فَحَنَّتِ

---

(١) يعذل : يلام ، ويلحى :

وقولها : وما نحن والفتيان إلا شقائق هو كالمثل «إن النساء شقائق الأقوام» وفى الحديث أن رسول الله قال : «إذا رأت المرأة الماءَ فلتغتسل ، فقالت أم سلمة : يارسول الله وهل للمرأة ماء ؟ قال : فأنّى يُشبِهُهُنَّ الولد ؟ إنما هن شقائق ، يعنى أن الرجل والمرأة كعَصَا ارفضَّت شِقَّتَين .

(٢) البوائق : الدواهى ويقال : انباقت عليهم بائقة شر أى انفتقت كما يخرج الصوت من البوق .

فَدُونَكُمُ ابْنُوهَا فَتًى غيرَ زُمَّلٍ وإلَّا صَبَتْ تِلْكَ الفَتَاةُ وَجُنَّتِ[1]

فَلَمَّا سَمِعَ شِعْرَهَا ساءه ، ثُمَّ دَخَلَ على الصُّغْرَى فى يَوْمِها فتحادثا ، فَلَمَّا أرادَ الانْصرافَ أَنْشَدَت :

أَمَا كانَ فى ثِنْتَيْنِ ما يزَعُ الفَتى وَيَعْقِلُ هذا الشَّيْخُ إن كانَ يَعْقِلُ

فما هُوَ إلا الحِلُّ أَوْ طَلَبُ الصِّبا ولا بُدَّ مِنه فَأْتَمِرِ كيفَ تَفْعَلُ

فَلَمَّا رأى تَواطُؤَهُنَّ على ذلك زوَّجَهُنَّ .

* * *

عجوز راغبة فى الزواج :

مَرِضَت عَجوزٌ ، فأتاها ابنُها بطبيب ، فرآها الطبيب مُتَزَيِّنَةً بأثْواب مَصبوغة ، فعَرَف مابها ، فقال الطبيبُ : ما أَحْوَجَها إلى زَوج ! فقال الابنُ وما حاجة العجائز للأَزْواج ! فقالت : ويحك ! الطبيبُ أَعْلَمُ منك على كُلِّ حال .

وقال حكيم لامْرَأةٍ تعرَّضَت له :

وضاحِكَةٍ إلَىَّ من النِّقاب تُلاحِظُنِى بِطَرْفٍ مُسْتَرَابِ

فما زالت تُجَمِّشُنِى طَويلا وتأخُذُ فى أحاديث التصابى[2]

فقلت لها حَلَلْتِ بِشَرِّ وَادٍ كَرِيهِ الجُتَنَى قحطِ الجناب

* * *

---

(١) الزُّمَّلُ : الفَسْل الرَّذل الضعيف الجبان .

(٢) التجميش : المغازلة .

وبعد ذلك بيت داعر ومعناه أن العجوز لا ينقع غُلَّتها عجوز مثلها ولكنَّ الشاب هو الذى يَشفيها .

احتيال المرأة فى التزويج من رجل :

كانَ لرَجُل ابْنَةٌ ، ولَها ابنُ عَمّ مَشغوفٌ بها ، وهو يَرجو أن يتزوَّج بها ، فجاءه رجل فأرغبه فى الصَّداق ، فقالت الفتاةُ لِأُمِّها : ما أحْسَبُ أَبى يُرَبّى ابن أخيه صغيراً ويقطعُه كبيراً ! فقالت الأمُّ : كانَ ذلك قدَراً مقدوراً فقالت الفتاة : أنَا حُبْلَى مِن ابْنِ عَمّى ، فقالت أمُّهـــا : ما تقولين وَيْحَكِ ؟ فقالت : أَتَكْذِبُ الحُرَّةُ على نفسها ! فأخبَرَت أباها ، فزَوَّجَها من ابنِ عَمِّها ، فلما وقع العَقد قالت الفتاة : بَرِئْتُ من الإسلام إن رأى وَجْهى إلى سنَةٍ ، لِيُعْلَمَ أنى مُتَقَوِّلَةٌ فيما ادّعيت . . .

أم خارجة وسرعة إجابتها إلى النكاح :

كانت أم خارجة البَجَلية امرأةً من العرب وكانت قد عُرِفَت بأنها تُجيبُ كُلَّ مَن خطبها إلى طَلِبَتِه ، حتى ضرَبوا بها المثل فقالوا : أَسْرَعُ مِن نِكاحِ أُمِّ خارِجة ، فكان الخاطِبُ يقوم على خِبائِهـــا فيقول : «خِطْب» فتقول «نِـكْح» فكانت قد وَلَدَت فى العرب فى نَيِّفٍ وعِشرين حيًّا مِن آباء مُتَفَرِّقين ، ونظَر بنوها يوماً إلى عَمْرو بن تميم قد وردَ بِلادَهم ، فَأَحَسُّوا بأنَّهُ أَرادَ أُمَّهُم ، فبادَروا إليه ليَمنَعُوه تَزَوُّجَها ، وسبَقَهُم ، لأنه كانَ راكِباً ؟ فقال لها : إنَّ فيكِ لَبَقِيَّةً ، فقالتْ : إنْ شِئْتَ ، فجاءوا وقد بَنى عليها ، ثُمَّ نقلَها بعدُ إلى بَلَدِه ، فتَزْعُمُ الرُّواةُ أنها جاءت بالعَنْبر معها صَغيراً — والعنبر هذا هو ابنها من رجل إسمه عمرو بن بهراء مِن قضاعة — وأولَدَها عَمْرُو بن

تميم أُسَيِّداً والهُجيمَ والقُلَيْبَ ، فخَرَجُوا ذاتَ يوم يَسْتَقُون ، فقَلَّ عليهم الماء ، فأنْزَلوا مائحاً مِن تَمِيم ، فجَعَلَ المائحُ يَمْلأُ الدَّلو إذا كانت لِلْهُجَيم وأُسَيِّد والقُلَيْب ، فإذا وَرَدَتْ دَلْوُ العنبر تَرَكها تضطرب فقال العَنبر :

قَدْ رَابَنِي مِن دَلْوِيَ اضْطِرَابُها والنَّأْيُ عَن بَهراء واغْتِرَابُها
إلاَّ تَجِئْ مَلْأى يَجِئْ قُرابُها

«النَّأْيُ عن بهراء يريد : والبُعْدُ عن قَومِه بنى بَهرَاء بن عَمْرو وقوله : قُرابها هو ما قارب قدر الشيء مثل القُرَابة ، يريد : يَجِئْ ما يقرب أنْ يَمْلأَها » .

* * *

وكان من عادة العرب فى الجاهلية أن المرأة منهم كانت إذا عَسُرَ عليها خاطب النكاح — الزواج — نشرت جانباً مِن شَعَرِها ، وكَحَلَتْ إحْدَى عينيها مخالِفَة للشَّعَر المنشور ، وحَجَلَت عَلَى إحْدى رِجْليها[1] ، ويكونُ ذلك ليلا ، وتقول : يا لَكاح ، ابغى النكاح ، قبل الصَّباح ، فيَسْهُل أمرُها وتتزوَّج عن قرب ، قال رجل لصديقه وقد رأى أمَّه تفعل ذلك .

أما تَرَى أُمَّك تَبْغِى بَعْلا قد نَشَرَت مِن شَعْرِها الأقَلاَّ
وَلَمْ تُوَف مُقْلَتَيْهَا كُحْلاَ ترفع رِجْلا وتَحُطُّ رِجْلا
هذا وقد شابَ بَنُوها أصلا وأصْبَحَ الأصْغَر منهم كهلا
خُذ القَطِيعَ ثُمَّ سُمْها ذُلاَّ ضرباً به تتركُ هذا الفِعْلا[2]

---

(١) الحجل : أن يرفع الانسان رجلا ويَقْفِزُ على الأخرى .

(٢) القطيع : السَّوط يقطع من جِلْدٍ سَيْرٌ ويُعْمَلُ منه .

وقال آخر :

تَصَنَّعِي ما شِئْتِ أن تَصَنَّعِي وكَحِّلِي عينيك أولاَ فَدَعِي
ثم أَحْجِلِي فى البيت أو فى المجمع مالكِ فى بَعْلٍ أرَى مِن مَطْمَعِ

وقال آخر :

قد كَحَلَتْ عيناً وأَعْفَتْ عينا وحَجَلَتْ ونَشَرَتْ قُرَيْنا[1]
تَظُنُّ زَيناً ما تراه شَيْنا

الغَيْرَةُ والتديُّث

الغيرة فى اللغة :

الغَيرَةُ — بفتح الغين — المَصْدَر من قولك : غارَ الرجل على أهله ، يقال : غارَ الرَّجُلُ على امرأتِه ، والمرأةُ على بعلها تَغار غَيرَةً وغَيْراً وغاراً وغياراً ، ورجل غَيران ، والجمع غَيـــارَى وغُيارَى ، ورَجُل غيورٌ وامرأةٌ غَيور — بلا هاء ، لأنَّ فعولا يشترك فيه الذكر والأنثى — والجمع فى الاثنين غُيُرٌ ، قال الامام الجوهرى : امرأةٌ غيور ونِسْوةٌ غُيُر ، وامرأةٌ غَيْرى ونُسوةٌ غيارَى . ويقال : أَغارَ الرجل أهلَه تَزَوَّجَ عليها فغارت ، ويقال : فُلانٌ لا يتغير على أهله : أى لا يغارُ ، والعرب تقول : أَغْيَرُ مِنَ الحُمَّى ، لأن الحُمَّى تلازم المحموم ملازَمَةَ الغَيورِ لبَعْلها .

والغيرةُ : الحَمِيَّة والأَنَفَة ، وقال بعضهم : هى مشتقَّةٌ مِن تَغَيُّرِ القلب وهيجان الغضب بسبب المشارَكة فيما به الاختصاص ، وأَشَدُّ ما يكون ذلك بين الزَّوجَين .

---

(١) قريناً تصغير قرن يريد شعر رأسها وصغره لقلَّته .

والغيرة محمودة : جَبَلَ الله عليها بَنِي آدَمَ وجميعَ الحيوان ، ولذلك تَرَى العَيْرَ — حمار الوحش — يقاتِلُ عن العانة — الأتان — كُلَّ فَحْلٍ يَعرِضُ لها ، غيرَ أن طباعَ الناس تختلف فيها ، فَمِنْ مُفْرِطٍ آخِذٍ بالظِّنَّةِ ، ومِن مُتغاضٍ مُخِلٍّ بالدين والمرُوءة ، وكلاَ الطرَفين ذميم ، وخيرُ الأمور أوساطها

مدح الغيرة :

فى الحديث الشريف (لا خَير فى مَن لا يَغار) .

وفيه (الغيرَةُ مِن الإيمان) :

وقال سعدُ بن عُبادَة : لو رأَيتُ رَجُلاً مع امرأتى لضَرَبْتُه بالسَّيفُ غيرَ مُصْفَح[1] ، فقال النبى (ص) أتَعجَبُونَ مِن غيرَة سعد ! لأنا أغْيَرُ منه واللهُ أَغْيَرُ مِنى) .

« غير مُصْفَح يريد : أنه يضربه بِحَدِّه لا بِعَرضه والذى يضرب بالحد إنما يقصد إلى القتل ، أما الذى يضرب بالعَرض فإنه يقصد التأديب ، أما غيرَةُ الله فقد جاء مغزاها فى حديث آخر (إنَّ الله يغارُ ، وغيرَة الله أنْ يأتى المؤمنُ ما حرَّم الله . هذا وحديث سعد مقتضَب ، والحديث كما وردَ فى أكثر الرّوايات هكذا لَمَّا نَزَلت هذه الآية والذين يرْمون المحصنات ... الآية قال سعد : أهكذا أنزلت ! فلو وَجَدْتُ لكاع مُتَفَخِّذَها رَجلٌ لم يكن لى أنْ أُحرِّكَهُ أو أهيجَه حتى آتى بأربعةِ شُهَداء ! فوالله لا آتى بأربعة شهداء حتى يقضِيَ حاجته ! فقال رسول (ص) يا مَعْشَرَ الأنصار ، ألا تسمعون ما يقول سيدكم ! قالوا : يا رسول الله ، لا تَلُمْهُ فانَّه رجل غيور ، والله ، ما تَزَوَّج امرأةً قطُّ

---

(١) غير مصفح : أى غير مائل عَرضاً .

إلا عذراءَ ، ولا طَلّق امرأةً فاجترأ رَجلٌ منا أن يتزوّجها من شدّة غيرته ، فقال رسول الله (أتعجبون من غيرة سعد . . . الخ فقال سعد : والله إنى لأعلم يا رسول الله إنها لحق وإنها من عند الله ، ولـكنى عجبت» .

* * *

وقَبْل أنْ تَمْضِيَ فى إيراد سائر عبقرياتهم فى الغيرة نذكر هنا لمناسبة حديث سعد حُـكْمَ الله فيمن يرى مع امرأته رجلا فى فراشها ، قال الله عَزّ وتَقَدَّس (والذين يَرْمُونَ أَزْواجَهُم ولم يَـكُنْ لهم شُهَداء إلاأنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أحدِهِم أربعُ شهادات بالله إنَّهُ لَمِنَ الصادقين ، والخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ الله عليه إن كانَ لَمنَ الـكاذِبين ، وَيَدْرَأُ عنها العَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَع شهادات بالله إنَّه لَمِنَ الـكاذِبين ، والخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ الله عليها إن كانَ من الصادِقين) .

« أقول : وهذه المسألة يُقال لهـــا : اللِّعَان[1] ، قال صاحبُ اللسان : والملاعَنة بين الزوجَين إذا قَذَف الرَّجُل امرأتَه ، أو رماها برجُل أنَّه زَنى بها فالإمامُ يُلاعِنُ بينهما ، ويَبْدَأُ بالرجل ويَقِفُهُ حتى يقول : أشهد بالله إنَّها زَنَت بِفلان وإنَّه لصادق فيما رَماها به ، فإذا قال ذلك أربعَ مَرَّاتٍ قال فى الخامِسَة : وعليه لَعْنَةُ الله إن كانَ من الـكاذِبينَ فيما رَماها بِهِ ، ثُمَّ تُقام المرأة ، فتقول أيضاً أربعَ مَرَّاتٍ : أَشْهَدُ بالله إنَّه لَمِنَ الـكاذبين فيما رَمانى به مِن الزنا ، ثُمَّ تقول فى الخامسة : وعَلَيَّ غَضَبُ الله إن كانَ مِن الصادقين ، فإذا فَرَغَتْ مِن ذلك بانَتْ منه — انفصَلَت — ولَمْ تَحِلَّ له أَبَداً ، وإن كانت حاملا فجاءت بِوَلد فهُو وَلَدُها ، ولا يُلْحَقُ بالزَّوج ، لأنَّ السُّنَّةَ نَفَتْه عنه ، أقول : ثُمَّ إنَّها

---

(١) وقد عقد لها الفقهاء باباً فى كتب الفقه الاسلامى .

تَرِثُهُ ويَرِثُ منها ما فَرَضَ الله له ، قال صاحب اللسان : سُمِّي ذلك كلُّهُ لِعانًا لقول الزَّوج : عليه لعنةُ الله إن كانَ مِن الكاذِبين . وقَولِ المرأة : عليها غَضَبُ الله إنْ كانَ من الصادقين . . .

وجاء فى صحيح البخارى ما يلى (أَنَّ عُوَيْمِرًا أَتَى عَاصِمَ بن عَدِيٍّ — وكان سَيِّدَ بَنِى عَجلانَ — فقالَ : كيف تقولون فى رَجلٍ وَجَدَ مع امرأتِه رَجلاً أَيَقْتُلُه فَتَقْتُلُوه ؟ أَمْ كيف يصنع ؟ سَلْ رسول الله (ص) عن ذلك ، فأَتَى عاصِمٌ النبى (ص) وسأله ، فَكَرِهَ رسولُ الله المَسائِلَ وعابَها[1] حتَّى كَبُر عَلَى عاصِمٍ ما سَمع من رسول الله (ص) فلما رجع عاصم إلى أهله جاءه عُوَيمر فقال : يا عاصم ، ما ذا قال لك رسولُ (ص) ؟ فقال عاصم لِعُوَيمر : لَمْ تأتنى بخَير ، قَدْ كره رسولُ الله (ص) المسألَةَ التى سألتُه عنها ، فقال عُوَيمر : والله ، لا أنتهى حتى أسألَهُ عنها ، فأقبل عُوَيمر حتى جاء رسول الله وَسْط الناس ، فقال : يا رَسول الله ، أرأيت رَجُلاً وَجَد مع امرأتِه رَجُلاً ، أيقتُلُه فتقتلوه أم كيف يصنع ؟ فقال رسول الله (ص) : قد أنزل الله فيك وفى حاجتك ، فاذْهَبْ فأْتِ بها ، فأمرَهما رسول الله باللاعنة ، فتلا عَنا ، ثم قال : يا رسول الله إن حبَستُها فقد ظلمتُها ، فطلَّقها. فكانت سُنَّةً لمن كان بَعدهما فى المتلاعِنَيْن ، ثم قال رسول الله : انظروا ، فإنْ جاءت بِهِ أَسْحَم أَدْعَجَ العينَيْنِ ، عظيم

---

(١) كان رسول الله يكره من المسائل ما كان فيه هَتْكُ ستر أو إشاعة فاحشة ، وكان يحب التيسير على أمته هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت المسائل فيما لم ينزل فيه حكم زمن نزول الوحى غير مرغوب فيهـا لئلا ينزل الوحى بالتحريم فيما لم يكن قبل ذلك محرماً . . .

الأليتين ، خدلج[1] الساقين فلا أحسب عويمراً إلا قد صدق عليها ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرة[2] فلا أحسب عويمراً إلا قد كذب عليها ، فجاءت به على النعت الذى نعت به رسول الله من تصديق عويمر ، فكان بعده ينسب إلى أمه » .

« أحيمر : (أحمر) ، وأسحم (أسود) » .

وفى الحديث (الغيرة غيرتان ، فغيرة يحبها الله . وغيرة يكرهها قلنا : يا رسول الله ، ماالغيرة التى يحبها الله ؟ قال « يغار أن تؤتى معاصيه وتنتهك محارمه » ومن هذه المعاصى طبعاً أن تقدم الزوجة على ما يغير الزوج ، فإذا غار كانت غيرته مما يحبه الله ، قلنا فما الغيرة التى يكرهها الله ؟ قال « أن يغار أحدكم فى غير كنهه » .

«ومعنى ذلك ظهور أثر الغيرة من غير سبب يوجب ذلك ، اللهم إلا سوء الظن بالمرأة ، وهذا هو معنى قول بعض العلماء : الغيرة غيرتان : غيرة يصلح بها الرجل أهله وغيرة تدخله النار» .

وقال الغزالى : ومن ذلك — أى من آداب المعاشرة بين الزوجين — الاعتدال فى الغيرة ، وهو ألا يتغافل عن مبادى الأمور التى تخشى غوائلها ، ولا يبالغ فى إساءة الظن والتعنت والتجسس على البواطن من غير ريبة ، فقد نهى رسول (ص) عن تتبع عورات النساء وقال : إن الله يبغض الغيرة من غير ريبة ، لأن ذلك من سوء الظن الذى نهينا عنه فإن بعض الظن إثم .

ولما قدم رسول الله (ص) من سفرة قال قبل دخول المدينة : لا تطرقوا النساء ليلاً ، فخالفه رجلان فسبقا فرأى كل واحد فى منزله ما يكره قال :

---

(١) خدلج = ممتلئ الساقين (٢) الوحرة = الوزغة

وأمَّا الغيرة فى محلها فلا بُدَّ منها كما أسلفْنا ، وكان الحسنُ البَصرِيُّ يقول : أتَدْعُونَ نِساءَكم يزاحِمْنَ العُلُوجَ فى الأسْواقِ ! قبَّحَ اللهُ مَنْ لا يَغار ، إلى أن قال : والطريقُ هو ألاَّ يَدْخُلَ عليهـــا الرجالُ ، وألاَّ تخرجَ هِىَ إلى الأسواق وقد قال رسول الله لابنته فاطمة : أىُّ شىء خيرٌ للمرأة ؟ قالت : ألاَّ ترى رجُلاً . ولا يراها رجل ، فضمَّها إليه وقال : ذُرِّيَّة بَعْضها مِنْ بَعْض ، فاستَحْسَنَ قولَها ، وكان أصحاب رسول الله يَسُدُّون الكُوَى والثُّقُوبَ فى الحيطان لِئلاَّ تَطَّلِعَ النِّساء إلى الرجال . ورأى مُعاذ امرأتَه قد دفعَتْ إلى غلامه تُفَّاحَةً قد أكلَتْ منها ، فضربَها ، وكان رسول الله قد أذِنَ للنِّساء فى فى حضور المَسْجِد ، والصَّوابُ الآنَ المنْع . إلاَّ العَجَائز ، بل استُصْوِبَ ذلك فى زَمَنِ الصَّحابة حتى قالت عائشة : لَوْ علِمَ النبىّ ما أحدثَتْ النِّساء بعدَهُ لمنَعَهُنَّ مِنَ الخروج . وكذلك كان رسول الله قد أذِنَ لهُنَّ فى الأعْيادِ خاصَّةً أنْ يخرُجْنَ . ولـكنْ بِشَرْطِ رِضا أزْواجِهِنَّ ، والخروجُ الآنَ مُباحٌ للمرأة العَفِيفَة برِضا زَوْجها ، ولـكنَّ القُعُودَ أسْلَم ، وينبغى ألاَّ تخرجَ إلاَّ لِمُهِمٍّ ، فإنَّ الخروج للنَّظّارَة والأمورِ التى ليست مُهِمَّة تقدَحُ فى المُرُوءة وَرُبَّما تُفْضِى إلى الفسادِ ! فإذا خرجَتْ فينبغى أنْ تغُضَّ .

بصرها عن الرجال :

* * *

وكانت امرأة بنيْسابورَ قد حملت زوجها إلى القاضى ، تَدَّعِى عليه خمسمائة دِينار ، فأنكر الرجل ! فاستدعى القاضى منها إحضار الشهود ، فأحضرتهم ، فقالوا : حتى تَكْشِفَ عن وَجْهِها ثم نَشْهد . فهَمَّت أن تُسْفِرَ

عن وجهها ، فصاح الرجل وأدركته الغيرة وقال : أتتم تريدون أن تنظروا إلى وجه زوجتى ! أيها القاضى ، أشهد أن لها حقاً علىّ واجباً ستمائة دينار ، فتعجب القاضى والحاضرون من حميّته وغيرته ، فقالت المرأة : أيها القاضى أشهدك أنى بريئة من حقى وأنى قد أحللته من ذلك ! فتعجبوا غاية العجب ، ثم قال القاضى : اكتبوه وضعوه فى باب الفتوّة . . .

«الفتوّة يريدون بها مجموع صفات حميدة من الكرم — ضد اللؤم — والسخاء والنجدة والحميّة والأنفة والغيرة وتحمل المشاق فى سبيل الغير» .

وكان عبد الملك بن مروان إذا كان له خصيٌّ وضيء أمر أن يُحجَبَ عن نسائه ، وقال : هو رجل وإن قُطِعَ منه ما قُطِعَ ، وربما اجترأت امرأةُ بمثلها وللعين حظها . . .

* * *

وكان لهشام بن عبد الملك خصيٌّ يقال له : خالد وكان وضيئاً تأخذه العين مديدَ القامة ، ناعماً أبيض ، فأمر هشام مَسْلَمَةَ بن عبد الملك بالغُدُوّ عليه ، فغدا ، فقيل : استأذِنَ لأخى أمير المؤمنين عليه ، فاستخفّ — أى الخصى — وقال كلمة سمعها مسلمة ، فحقدها عليه ، فلما دخل مسلمة إلى هشام لم يزل يذاكره شيئاً ، ويُشيرُ عليه حتى حطّ عن فُرُشِه وجلسا على البساط ومسلمة فى ذلك يَرْمُقُ الخصى متى يمر به ، فلم يلبث أن مر بعمامة وَشْيٍ ، فقال مسلمة يا أمير المؤمنين ، أى فتيانِنا هذا ؟ قال : غفر الله لك يا أبا سعد ، هذا خالد الخصى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لَضَمَّةٌ من هذا خير من مجامعة رجل ، فقلق هشام وجعل يتضوّرُ حتى قام مَسْلَمة ، ثم أمر بالخصىّ فأُخرِجَ من الرُّصافة ،

فاتصل ببعض بنيه ، فكتب إليه هِشامٌ : إنى نَحَّيْتُه لِما بلغك ، فجفاه ، فَلَحِقَ الحُصِيُّ بالثَّغْرِ . . .

* * *

وَقَالُوا : كلُّ حبٍّ بلاَ غَيْرَةٍ فَهوَ حبٌّ كاذِبٌ

وَقَالَ قَيْسُ بنُ زُهَير — شاعر فارس جاهلى — لما تزوج فى غير قومِه ، لامرأته : أنا غَيورٌ هَجُورٌ أنِفٌ ، ولكنِّى لا آنَف حتى أُضامَ ، ولا أفْخَرُ حَتَّى أُفاخَر ، ولا أَغارُ حَتى أرى .

« قوله : حتى أرى إنما عَنى رؤيةَ الأَمارة وشواهد الحال ، لا رؤية الموافقة ودخولِ المِرْوَدْ فى المكحلة [1] » .

وَقَال على بن أَبى طالب : غَيْرةُ المرأة كُفْرٌ ، وغَيْرة الرجل إيمان ، « وإنما عَدَّ غيرةَ المرأةِ كُفْرًا لأنها تحرِّمُ على الرجل ما أَحلَّ اللهُ من زواج متعدِّدَات ، وأما غيْرة الرجل فتحريمٌ لما حرَّمَهُ اللهُ ، وهو الزنا .

وَقَال سهل بن هارون : ثلاثة من المجانين وإن كانوا عُقَلاَء : الغَيْران والغضبان والسَّكران ، وكان الخَلِيعُ الشاعرُ حاضِرًا فقال : والمُنْعِظُ ، وضحِكَ ، وَأنشأ يقول إذ ذاك :

وما شر الثلاثة أمَّ عَمْرٍو بصاحِبِكِ الذى لاَ تَصْبَحِينَا

وَقَالوا :

إن الكريمَةَ ربَّما أزْرَى بِها لينُ الحِجَابِ وضَعْفُ مَنْ لاَ يَحْزُمُ

---

(١) المرود : الميل — ما يجعل به الكحل فى العين ، والمكحلة : التى فيها الكُحْل ، وهو أحد ما جاء على الفعل فى الأدوات .

وكذاكَ حوضُكَ إنْ أضعْتَ فإنه يُوطَأُ ويُشرَبُ ماؤه وَيَهَدَّمُ

مدح ترك الإفراط في الغَيْرة :

قال معاوية رضى الله عنه : من السُّؤدَد الصَّلَع ، واندحاقُ البطن . وترك الإفراط فى الغَيْرة .

« اندحاق البطن : سعتها » ، « وانظر قولهم فى الصَّلَع » .

وكان المأمون يقول : الغَيْرة بهميَّة «يريد الإفراط فيها» .

وقال أيضاً : هى ضرب من البُخْل .

وقال مسكين الدارمى . وقيل القائل أبو يعقوب الخُزَيْمِي :

ما أحْسَنَ الغَيْرَة فى حِينها وأقبَحَ الغَيْرَةَ فى كلِّ حِينْ

مَنْ لَمْ يَزَلْ مُتَّهِماً عِرْسَهُ مُتَّبِعاً فيهـا لِقَوْلِ الظَّنُونْ[1]

يُوشِكُ أن يُغْرِيَهـا بالذى يَخَافُ أن يُبرِزَها للعيونْ

حَسْبُكَ مِن تَحصِينِهـا ضَمُّها منك إلى عِرضٍ صحيحٍ ودِينْ

لا تَظْلِمَنْ منك على ريبَـةٍ فَيَتْبَعَ المقرونُ حَبْلَ القَرِينْ[2]

قال بعضهم : ما أراهُ إلاَّ وكان يقول بالإباحة . وإلا فلم يُجَوِّزْ ما يأنَفُ منه الأحرار .

---

(١) عرسه : زوجته ، والظنُونُ : السَّيِّئُ الظن ومن لا يوثق بخبره ويروى هذا العجز : (متَّبِعاً فيها لوهْمِ الظُّنونْ) ، وهو واضح .

(٢) ما أجمل هذا البيت والذى قبله يقول : إذا أردت تحصين امرأتك فَحَصِّنْ نفسك وإلا كنت قُدْوَةً سيئة لها .

وَكانَ مِسكينٌ كثيرَ اللَّهج بالقول فى هذا المعنى ، فمن ذلك قوله :

أَلاَ أَيُّهـــا الغائرُ المُسْتَشِيطُ ... عَـــلاَمَ تَغَارُ إذَا لَمْ تُغَرْ
فَمَا خَـــيرُ عِرْسٍ إذا خِفْتَهَا ... وما خَـــيْرُ بيت إذا لم يُزَرْ
تَغَارُ على الناسِ أَنْ ينظُروا ... وهل يَفْتِنُ الصالحاتِ النَّظَرْ
فَإِنِّى سأُخْلِى لهـــا بَيْتَها ... فتحفَظُ لى نفسَها أَوْ تَذَرْ
إذَا اللهُ لَمْ يُعْطِهِ وُدَّها ... فَلَنْ يُعْطِيَ الوُدَّ سَوْطٌ حُمَرْ
وَمَنْ ذَا يُرَاعِى له عِرْسَهُ ... إذا ضَمَّهُ والمِطِىَّ السَّفَرْ

مغالاة بعض الناس في الغَيرة :

قَال بعضهم : لأَنْ يَرَى امرأتِى ألفُ رجُلٍ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ أَنْ تَرَى امرأتى رَجُلاً واحِداً .

وَحجَّ بعضهم بامرأتِه ، فنظر إلى الناسِ يوم التَّرْوِيَةِ ، فهالَهُ كَثْرَتُهم ، فقال : إنَّ رجلاً يُدْخِلُ امرأتَه وسْطَ هؤلاء لمجنون ، وضرَبَ وَجْهَ راحِلَتِه وَعَادَ ولم يَحُجَّ . . .

وَحَدَّثَ أبو عبيدة قَال : تَزَوَّجَ رَجُلٌ من بَنِى عامر بن صَعْصَعَةَ امرأةً من قومِه ، فخرَجَ فى بَعضِ أسفارِه ثم قَدِمَ وقد ولدت امرأتُه — وكانَ خَلَّفها حامِلاً ، فنَظَر إلى ابنِه فإِذَا هو أَحْمَرُ غَضَبٌ[1] أَزَبُّ الحاجِبَيْنِ[2] ، فَدَعاها وانْتَضَّ السيفَ وأنشأ يقول :

لا تَمْشُطِى رأسِى ولا تَفْلِينِى ... وحاذِرِى ذَا الرِّيقِ فى يَمِينِى[3]

(١) أحمر غضب : شديد الحمرة .
(٢) أزبّ الحاجبين « كثير الشَّعْر فيهما » .
(٣) ذو الريق : السيف ، يُقَال له ذلك لكثرة مائه وبريقه .

واقْتَرِبِي دونَكِ أَخْبِرِينِي ما شَأْنُهُ أَحْمَرَ كالهَجِينِ
خالَفَ أَلوانَ بَنِيَّ الجُونِ ؟

فقالت تُجيبُه :

إنَّ له مِن قَـــلى أَجْدادا بِيضَ الوُجوهِ كَرَماً أَنْجادَا
ما ضرَّهُمْ إنَ حَضَرُوا أَمْجادا أو كافَحُوا يومَ الوَغَى الأَندادَا
أَلاَّ يَكونَ لَونهم سَوَادَا

ومن الغيرة السخيفة محاولة الرجل ألاَّ تتزوج امرأته بعده :

وقد تنتهى الغيرة بالرجل إلى أن يوصى المرأة عند وفاته ألاَّ تَنكِح أحداً بعده ، أو لا تَنكِحَ فلاناً بعينه ، ويحلفها على ذلك ، وربما يحلف فلاناً على ألاَّ ينكحها ، وهذا عَمْرَكَ اللهَ غايَةٌ فى الحمق والسخف ، فقد يكون هذا إغراء لها بنكاحه ومنبهة لكل واحدٍ منهما على الفكرة فى أمر صاحبه .

كانَ الهادى بنُ المهدى العباسى وأخو هارونُ الرشيد قد اشترَى أَمَتَهُ أَمَةَ العزيز ، وهى التى تسمى غادر ، بمـــائة ألف دينار ، ويقال : إنَّ الربيعَ أَهْداها إليه ، ولم يكن فى زَمانِها أَجْمَل منها ولا أَحْسَنُ غِناء ، ولا أَجْمَعُ لِكُلِّ فَنٍّ يحتاجُ إليه مِن مِثلِها ، وكانَ الرشيدُ يهواها ويكتُم ذلك ، وكانَ الهادى يُنَوِّمُها فى حِجْرِه ، ولا يُوقِظُها حتى تَنْتَبِهَ مِن نَوْمِها ، لِشِدَّةِ مُحَبَّتِه إياها ، وَبينما الهادِى ذاتَ يَوم جالِسٌ معها إذِ استُؤْذِن عليه لأخيه هارونَ ، فأَسْرَعَت إلى بعضِ المَواضعِ القريبَةِ ، وأسرعَت فى مَشْيِها ، ودَخَلَ الرشيدُ على أَخيه الهادى ، فَسَلَّم عليه وجلَس بين يَدَيه ، فقال له الهادى : يا هارون ،

قد حدَّثتْنى نفسى بشىء ، وهو يجول فى فِكرى ، وقد تنغَّصَ له عيشى ، قال له : وما هو يا أميرَ المؤمنين ؟ لا نغَّصَ الله لك عيشاً ، فقال الهـــادى : يا هارونُ ، إنَّه وَقَع فى خَلَدِى أنِّى أمُوتُ قريباً وأنت تتزوَّجُ امرأتى أمَةَ العَزيزِ من بَعدى !

فقال الرشيد : بَل الله يجْعَلُنى فِداءك ويُقَدِّمُنى قبلك ، يا أميرَ المؤمنين لا يخطرُ لك هذا على بال ، فَبِئْسَ الظنُّ هذا ، ولا أسمَعنى الله فيك سوءا ولا أفْجَعَنى فيك ، فقال الهادِى : دَعْنى من هذا ، فهو ما أخبَرْتُكَ ، فقال له الرشيد : وما الذى يُزِيلُ هذا مِن قلبك ؟ فقال له : الأيمانُ والعُهودُ والمَواثِيقُ ، فأعطاه ما أرادَ من الطلاق والحَجّ ماشيا والعِتق والصَّدَقة وكُلِّ يمين مؤكَّدة ، فكان الهادى قد سكن ما به لذلك ، ثم لم يَلْبَثْ الهادى إلا أياماً قلائلَ حتى مات ، فأرسل إليها الرشيد مِن ساعتِه يُعَرِّضُ لها بالخطبة ، فأذكرَته ما كانَ قد حلف به ، فقال لها : ما أهْوَنَ ذلك ! أحجّ ، وأُطَلِّق ، وأتصدَّق ، وأعتِقُ ، فطلَّقَ زُبَيدةَ طلقةً انعزل بها عنها ، وأعْتَقَ حُسيناً ومَسرورا الخادمين ، وتصدق بمائة ألف دينار ، وحجّ فى تلك السنة ماشياً ، وكانت تفرش له اللبود ميلا بعد ميل ، فيقال : إنّه خَرجَ فى أول الحول فوصل فى آخره ، وتَزَوَّج أمَةَ العزيز لمَّا قضى حجتَه ، فأقامت عنده يسيراً ، فبينما هو ذات ليلة وَهى نائمةٌ وَرأسُها في حِجْره إذ انتبهت فزِعَةً مَرعوبة مذعورة ، فاستخبرها عن شأنها ! فقالت : يا أمير المُؤمنين ، رأيت الهادى أخاك وَقد دخل ، فأخَذَ بعضادَتى الباب وَتأوَّه وَأنشأ يقول :

أخلَفْتِ وَعْدى بَعدَ ما جاوَرْتُ سُكانَ القابر

وَحَلَفْتِ لى وحَنَثْتِ فى أيمانِكِ الكذب الفواجر
وَنَكَحْتِ غَادِرَةً أخى صَدَق الذى سَمَّاكِ غَادِر
لا يَهْنِك الإلْفُ الجـــد يدُ وَلا تَخَطَّتْكِ الدَّوَائر

فأقامت بعد هذا كله عاماً وَقيل : شهراً ، وقيل : جمعة ، وَماتت . . .

* * *

وكانت فاطِمَةُ بنتُ الحُسَين بن على رضى الله عنهما — وهي أخت السيدة سُكَينة — عند الحسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم ، وكانَ مُحِبًّا لها ، فلما احْتُضِرَ قَال لها : إنكِ امرأةٌ مَرغوبٌ فيك ، وكأنى بعبد الله بن عَمْرو بن عثمانَ بن عَفَّانَ قد جاء خَلْفَ جنازتى على فرسٍ مُرَجَّلا شعَره لابساً جُبَّتَهُ يسير فى جانب النـــاس مُتَعَرِّضاً لك ، فانكِحِي مَن شِئْتِ غيرَه ، فإنِّى لا أدَعُ من الدُّنيا ورائى همًّا غيرَك ، وَحَلَّفَهَا بالأيمانِ المغلظةِ ، من العتق وَالصدقة على ذلك ، فلما مات الحسنُ جَرَى الأمرُ على ما وَصفَه قبل وَفاتِه ، وكان يقال لعبد الله بن عَمْرو بن عثمان : «المطرف» لحسنه وَجمَالِه ، فرآها حاسِرَةً وَهى تَضرِب وَجْهها ، فأرسلَ إليها : ألاَّ تَضْرِبى وَجهَكِ فإنَّ بنا إليه حاجة ، فارفُقى به ، فاسترخت يداها وَعُرف ذلك منها ، ثمَّ عَوَّضَها مكانَ كلِّ مملوكٍ حلفت به مملوكين ، وَمكانَ كُلِّ شىء شيئين ، ثم تزوَّجَها ، فولدت له الديباجَ مُحمَّد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وَهو الذى قتله أبو جعفر المنصور ، وكانت وَفاتها هى وَأُختُها سُكَينة فى عامٍ واحد . . .

* * *

وَمات زَوجُ امرأةٍ ، فراسَلَها فى ذلك اليوم رَجُلٌ يخطُبُها ، فقالت :

هَلاَّ سبَقْتَ ! فإنِّى قد قاولتُ غيرك ! فقال : إذا مات الثانى فلا تفوتينى !

وأسخف من ذلك أنْ تشترط الزَّوجَةُ على زَوجها ألاَّ يتزوج بعد موتها :

ماتت امرأةٌ لرجل ، وكانَ عاهدها ألاَّ يتزوَّجَ بعدها ، فخطَبَ امرأةً في جنازَتها ، فعُوتِب فى ذلك ، فقال :

خَطَبْتُ كما لو كنت قد مُتُّ قبلها ... لكانت بلا شَكٍّ لأوَّلِ خاطِبِ

إذا غابَ بَعلٌ جاء بَعـــلٌ مكانهُ ... ولا بُدَّ مِن آتٍ وآخرَ ذاهبِ

وَمِن النِّساء مَن لا تَتزوَّجُ بعد زوجها :

فمنهن نائِلَةُ بنت الفَرافصة زوج عثمان بن عفَّان رضى الله عنهما «انظر خبرها فى الشباب والشَّيب» .

وَتزوَّج رَجُلٌ بابْنَةِ عَمٍّ له يقال لها « رَباب » وَتعاهدا على ألاَّ يتزوَّجَ أَحَدُهما بعد مَوت الآخر ؛ فمات الرجل ، وأُكْرِهَتِ المرأةُ على التزويج ، فلمَّا كانت ليلةُ الزِّفاف رأَت فى مَنامِها أَنَّ ابنَ عَمِّها آخِذٌ بِعَضادَتَى الباب وَأنشد :

حَيَّيْتُ سُكَّانَ هذا البيت كُلَّهُمُ ... إلاَّ الرَّباب فإنِّى لا أُحَيِّيهـــا

أَمْسَتْ عَروساً وَأَمْسَى منزلى خَرِباً ... وَلم تُراعِ حُقوقاً كُنتُ أُرْعِيها (١)

---

(١) قوله كنت أرْعيها إما قلت أرعِيها من الإرعاء وهو الإبقاء أى كنت أُبقِى عليها وأشفق ، وفى الحديث (نِساءُ قُرَيش خيرُ نِساءٍ ، أحْنَاهُ على طفلٍ فى صغره ، وأرعاه على زَوج فى ذات يده) هو من المراعاة : الحفظ والرفق وتخفيف الكُلف والأثقال عنه ، وذات يده كنايةٌ عما يملك من مال وغيره . . . وإمَّا قلت كنت أرعيها أى أرعيها إياها يقال : أرعاه الشىء واسترعاه : أى استحفظه ، فرعاه . . .

فانتبهت مذعورة وحلفت ألا يجمع رأسها ورأس رجل وسادة . . .

* * *

وكان شيرويه لما قتل أباه كسرى أراد أن يتزوج شيرين امرأة أبيه ، فقالت له : على ثلاث شرائط : أن تحضر الحكماء فأخطئهم فى معاونتهم إياك على قتل أبيك ، حتى لا يجرءوا على مثله فيك ، وأن تستحضر لى نساء العظماء لأشتفى بالبكاء عليه ، وأن تأذن لى فى حضور المكان الذى مات فيه مرة ، فقال كل ذلك لك ، فلما خطأتهم وبكت عليه وحضرت المكان الذى مات فيه أخرجت فصا مسموما ، فمصته ، فماتت مكانها ، وكانت قد عمدت إلى سم فوضعته فى بعض الخزائن ، وكتبت عليه : إن من تناول منه وزن دانق أعانه على الجماع ، فلما ظفر به تناول منه ، فمات فى مكانه ...

* * *

غيرة النساء :

جاء فى الحديث الشريف : (أيما امرأة غارت فصبرت دخلت الجنة) .

وقال بعضهم : غيرة النساء أشد من غيرة الرجال ، فقال آخر : هذا وهم فليس ما ينال المرأة إذا رأت امرأة على فراش زوجها من جنس ما ينال الرجل إذا رأى رجلا على فراش امرأته .

وقالوا : إن غيرة المرأة على الرجل لا تبلغ وإن أفرطت مبلغ غيرة الرجل على المرأة ، أو تقول : لا ينبغى أن تبلغ غيرة المرأة غيرة الرجل ، ومن هنا أحل الله للرجل وطء أربع من النساء ، ووطء ما شاء من السراري ، لأن فى صبر المرأة محتملا ، ولم يجعل للمرأة أن تنظر إلى غير زوجها ، لأن

صبرَهُ لا يَحتَمِلهُ ، هذا إلى حِكَم أُخْرَى لا تكاد تَخفَى . . . ولكنهم عَلَى هذا كله قَالوا : الغَيرَةُ مِن النساء مسموحٌ لهنَّ فيها ، ولا تُنْكَرُ مِن أخلاقِهِنَّ ، ولا يعاقَبْنَ عليها[1] ، لأنَّهُنَّ فُطِرْنَ عليها ، ولا يَمْلِكْنَ أَنفُسَهُنَّ عندها ، كما جاء فى الحديث (لا تَدْرِى الغَيرَى أعلَى الوادى من أَسْفَلِه) .

* * *

خَرَجَ رَجل مَعَ قُتَيبَة بن مُسلم إلى خُراسانَ ، وخَلَّفَ امرأَةً يقال لها «هند» مِن أَجمل نِساءِ زمانِهـــا ، ولَبِثَ هناك سنين ، فاشترى جارِيَةً اسمها «جُمانَة» وكان له فرس يسميه «الوَرْدَ» فوقعت الجارية منه مَوْقِعاً ، فأنشأ يقول :

أَلاَ لا أُبالِي اليومَ ما فعلَتْ هِنْدُ ... إذا بَقِيَتْ عندى الجُمانَةُ والوَرْد
شَديدُ مَناطِ المَنْكِبَيْنِ إذا جَرَى ... وَبيضاءُ صِنْهاجِيَّةٌ زانهـــا العَقْدُ
فهـــذا لأيَّامِ الحروب وهذه ... لحاجَةِ نَفْسِى حين ينصرفُ الجُنْدُ

* * *

فَنُمِيَ الشعرُ إليها فقالت :

أَلاَ أَقْرِهِ مِنِّى الســـلامَ وَقُلْ له ... غَنِينا بِفِتْيانٍ غطارِفَةٍ مُرْدِ[2]
بحمد أَمـــير المُؤمنينَ أَقَرَّهُمْ ... شَبابًا وأَعْزَا كم حَواقِلَةَ الجُنْدِ[3]

---

(١) فقد ذهب الإمام مالك وغيره من علماء المدينة إلى اسقاط الحد عن المرأة إذا قَذَفَتْ زَوجَها على جهة الغَيرة . . .

(٢) غطارفة جمع غطريف وهو الفتى الجميل أو الشاب السرىّ السخى .

(٣) الحواقلة جمع حوقل وهو الرجل المسن .

إذا شِئْتُ غَنَّانِي غُلامٌ مُرَجَّـــلٌ ... ونازَعَنِي مِنْ ماءِ مُعْتَصِرٍ وَرْدِ[1]

وإنْ شاءَ مِنْهُم ناشِئٌ مَدَّ كَفَّهُ ... على كَتِدٍ مَلْساءَ أَوْ كَفَلٍ نَهْدِ[2]

فما كُنْتُمُ تَقْضُونَ مِن حاجِ أَهْلِكُمْ ... شُهُوداً ، قَضَيناها على النَّأْى والبُعْدِ[3]

فَعَجِّلْ علينـــا بالسَّراحِ فإنَّهُ ... مُنـــانا ولا نَدْعو لقولك بالرَّدِّ[4]

فَلا فَقَلَ الجُنْدُ الذى أنت فِيهِمُ ... وزادَكَ رَبُّ الناسِ بُعْداً إلى بُعْدِ

فلمَّا وردَ كتابُها لم يَزِد على أن ركب فرسَه وأردَف الجاريَة ، ولَحِق بها ، فكان أوَّلُ شىء بدأ به بعد السلام أنْ قال : بالله هل كنت فاعِلَةً ! قالت : اللهُ أَجَلُّ فى قلبى وأعْظَمُ ، وأنت فى عَينى أَذلُّ وأحْقَرُ مِنْ أنْ أَعْصِىَ الله فيك ! فكيف ذُقْتَ طعمَ الغَيرَة ! فوهب لها الجاريَةَ وانْصَرَفَ إلَى بَعْثِه . . .

* * *

وَكانَ رَجُلٌ بالكوفَةِ مُتَزَوجاً بابنةِ عَمِّه ، وله ضَيْعَةٌ بالبَصرَةِ ، يخرجُ

---

(١) مرجل : مُسَرَّح الشعر ، وورد : أحمر ، ومنازَعة الكأس : معاطاتها ، قال عَزَّ وجلَّ : يتنازَعُون فيها كأساً لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ ، أى يتعاطون ، والأصل فيه يتجاذبون . تريد : تعاطى معى من بنت الحان .

(٢) الكتد ككتف وسَبَب : مجتمع الكتفَين من الانسان والفرس ، وتروى * على عُكَنٍ ملساء * والعكن : ثنايا البطن ، والكفل النهد : العَجُز المُشْرِف المرتفع الجسيم الكثير اللحم .

(٣) تقول : إن الذى كنتم تقضونه من حاجات أهلكم وأنتم حاضرون قضيناه وأنتم غائبون .

(٤) السراح : الطلاق .

إليها فى كلِّ سَنَةٍ ، فَتَزَوَّجَ امرأةً بالبَصرة ، فسقط خَبَرُها إلى ابنة عمِّه ، فكتبتْ يوماً كتاباً عن أم البَصْرِيَّة تعزِّيه فى ابنتها وتستعجلُهُ لقسمة ميراثها ، ودفعَتْهُ إلى رجُل غريب ، وَأَمَرَتْهُ بأن يوصِلهُ إليه خُفْيَةً ، فَلَمَّا قَرَأَهُ تَجَهَّزَ وقالَ : إنَّ أمرَ ضَيْعَتِي قد تشعَّثَ بالبَصْرة ولا بد من أن أُلِمَّ بها ، فقالت المرأة : كم تقولُ البصرة ! أحسبُكَ ذا امرأةٍ بالبصرةِ تشتاقُ إليها ! احلفْ لي بطلاقِ كُلِّ زوجةٍ لك بالبصرةِ ، فقال الرجل فى نفسِهِ : وما يضرُّني ذلك وقد ماتت امرأتي بها ! فحلفَ لها ، فقالت : استقرَّ الأمر ، فلا بأسَ بالضَّيعةِ ، وأخبرَتْه بالخبرِ . . . . .

ومن النساء من يُنْكِرُ الغيرةَ :

ومن النساء العاقلاتُ الطيباتُ اللائي يُدْرِكنَ الفُرْقانَ بينَ غيرةِ النساء وغيرةِ الرجال . وأنه يجملُ بالمرأةِ أنْ تَضْرِبَ صفحاً عن الغيرة وتعذرَ الرجال إذا هم أفدَمُوا على أن يُغيروهُنَّ .

كانت صفيةُ بنت سيرين أختُ محمد بن سيرين تقولَ : أما تَسْتَحِي الحُرَّةُ أن تغار ! . . . وأرادتْ يوماً أن تَدْخُلَ إلى بيتِها ، فإذا زوجُها مع جارية لهُ على فِراشِها ، فأغْلَقَتْ عليهما البابَ ، وانصرفتْ ! فضحك وقال : قد علِمْتُ أنَّكِ عرَفْتِ ، والجاريةُ لك . . قد تكون إغارةُ العاقِرِ سبباً فى حَمْلِها :

قال عبد الله بن مُصْعَبْ : شكا إليَّ هارونُ الرشيدُ وهو ولىُّ عَهْدٍ أنَّ أمَّ جعفر لا تحمِل ، فقلت له : أغِرْها ، وحدِّثْهُ حديث ابراهيم النبي عليه السلام مع سارَّةَ ، وأنها كانت لا تحمل ، فاتخذ هاجر ، فحملت باسماعيل ،

فغارت سارَّة فحملت باسحاق ، قال : فاتخذ هارون الرشيد مَراجِلَ ، فَحَمَلَتْ بالمأمون ، وحملت زبيدة بالأمين . وكان الرشيد يُبجّلُ أُمَّ جعفر ويعظمها ، وكان يقول : ربما أردت غشيانها فأهابها فيأخُذُ فِيَّ الزَّمَعُ[1] حتى يمنعنى منها ، ولولا رغبته فى الولد لم يُغِرْها بالتسرى عليها ، قال : وكانت تقول لى : إياك أن تجعلنى فى منزلة إمائك اللاتى تريد التلذذ والتمتع بهن .

أبيات مختارة فى غيرة المرأة :

قال عمر بن أبى ربيعة ، أو بعض الحجازيين ، وهى مما اختاره أبو تمام فى حماسته :

خبَّرُوها قد تزوجت فظلت تكاتم الغيظ سرًّا
ثم قالت لأختها ولأخرى جزعا[2] : ليته تزوج عشرا
وأشارت إلى نساء لَدَيْها لا ترى دونهن للسِّرِّ سِتْرا[3]
ما لقلبى كأنه ليس منى وعظامى كأن فيهن فَتْرا[4]
من حديث نما إلَىَّ فظيعٍ خِلتُ فى القلب من تلظِّيهِ جمرا

* * *

جَوَازُ ذَبِّ الرجل عن ابنته فى الغيرة

جاء فى صحيح البخارى : قال المِسْوَرُ بن مَخْرَمَةَ : سمعت رسول الله (ص)

---

(١) الزَّمع : الدهش . والزمَع : رعدة تعترى الإنسان إذا هَمّ بأمْر .
(٢) جزعا : مفعول لأجله .
(٣) سترا يجوز فتح السين وكسرها فيها ، فالسِّتر : المصدر والسِّتْرُ أحد الستور ،
(٤) فترا الانسان لا نت مفاصله .

يقول وهو على المنبر : إن بنى هشام بن المغـــيرة استأذنوا فى أن يُنْـكِحُوا ابنتَهم[1] علىَّ بنَ أبى طالب : فلا آذَنُ ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد ابن أبى طالب أن يُطَلِّق ابنتى ويَنْـكِح ابنتهم ، فإنما هى بَضْعَةٌ منى يَرِيبُنِى ما رابَها ، ويؤذينى ما آذاها . . .

«وكان هذا منه عليه الصلاة والسلام إشفاقاً على فاطمة رضى الله عنها أن تنال منها الغَيرَةُ ، وتُفْـتَتَنَ فى دينها من جهة ، ولأن بنت أبى جهل هى بنت عدو المصطفى وإن كانت قد أسلمت ، ويروى أن علياً لما رأى من المصطفى إنكاراً لهذا الزواج قال : لا آتى شيئا تـكرهه ، وكل هذا وإن ورد فى الحديث . (جَدَع الحلالُ أنفَ الغَيْرَةِ) ومعناه حث الزوجة على ترك الغيرة إذا تزوج زوجها عليها» .

* * *

الميل إلى الممنوع والرغبة عمن يشركك فيه غيرك

قال يزيد بن الطَّثَرِيَّة :

أعاف الذى لا هول دون لقائه ... وأهوى من الشُّرْبِ الحريزَ المُمَنَّعا

وقال أبو تمام :

غالِى الهوَى مما يُرَقِّصُ هامَتِى ... وَرَوِيَّتِى النُّطَفُ التى لم تُنْهَلِ[2]

---

(١) هى بنت أبى جهل وأخذها عكرمة بن أبى جهل بن هشام .

(٢) رويتى : مؤنث رَوِىٍّ وهو المـــاء التام الرى ، والنطف جمع نطفة وهو الماء الصافى قل أو كثر ، ولم تنهل : لم يشرب منها أولا ، يقول : إنه لا يروينى إلا الماء الذى لم يشرب منه أحد قبلى ، وذلك تمثيل يريد أنه لا يرضيه من الصبابة إلا ما لم يسبقه إليه أحد أى الهوى الممنوع ، ذلك الهوى الغالى الذى لا يطر بنى سواه .

وقال دِعْبل :

قَصَرَ الغَوايَةَ عن هَوَى قَمَرٍ وَجَدَ السبيلَ إليه مُشْتَرَكا

وقال آخر :

تَبِعتُكَ لَمَّا كُنت عندى مُمَنَّعًا وأمْسَكْتُ لما صِرْتَ نَهْبًا مُقَسَّمًا
ولاَ يَلْبَثُ الحَوضُ الجديدُ بناؤُهُ إذا كَثُرَ الوُرَّادُ أن يتهـــدَّما

وكان لأبى نُواس صديقةٌ اتصلت بصديق له[1] ، فأنشأ قصيدةً يمدح بها العباسَ بن عُبَيد الله بن أبى جعفر المنصور ، وجَعَلَ مطلعها مُعْرِضا لهذه القصة ، وقال :

أيُّهـــا المنتابُ عَنْ عُفُرِهْ لَسْتَ مِن لَيْلِى ولا سَمَرِهْ[2]
لا أذود الطير عن شَجَرٍ قد بَلَوْتُ المرَّ من ثَمَرِهْ[3]

---

(١) قال محمد بن شبيب : قلت لأبى نواس : ما ذا أردت بقولك : لا أذود الطير عن شجر . . . البيتَ ؟ فقال : أخبرك ، كانت لى صديقة تحبنى ، فقيل لى : إنها تختلف إلى آخر من أهل الريب ، فلم أصدق ، حتى تتبَّعْتُها فرأيتها تدخل إلى منزل ذلك الرجل ثم زارنى بعد ذلك الرجل وكان صديقاً ، فصرفت وجهى عنه ، وقلت : أيها المنتاب . . . البيتين ثم أحببت أن أجعلهما مطلع مدحة للعباس . . .

(٢) المنتاب من قولك انتاب الرجـــل : قصدك وأتاك مرة بعد مرة ، والعُفُر — بضمتين هنا و بضم فسكون — طول العهد يقال : ما ألقاك إلا عن عفر تريد بعد حين أو بعد شهر ونحوه ، وقوله لست من ليلى ولا سمره براءة منه ، والسمر حديث الليل خاصة ومجلس السمار كالسامر .

(٣) شبه صديقه بالطير وصاحبته بالشجر وخيانتها له بمر ثمره .

قد لبستُ الدهرَ لبسَ فَتًى أخذَ الآدابَ عن غِيَرِهْ[1]
فاتصِلْ إن كُنتَ مُتَّصِلًا بِقُوَى منْ أنت مِنْ وَطَرِهْ[2]
خِفتُ مأثورَ الحديث غَدًا وَغَدٌ أدْنَى لِمُنْتَظِرِهْ[3]
خابَ مَنْ أسْرَى إلى بَلَدٍ غيرِ مَعْلومٍ مَدَى سَفَرِهْ[4]
وسَّدَتْهُ ثِنْيَ ساعِدِهِ سِنَةٌ حَلَّت إلي شُفُرِهْ[5]

أَحَبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِع :

وَلِمُنَاسَبَةِ ما أوردنا فى هذا المعنى نستوفى القول فيه وإن كان ما نورده الآن ليس من نَصِّ الباب وإنما هو من قبيل آخر أعَمَّ وأشملَ ، من قبيل أن أحب شيء إلى الإنسان ما منع ، فمن ذلك قول الأحوص :

وزادَه كَلَفًا بالحُبِّ أنْ مَنَعَتْ وحَبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنِعا[6]

---

(١) يقول : صاحبت الدهر حتى تعلمت من حوادثه فلست أُخْدَع .

(٢) الوطر : الحاجة ، والقوى : الأسباب — الحبال — يقول : اتصِلْ بمن يحب الاتصال بك دونى .

(٣) يقول : خفت الشهرة والسمعة السيئة .

(٤،٥) يبدو أن يكون هذا تمثيلا لحاله معها إذا تصل بها دون أن يتبصر فى العواقب فخانته ، وأسرى : سافر والمدى : الغاية والنهاية ، والشُّفْر : منبت الشعر من الجفن ، وسنة حلت إلى شفره يريد ثقلة النوم وأن هذا النوم الثقيل يجعله يتخذ ساعده وسادة له .

(٦) جاء هذا البيت فى لسان العرب :

وزاده كَلَفًا بالحبِّ أن منعت وحَبَّ شَيْئًا إلى الانسانِ ما منعا

وأصل حَبَّ حَبُبَ بضم الباء ثم أسكنت وأدغمت فى الثانية ، وما من قوله ما منعا فى موضع رفع بحَبَّ ، أما الرواية الأولى فقد أوردها النحويون على أن حَبَّ أفعل تفضيل حذفت همزته مثل خيروشر إلا أن الحذف فيهما هو الكثير والحذف فى أحَبَّ قليل .

وقول ابن الرومى :

إذَا أُلِفَ الشيءُ استهان به الفَتَى فلم يرَهُ بُؤْسى تُعَدُّ ولا نُعْمَى
كإنْفاقِه من عُمْرِه ومَساغِه مِنَ الريقِ عذباً لا يُحِسُّ له طَعْمَا

وقالوا : كُلُّ مقدور عليه مملول محقور ، والعجم تقول : كُلُّ عِزٍّ تحت القُدْرةِ فهو ذليل .

* * *

الغَيرَةُ على المحبوب :

قَال بعضهم :

أغارُ عليكِ مِن الناظِرينَ فلو أستطيعُ طَمَسْتُ العُيونا

وقَال آخر :

أغارُ عليك مِن قُبَلِي وإنْ أعْطَيتنى أَمَلِي
وأُشْفِقُ أَنْ أَرَى خَدَّيْكِ نُصْبَ مَواقع المُقَلِ

وقال :

أغارُ على نَفْسى لها وتَغَارُلى على نَفْسِها إنَّ الهَوَى لَعجيبُ
على أننا لم نَدْنُ يوما لريبَةٍ ولا مِثلُنَا فيمَنْ يُرِيبُ يُرِيبُ

وقال الخُبزَ أَرُزِّى :

إنِّى لأَحْسُدُ ناظِرِىَّ عليْكا حَتَّى أَغُضَّ إذا نظرْتُ إليْكا

وكان للشاعر ديك الجِنّ — واسمه عبد السلام بن رَغْبان ، شاعر فَحْل

مِنْ شعراء الدولة العباسية — كان له جاريةٌ يهواها ، وغلام وصيفٌ كان يهواه ، فاتهمَ الجاريةَ بالوصيف ، وقتلهما ، ثم نَدِمَ على ذلك ، فأكثر فى التغزل فيها ، ومِن ذلك قوله :

يا طَلْعَةً طلع الحِمام عليها ... وجَنَى لها ثمرَ الرَّدَى بيَدَيها
رَوَّيْتُ مِنْ دَمِها الثرَى ولطالما ... رَوَّى الهوَى شفَتَىَّ من شفتيها
مكَّنْتُ سَيْفِى مِنْ مَجَال وِشاحِها ... ومَدامِعِى تجرِى على خدَّيْها
فوحَقِّ نَعْلَيها — وماوطِئ الحصَا ... شىءٌ أعَزُّ علىَّ مِن نعليْها —
ما كان قَتْلِيها لأنِّىَ لَمْ أكُنْ ... أبْكِى إذا سَقَط الغُبَارُ عليها
لـكنْ بَخِلْتُ على سِوَاىَ بحُبِّها ... وأنِفْتُ مِن نظر الغُلام إليها

وله فى الغلام أبيات منها هذا البيت :

لو كانَ يَدْرِى الميْتُ ماذا بعده ... بالحىِّ منه بَكَى له فى قَبْرِهِ

* * *

ومن قول البهاء زُهير فى غيرته على مَنْ يَهْوَاه :

وأُنَزِّهُ اسمَكَ أنْ تَمُرَّ حُرُوفُهُ ... مِن غَيْرَتِى بِمسَامِعِ الجُلاَّسِ
فأقول : بعضُ الناس ، عنكِ كنايةً ... خوف الوُشاةِ ، وأنْتِ كُلُّ الناسِ
وأغارُ إنْ هَبَّ النسِيمُ لأنَّهُ ... مُغْرًى بِهزِّ قَوامِكِ المِيَّاسِ
ويَرُوعُنى ساقِى المدامِ إذا بَدَا ... فأظنُّ خَدَّكِ مُشْرِقًا فى الكاسِ

يصونُ محبوبه عن ذكره عند الرجال :

قال :

ولستُ بواصف أبَدًا خليلا ... أُعرِّضُـــه لأهواء الرجال

وما بالى أشوّق عَيْنَ غَيْرِى إليه ودونَه سَجْفَا الحِجالِ[1]
كأنى أشْتَهِى الشركاء فيه وآمَنُ فيه تغيير الليالى

ولمَّا أنشدَ نُصَيْبٌ الشاعر بحَضْرَةِ عبد الملك بن مروان :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ ما حَيِيْتُ فإنْ أَمُتْ
أَوَكَّلْ بِدَعْدٍ من يهيمُ بها بَعْدِى

فَكُلُّ عابَهُ ، فقال عبدُ الملك : فلو كان إليكم كيف كنتم قائلين ؟

فقال رجُلٌ منهم : كنتُ أقول :

أهيمُ بِدَعْد ما حَييت فإنْ أَمُتْ
فواحزَنا مَن ذا يهيم بهـا بَعْدِى

فقال عبدُ الملك : ما قُلتَ والله أسْوَأُ مما قاله ، فقيل له : فكيف كُنْتَ قائِلاً فى ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : كنتُ أقول :

أهيمُ بِدَعْدٍ ما حَيِيْتُ فإن أَمُتْ
فلا صَلَحَتْ دَعْدٌ لِذى خُلَّةٍ بَعْدِى

فقالوا : أنتَ والله أشْعَرُ الثلاثة يا أمير المؤمنين .

ولَمَّا قال : على بن عبد الله الجعفرى — فى ولد جعفر بن أبى طالب :

ولَمَّا بدا لى أنها لا تُحِبُّنى وأنَّ هواها لَيْسَ عَنِّى بِمُنْجَلِ
تَمَنَّيْتُ أنْ تُبلَى بغيرى لَعَلَّها تَذوقُ مَرارات الهَوَى فَتَرِقَّ لى

---

(١) «السَّجْفَان : السِّتْرَان والحجال جمع حجلة وهى شىء يُشْبِهُ القُبَّةَ له ستران .

عُيِّرَ بهذا حتى إنَّهُ كان يُسَمَّى المُتَدَيِّثَ فى شعره ، قال : وكنتُ مَحْبوساً فى بعض الأَحايين ، فجاء رجلٌ إلى باب السِّجْن فقال : أَيْنَ المُتَدَيِّثُ فى شِعْرِه ؟ فقلت : لئن كانَ منِّى ذلك القولُ إنِّى أقول :

رُبَّما سَرَّنى صدودُك عَنِّى فإذا ما خَلَوْتُ كُنْتِ التَّمَنِّى

* * *

التديث :

التديث فى اللغة :

دَيَّثَ الأَمْرَ : ذَلَّلَهُ ، وَدَيَّثَ الطريق : ذلَّلَهُ ووَطَّأه ، ودَيَّثَ البعيرَ : ذلَّلَهُ حتَّى ذَهبتْ صعوبته ، ودَيَّثَهُ الدهر : حَنَّكَهُ وذلَّلَهُ وَدَيِّثَ الرَّجُل : ذَلَّلَه ولَيَّنه والدَّيُّوث : القوَّادُ على أَهْله ، والذى لا يغار على أَهْلِه : دَيُّوث ، وفى المحكم : الديُّوث : الذى يَدْخُلُ الرجالُ على حُرْمَتِه بحَيْثُ يراهُم ، كأنه لَيَّنَ نَفْسَهُ ، وقال الإمامُ ثعلب الديُّوث : هو الذى تُؤْتَى أَهْلُه وهو يَعْلَمُ ، مشتقٌ من ذلك (قول ثعلب تؤتى أهله) أنتَ الأهل فقال تؤتى على معنى المرأة . . .

وقال الثعالبى فى فقه اللغة : إذا كان الرجل يُغْضِى على ما يَسْمَعُ مِن هَنَاتِ أهله فهو دَيُّوث ، فإذا كان يُغْضِى على ما يَرَى منها فهو قُنْذُعٌ ، فإذا زادَتْ جَفْلتُهُ وعُدِمَت غَيْرَتُه فهو طَسِيعٌ طَزِيعٌ ، فإذا كان يتغافَلُ عن فُجُورِ امرأتِه فهو مغلوبٌ ، فإذا تغافل عن فُجُور أُخْتِه فهو مَرْمُوث . . .

ذم التديث :

فى الحديث الشريف (تَحْرُمُ الجنَّةُ على الدَّيُّوث) « أى الذى لا يغارُ

على أهْلِهِ « وانظر ما قيل فى مَدْحِ الغيرة »

عذر الراغبين عن الزواج

قِيل لِمالك بن دينار : لَوْ تَزَوَّجت ! فقال : إنّى طَلَّقْتُ الدنيا ثلاثا ، فلا رجعَةَ لى فيها !

وقالوا : ما فَكَّرَ فيلسوفٌ إلاَّ ورأى العزُوبَةَ أَجْمَعَ لِهَمِّهِ ، وأجودَ لخاطِره . . .

وسُئِلَ حكيم عَن التزوج فقال : بَقْلُ شهر وشَوكُ دَهر .

وقال آخر : مُكابَدَةُ العِفّةِ عنهن أَيْسَرُ من الاحتيال لمصلحتِهِنَّ ومصلحة عيالهنَّ .

وقال رجل آخر : كُنّا فى إملاكِ فلان : فقال : لا تَقُلْ فى إملاكه ، ولكن فى إهلاكه[1] . . . ثُمَّ أنشد :

يَقولون : تزويجٌ وأَعْلَمُ أنّه هُوَ الرِّقُّ إلاَّ أَنَّ مَن شاء يَكْذِبُ

وفى الحديث : لَيأتِيَنَّ عَلَى الناس زَمانٌ يُغْبَطُ الرَّجُلُ فيه لِخِفَّةِ الحاذِ ، كما يُغْبَطُ اليومَ أبو العَشَرة .

«أصْلُ الحاذ : طَريقةُ المَتْنِ — الظَّهر — من الانسان ، وفلانٌ خفيفُ الحاذ : أى خفيفُ الظَّهر ، أو خفيفُ الحال من المال والولد ، وفى هذا الحديث ضَرَبَهُ مثلا لِقِلَّةِ المال والعيال» .

---

(١) إملاك بكسر الهمزة مصدر أملكه إياها : زَوَّجَه وعقد نكاحَهُ من ملك الرجل . فلانة يملكها ملكا «مثلث الميم» تزوَّجها ويقال : شهدنا إملاكه — زواجه .

التَّزوج بأكثر من واحدة .

قال بعضهم : إياكَ أنْ تتزوَّجَ على امرأتك أو تتسرَّى عليها ، إلاّ إنْ وطَّنْتَ نفسكَ على تكدِ الدهر .

وقال اسماعيل صبرى باشا :

يا مَن تزوّجَ باثنتَين ألاَ اتَّئِدْ ... أوقعْتَ نفسك ظالما فى الهاوِيَهْ
ما العدْلُ بين الضرّتَين بمُمكِنٍ ... لو كُنتَ تعدِلُ ما أخذْتَ الثانيَهْ

وَقيل لأعرابىٍّ — : مَن لَمْ يَتزوَّج امرأتين لَمْ يَذُقْ حَلاوَةَ العَيْش ! فَتزوَّجَ امرأتين ثم نَدِم ، فأنشأ يقول :

تزوَّجْتُ اثْنَتَين لفَرْط جَهْلى ... بما يَشْقى بِهِ زوجُ اثْنَتَيْن
فَقُلْتُ : أصيرُ بينهما خَروفًا ... أُنَعَّمُ بينَ أكْرَم نعجَتَيْن
فَصِرْتُ كَنعْجَةٍ تُضحِي وَتُمسِي ... تُداوَلُ بين أخْبَثِ ذِئْبَتَيْن
رضا هٰذى يُهيّجُ سُخْطَ هٰذى ... فما أعْرَى مِن احْدَى السُخْطَتَين
وَأَلْقَى فى المَعيشَةِ كُلَّ ضُرّ ... كذاك الضُّرُّ بينَ الضَّرَّتَيْن
لهٰذى ليلَةٌ وَلِتِلْكَ أُخْرَى ... عِتـــابٌ دائمٌ فى الليلتَيْن
فإنْ أحْبَبْتَ أنْ تبقى كريما ... مِن الخَيْراتِ مَملوء اليَدَيْن
وتُدْرِكَ مُلْكَ ذى يَزَن وعَمْرٍو ... وَذى جَدَنٍ ومُلْكَ الحارِثَيْن
وَمُلْكَ المُنْذِرَيْن وَذِى نُوَاس ... وَتُبَّع القـــديم وَذِى رُعَيْن
فَعِشْ عَزَبًا ، فإنْ لَمْ تَسْتطِعْهُ ... فَضَرْبًا فى عِراضِ الجَحْفَلَيْن

«قوله : فضربا فى عراض الجحفلين قال البكرى شارح الأمالى : عِراض : مصدر عارَضَ الجحفَلُ مُعارَضَةً وعراضاً : إذا التقيا ، يقول : تعرَّضْ للموت والشهادَة كى

تستريح ، وقد رواه قومٌ فى عُرَاض الجحفَلَيْن ، بضم العين ، والجحفلان كنايةٌ عن الشُفْرَتَيْن ، مأخوذ من جَحفَلَة الدابَّة ، يريد : فارْجع إلى ما عَزَبْتَ عنه وأقْبِلْ عليه واصْبِرْ على مكروهِهِ ، وقال آخرونَ : يقال : تجحفل إذا اجتمع ، وجحفلتهُ إذا جمعته ، فهو كناية عن الخضْخَضَة وهى : التدليك والاستمناء ، وهى الاعتمار(١) يعنى جمع اليَدَين وضَمّها لذلك» .

* * *

وقال عُمرُ بن أبى ربيعة ، وقيل لبعض الحجازيين ، — وهى فى حماسة أبى تمام :

خَبَّروها بأَنّنى قَد تَزَوَّجـــتُ فَظلت تكاتمُ الغَيْظَ سِرًّا
ثُمَّ قالت لِأُختها ولأُخْرَى جَزَعًا لَيْتَـــهُ تزوّجَ عَشْرَا
وأشارَت إلى نســـاءٍ لدَيها لا تَرَى دُونَهُنَّ للسِّرِّ بِشْرَا
ما لِقَلْبِى كأنّه ليس مِنّى وعِظامى إخالُ فِيهِنَّ فَتْرَا
مِن حَديث نُمِى إلىَّ فَظيع خِلْتُ فِى القلب مَن تلظّيه جَمْرَا

« وقد تقدمت هذه الأبيات فى الغيرة »

وقال أعْرابىٌّ لآخرَ : لا تَتَزَوَّجْ بأَرْبَعَةٍ فكلٌّ تأخُذُكَ لجماعها وأنت كالٌّ ؛ ولا بثلاثٍ فإنّهُنّ كالأثافِىّ ، تصير بينها كالقِدْر فيَكُونُكَ كَيًّا ولا باثنتين فإنهما يكونانِ كَجمْرَتَيْنِ ، ولا واحِدَةٍ فإنك تَمْرَضُ إذا مَرِضت وتَحيضُ إذا حاضَت وتَلِدُ إذا وَلَدت ؛ فقال له :

---

(١) الاعتمار مصدر من عُميرَة التى تجلد ، وهى كناية عن الكف ، هذا : والإلطاف للنساء مثل الاعتمار للرجال ، وترى عبقرياتهم فى الاعتمار فى موضع آخر .

قد نَهَيْت عَن كُلّ ما أمرَ الله ! فمـــا الذى أصنَع ؟ قال : كوزان وطِمْرَانِ وعبادَة الرحمن . . .

ومن طَريف ما يُرْوي فى هـــذا الباب أنّ الحجّاجَ قال يوما وعنده أصحابه :

أما إنّه لا يَجتمعُ لرَجُلٍ لَذّةٌ حتى تَجتَمِعَ أَربَعُ حَرائِرَ فى مَنزِله. يَتَزَوَّجُهُنَّ ، فَسَمِعَ ذلك شاعِرٌ مِن أصحابه يقال له الضّحّاك ، فَعَمَد إلى كُلِّ ما يملك فباعَهُ ، وتزوَّجَ أَربَعَ نِسْوَةٍ ، فَلَمْ تُوافِقْهُ واحِدَةٌ مِنهُنّ ، فأقبَلَ إلى الحجّاجِ فقال : سَمِعتُكَ — أصْلَحَكَ الله — تقول : لا تَجتَمِعُ لرجل لَذة حتى يَتَزَوَّجَ أربَعَ حَرائِرَ ، فَعَمَدْتُ إلى قليلى وكثيرى فبِعْتُه وتزوّجتُ أرْبَعا ، فَلَمْ تُوافِقْنى واحدة مِنهُنَّ : أمأ واحدةٌ مِنهُنَّ فلا تَعرِف الله ولا تُصَلِّى ولا تَصوم ، والثانية حَمقاء لا تَمالَك ، والثالثة مُذَكَّرَة[٢] مُتَبَرِّجَة ، والرابعة وَرْهاء خَرْقاء — لا تَعرِفُ ضَرَّها مِن نَفْعها ، وقد قلت فيهن شِعرًا ؛ قال : هات ما قلت لِلّهِ أبوك ! فقال :

تَزَوَّجْتُ أَبْغِى قُرَّةَ العَينِ أَرْبَعًا ... فَيـــالَيتَنِى والله لَمْ أَتَزَوَّج

ويالَيتَنِى أَعْمَى أَصَمَّ ولم أَكُنْ ... تَزوّجْتُ بل يالَيتَنِى كنت مُخْدَج[١]

فواحِدَةٌ لا تَعرِفُ الله رَبَّهـــا ... ولم تَدْرِ ما التقوى ولا ما التّحَرُّجُ

وثانِيةٌ حَمْقـــاءُ تَزْنِى مَخانَةً ... تُوائِبُ مَن مَرّتْ به لا تُعَرِّجُ

---

(١) المخدج : ناقص الخَلْق .

(٢) مذكّرة : مُتَشَبِّهَةٌ بالذكور

وثالثةٌ ما إنْ تُوارَى بِثَوبِها مُذَكّرة مشهورَة بالتبرج
ورابعـــة وَزْهاء فى كُلّ أمرها
مُفَرّكَةٌ هوجاء مِن نَسْل أَهْوج[1]
فَهُنّ طلاق كُلُّهُنّ بوائن ثلاثا بتـــاتا وإلاّ أُلَجْلِجُ

فضَحِكَ الحجّاج وقال : ويلك ! كم مَهْرُهُنّ ؛ قال : أربعة ألاف أيُّها الأمير ، فأمَرَ له باثنى عشر ألف درهم وهذه أبيات الأعرابى على ما فيها فى إقواء قبيح بالرفع والنصب والجر ولكنها تُسْتَطْرَف من هذا الأعرابى.»

عبقرية الإسلام فى تعدد الزّوجات :

فى الحقّ إنّ لى أن أقول ، وأَعْنِى ما أقول ، إن الإسلام بَرَاءٌ من تهمَة تَعدُّد الزوجات ! نعم ، وأقول أكثر من ذلك ، إن الاسلام هو الدين الفَذّ الذى حارب تعدد الزوجات ، ونَعَى على العرب وعلى غير العرب هذه العـادة المنـكَرَة ، إنّ تعدد الزوجات كانَ شائعاً بين الأثينيين والفرس والعِبرانيّينَ وعَرَب الجاهلية ، وجميع هؤلاء لم يكن لهم دستور يحدد عدد الزوجات اللائى يمكن الرجل أن يتزوج بهن ، بل إن هذه العادة كانت شائعة في العالم المسيحى ، على الرغم من نَهْىِ جُسْتِنيان عنها . ولم يكُ شيوعها مقصورا عَلَى الطبقات الارستقراطية[2] .

---

(١) المفركة : المرأة التى يبغضها الرجال .

(٢) سيد أمير على الهندى قاضى الهند سابقا وعضو مجلس ملك الانجليز الخاص ومجلس وزارة الهند ومجلس الامبراطورية الهندية رحمة الله عليه وذلك منا بتصرف فى العبارة مع المحافظة التامة على المعنى وانظر أيضا كتاب المقارنات والمقابلات .

أقول : إن تعدد الزوجات كان شائعاً بين جميع الشعوب القُدامى ومِن بينها عرب الجاهلية ، وأنه لم يكن هناك حد يقف دونه الرجل ، فقد كان الرّجل من العرب يجمع بين عَشْر نساءومن بينهم ، غيلان بن سلمة ، كان بين يديه عشر ، فقال له رسول الله : أَمْسِكْ عليك أربعا . .

وهكذا لما جاء الإسلام ضَرَبَ حول تعدد الزوجات نِطاقا محكما ، وقيّده بقيود ثقال ، إذ فَرَضَ فيه العَدل الشامل ، واجتناب الانسياق مع النفس فى مَيلها وهَواها ، واتقاء كل ما من شأنه أن يستثير الحقد والأمن بين زوجاته ، وكَم فى الناس من يقوَى على ذلك ! وأىُّ امرئ يستطيع أن يبدّل فِطام غريزته وجبلته ويمحو فضل عاطفته ! وجملة القول : إن الإسلام اشترط شروطا شديدة فى إباحَة تعدد الزوجات هى لدَى النصفة والمعدلة والنظر إلى رُوح التشريع تُعَدُّ بمثابة التحريم[1] . . .

يقول الله جل ذكره (أُحلّ لكم من النساء مثنى وثلاث ورُباع فإن خِفتُم ألاّ تعدلوا فواحِدَة أو ما ملكت أيمانكم) وليس العدل الذى ذُكر هو المساواة فى المَسْكَن والنفقة فحسب كما قد يظن وإنما هو يقتضى المساواة

---

(١) قال سيد أمير على : لقد عمل بذلك الرأى منذ القرن الثامن للمسيح بواسطة علماء المعتزلة الذين قرروا أنه ما دامت المساواة التامة فى الحب والشعور مستحيلة التحقيق فان آيات القرآن الكريم ظاهرة المعنى والمبنى فى أنها تنهى عن تعدد الزوجات ، قال : وهذا الرأى آخذ الآن فى الانتشار حتى بين أتباع المذاهب الأخرى ، ففى الهند لا يكاد يوجد اثنان فى المائة متزوجان بأكثر من امرأة واحدة ، وكذلك الحال فى فارس بينما يندر تعدد الزوجات فى تركية .

التامة فى الحب والميل والاحترام ، وهذا لعمرى خارج عن نطاق الاستطاعة وطوق البشر ، ومن ثم قال سبحانه (ولن تستطيعوا أن تَعْدِلوا بين النساءِ ولو حَرَصتمْ) وإنما نظر الإسلام فى تلك الإباحة إلى أمور : أحدُها شيوعها وكثرةُ انتشارها فكان ذلك من الإسلام لونا من المرونة التشريعية وضربا من التسامح الذى لا بُدّ من مثله فى هذا الموقف . ثانيها أنّ هناك أناسا لا تُمَكِّنُهم طبائعُهم ولا تكوين جسومهم من الاكتفاء بواحِدَة ، فأولئك روعِىَ أمرهم حتى لا يفزعوا إلى ما هو أدْهَى وأمَرّ من تَعَدُّد الزوجات . . . ثالثها الاحتفاظ بكيان الأُمّة ، لأن الرجالَ مدفوعون فى كثير مِن المَواطن إلى خَوَضِ القتال ، واقتحام الأخطار ، مما عساه يُنْضِبُ عَدَدَهم ، ويَذْهب بِجَمْهَرَتهم ، فإن لم يُبَحْ لرجال أن يتجاوَزوا الواحدةَ لم يتمكّن كثير من النساء من أن يَكُنَّ أمهات ينسِلْنَ ، فتضوُل الامّة ويَقِلُّ رِجالها ، وربما أسرع إليها الفناء . وها هو ذا اليوم يقوم فريق مِن عقلاء الفرنج ومشترعيهم فَيَحُثُّون على تعدد الزوجات استكثارا للنسل ، حتى يسُدّوا بذلك ما أصابهم ويصيبهم من الفراغ العظيم الذى جلبه فقدان الملايين من رجالهم فى هـــذه الحروب .

وقال جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب)[1] .

« ليس من الهين اليسير أنْ تُدرِكَ أُسلوبا من الحياة لأُمَّةٍ من الأُمَمِ حتى تَفْتَرِضَ كونك فى هذه الأُمّةِ يُحيط بك ما يُحيطُ بها ، ويحتكِمَ بِذاتِ نفسك بما يحتكم بذوات نُفوسها ، فامّا أن تحكمَ — وأنت متأثّرٌ بطبائع قومك

(١) المرأة العربية ومجلة البيان .

وعاداتهم، وما يُحيط بهم من جَوّ وبيئة — على نظام قوم لا يشاكلونك فى شيء مما أنت فيه، فذلك ليس من السَّداد والنصفة والعدالة فى شيء.

ذلك ما يراد بالناقد أن يأخذ به ويَنْهَجه إذا شاء أن يتولىّ بنقده نظاماً كنظام تعدُّد الزوجات قبل أن تصل الأمم غير المُسْلِمة إلى أعماقه. وكثيرا ما تذيعُ الزراية به. والسخط عليه. بل لا تجد نظاماً أجمع الناس فى أوربا على النيل منه. وتوكيل الظنون والأوهام به. كاجماعهم بذلك على هذا النظام فالمؤرخون الأوربيون — وفيهم من عرف بالدقة والنفاذ فى استقصاء الحقائق وتمحيص الحوادث — يرون ذلك نظام دعامة الاسلام، ومدعاة انتشار القرآن والهاوية البعيدة القرار، في سبيل نهوض المسلمين.

يقولون ذلك، ثم يتبعون ما يقولون بنوافر الكلم عن حجاب المسلمات البائسات فى كسور دورهن، يقوم بحراستهن، ويتولى رتاج أبوابهن جماعة من الحرس والخصيان غلاظ شداد، وقد يُقتلن على غير ذنب وجريرة، بغير هوادة ولا مرحمة، إذا صرف عنهن أزواجهن إلى من سواهن.

إن تصوير المرأة المسلمة بهذه الألوان القاتمة برىء من الحق. وسيعلم القارئ — إذا شاء أن يطرح عنها ظنونه وأوهامه قبل تلاوة ذلك البحث — أن تعدد الزوجات على مثال ما شرعه الاسلام من أفضل الأنظمة، وأنهضها بأدب الأمة التى تذهب إليه، وتعتصم به، وأوثقها للاسرة عقدا، وأشدها لآصرتها أزرا. وسبيله أن تكون المرأة المسلمة أسعد حالا، وأوجه شأنا، وأحق باحترام الرجل من أختها الغربية.

وقبل سياق الدليل على تلك الحقيقة الناطقة الناصعة أذكر للقارئ أن

تعدد الزوجات لم يكن من محدثات الاسلام . بل كان ذائعا فى أمم الشرق من فرس وعرب ويهود ومَن سواهم فإذا كانت الشعوب التى رضيت الاسلام دينا قد أخذت به فلم يك ذلك بربح جديد نالته من ذلك الدين الجديد . وإنما هو أثر من تأثير البيئة وضرورة من ضرورات الجنس ونتيجة من نتائج احتكام الأحوال والأوساط عند الشرقيين . وتأثير البيئة والجنس من الواضح والبيان بحيث لا نجهد فى إفاضة القول فيه فإن النظام العضوى للمرأة ، وما يصيبها من الحمل والولادة ، وما ينالها فى سبيل ذلك من أوجاع وآلام ، كل أولئك يضطرها إلى اعتزال فراش الزوج أمدا غير محدود . ولما كان سبيل ذلك الاعتزال أن يعيش الرجل على قدره عيشة الأعزب — وهى عيشة لا يسيغها الشرقيون لما يحيط بهم من تأثير الاقليم وغلبه الأمزجة — أصبح تعدد الزوجات أمرا لا محيد عنه .

أما فى الغرب ، فإن حكم الوسط ، وتأثير الأمزجة ، وغلبة الحالة ، مما يفعل فعله بالرجل . ورغم ذلك نجد البقاء على الواحدة نصا من نصوص القانون ، لا أمراً واقعاً ولا حكما نافذا . وليس فى قدرة أحد أن يعترض ما أقول أو ينكر أن الوقوف دون ذلك السياج — سياج الزوجة الواحدة — أمر لا يستمسك به الأقلون . ولست أدرى على أى قاعدة يبنى الأوربيون حكمهم بانحطاط ذلك النظام — نظام تعدد الزوجات — عن نظام التفرد المشوب بين الأوربيين بالكذب والنفاق ؟! . على حين أرى هنالك أسبابا تحملنى على إيثار نظام التعدد على ما سواه . وليس عجيبا بعد ذلك أن نرى الشرقيين الذين ينتجعون إلينا ، ويتنقلون بين مدائننا ، يحاربون من قسوتنا فى الحكم على نظام تعدد الزوجات فيهم .

وإن يسيرا على المرء أن يعرف السبب فى إقرار الشريعة الاسلامية لذلك النظام ، بعد ما أسلفنا من الدواعى النفسية للقوم . وإن رغبة الشرقيين فى خلود الذكر بالأبناء ، وغرامهم بتكوين الأسر ، والحياة السعيدة بينها ، وما فطروا عليه من العدل والانصاف — كل ذلك لا يجيز لهم إغفال الزوجة التى لا يتحول حبها عن صميم قلوبهم على منال ما نراه فى أوربا .

ثم إن هناك أسبابا — سأعود إلى بيانها — تدعو إلى إقرار الشرائع للعادات التى أصبحت من خلق الأمة وتقاليدها . وإن يكن ذلك فإن نظام تعدد الزوجات الذى ندعن حدود الشريعة عند الأوربيين ، سينتهى الأمر إلى قوانينا بإقراره والاعتراف به .

وهنالك — فوق ما أسلفت — أسباب تؤيد ذلك النظام ، وتدعو إليه وهى على اختصاصها بطبقات معينة ، لا يخلو الوفاء بها من الفائدة ، لتعلم أن بعض البلدان أحوج ما يكون إلى الأخذ به . على أن بين أشد الناس استمساكا بعروة الدين من الأوربيين من هم مسوقون بغلبة الضرورة الى الاعتراف بالحاجة إليه وخاصة إذا أمعنوا فى أحوال الشعوب الآخذة به .

ومن قبيل ذلك ما ذكره المسيو لابلاى صاحب كتاب « العمال فى الشرق » فقد انتهى به القول إلى الضرورة التى تدعو كبير الأسرة من القرويين إلى الاستكثار من الزوجات ، وكيف أن النساء أنفسهن اللواتى يطلبن إلى أزواجهن ابتغاء سواهن غير هائبات ولا آسفات على ما فعلن . وذلك بعض قوله : يحرص الشرقيون على أن يزوجوا بكر الأسرة فى بواكر أيامه : لذلك ترى امرأته بعد تتابع الوضع بعد الوضع ، تسرع اليها الكهولة ، بينما يكون

زوجها نضراً فتيا. فلا بدع أن يعوزه الزواج بغيرها، وهو إذا هم بذلك فإنما يصدر فى أكثر المواطن عن رأى زوجته.

وقد يعجب الباحث من أن تغرى المرأة زوجها بالانصراف إلى سواها. على أنه لا عجب فى ذلك. فإن ربات المنازل فى الجماعات الزراعية الإسلامية، عماد البيوت، وقوام أمرها فإذا شغلت المرأة بتربية أبنائها، والانصراف إلى شئونهم. فليس هناك من يشد أزرها فى مهمة بيتها، إلا الجوارى، أو بعض بنات عشيرتها. وقد لا توجد المؤازرة من بنات العشيرة، كما قد تضيق اليد دون شراء الجوارى، فليس لها يومئذ إلا أن تشير عليه بالزواج، حتى تؤدى حق الأمومة.

وقد ذكر المؤلف ألاَّ أثر للغيرة، ولا للخصومة بين زوجات الزوج الواحد، ولا شك أننا بما وقر فى نفوسنا من الأوهام الباطلة، نقول باستحالة ذلك.

والحق أنا لم نقل بالاستحالة إلا لأننا نرجع فى حكمنا إلى حسنا وعواطفنا، فأما عواطف غيرنا فلسنا بآبهين بها، ولا مقيمين لها وزنا».

وقد آثرنا أن نورد هنا كلمة سيد أمير على التى يذود فيها عن تعدد الزواج فى الإسلام، وهى كلمة جامعة موفية على الغاية من الصدق والسداد وإنارة البرهان ونصاعة البيان — نقلناها عن كتاب روح الاسلام لهذا القاضى العادل — وقد كنا ننشر هذا الكتاب تباعاً فى البيان[1].

* * *

(١) ترجمة المأسوف عليه محمد السباعى.

فى أدوار معينة من التطور الاجتماعى لا يكون تعددُ الزوجات أو ارتباط الرجل بعدة نساء إلا أمرا لا بد منه وحالا لا مفرَّ منها ، ولقد كانت الحروب التى نَشَبَتْ بين القبائل وما كان منها من إقلال عدد الرجال وكثرة عدد النساء ، والسلطان المطلق الذى كان ينعمُ به زعماء القبائل وسادةُ العشائر والانخاذ والبطون — كل أولئك كان السببَ فى إيجاد عادة تعدد الأزواج التى أصبحنا نَعُدُّها بحق فى هـذا العصر المتحضر نقيصةً وأذاةً وشراً من شرور المجتمع .

وقد كان تعدد الزوجات فى الأمم الشرقية القديمة جمعاء ، شريعه مقررة وسنةً مُتَّبَعَة . وقد كان اعتياد الملوك إياها والأكاسرة وأهل بيت الملك — وكانوا إذ ذاك ينزلون من أممهم منازلَ الأرباب ويحملون علم الألوهية — باعثا للناس على اتباعها . والجرى على سنن ملوكهم من ناحيتها . فقد ذاع تعدد الأزواج (من كلتا ناحيتيه أى إكثار الرجل من النساء وارتباط النساء بعدد من الرجال) بين أهل الهند منذ زمن بعيد من التاريخ ولم يكن ثَمَّةَ بين الأشوريين والميديين والبابليين أى حد لعدد النساء والزوجات التى يجوز للرجل الإعراس بهن . ولا يزال الرجل فى البراهمة إلى يومنا هذا يستطيع أن يتزوج من النساء العدد الذى يحبُّ ويختار . ولقد كان تعدد الزوجات واقعا بين بنى اسرائيل قَبل عهد موسى وفى أيامه إذْ أقرَّ تلك السنة ولم يضع لعدد الزوجات حدا ولا قيدا ، ولـكن وُضعَ ذلك القيد بعد ذلك فى التلموذ ، ونص على جواز الزواج بعدد من النساء على قدرة مُـكْنة الرجل من إطعامهن والانفاق عليهن ولئن كان زعماء اليهودية قد قالوا بتحريم الزواج بأكثر من أربع نسوة

فقد خالفهم قوم فى ذلك ولم يعترفوا بحد ولا شرط .

أما الفرس فان دينهم أباح الإكثارَ من من اتخاذ الزوجات ، وقد انحط تعـــدد الزوجات بين الفينيقية — السورية — التى هزمها بنو إسرائيل وأبادوها — إلى درك ليس بينه وبين الحيوانية أى فارق أو خلاف — وكذلك فشت سنة تعدد الزوجات فى أهل طراقيه وليديا وكثير من الشعوب القديمة التى كانت تسكن أقاليمَ عِدَّةً من بلاد الغرب والأقاليم الواقعة فى غَرْبىّ آسيا وزادت عن الحد وتمادت حتى تجاوزت الوصف .

ولقد كانت الزوجة فى أهل أثينا القديمة — وهى ولاخفاء أكبر الأمم الأثرية القديمة حضارة — متاعا يباع ويُشْترى ، وسلعة فى السوق تنتقل من حوزة رجل إلي رجل ؛ وكانت تعد شرا لا غنى عنه فى البيت وللابتذال فى الخدمة وإخراج الذرارى والأطفال، وكان للأثينى أن يتزوج بمن شاء من النساء حتى لقد جعل الخطيب ديموستينس — وهو هو فى براعة الخطابة — يفخر بأن فى أمته ثلاث طبقات من النساء ، طبقتان منهما أزواج شرعية وأخريات غير شرعية .

ولئن كان الرجال فى أسبارطة القديمة لا يباح لهم الزوَاج بأكثر من زوجة واحدة فقد كان لنسائهم أن يتزوجن بأكثر من رجل واحد .

ولعل الظروف الخاصة التى وُضِعَت فيها أنظمة الدولة الرومانية هى التى حالت دون إباحة تعدد الزوجات فى إبان نشأة تلك الدولة ، ومهما كان نصيب قصة اختطاف نساء السابين وسَبْيهن فى أوائل العهد بدولة الرومان من الصحة

والحق ، فإن ثبوت تلك القصة فى سجل التاريخ باعث على الظن بأنها كانت العامل فى وضع الأنظمة الأولى عندهم فى الزواج والأسرة ، على حين أن تعدد الزوجات فى الولايات المجاورة لرومة وفى ولاية أتروسكان خاصة كان عادة شائعة وسنة مألوفة ، وجاءت بعد ذلك الحروب الكثيرة والغزوات الطويلة والفتوح المستمرة وما كان منها من حدوث الاختلاط بالأمم الأخرى التى كانت تسكن إيطالية . ثم الترف الناشئ من النجاح والرفاهية التى تعقب الانتصارات فكانت كلها سببا فى جعل مشروعية الزواج عند الرومان أمرا لا أهمية له ولا ضرورة ، فلم يكتفوا بإباحة تعدد الزوجات وجعله شرعة ونظاما مقررا ، بل استحال الزواج كذلك ضربا من التسرى لا أكثر ولا أقل . ولم يلبث التسرى بعد أن أقرته شرائع الدولة الرومانية أن أضحى فى قوة الشريعة المباحة والسنة المقررة ، ولذلك كانت حرية النساء وضعف الرابطة التى تمسكهن بالرجال وتبادل الزوجات بين الرجال أو التنازل عنهن لم تكن جميعا إلا تعدد الزوجات بعينه وإنما تحت اسم آخر ، وفى شكل مختلف .

وبدأت يومئذ تعاليم المسيحية الأولى تُلْقَى على سواحل غاليلية وتشع على العالم الرومانى بأسره ، على أن نبى الناصرة عيسى عليه السلام لم يستطيع أن يَقْدُرَ مسألة الزواج حتى قدرها عامة . وكذلك شاعت سنة تعدّد الزوجات وفشت وسادت ، حتى جاءت قوانين جوستنيان فأبطلتها وحرّمتها ، ولكن أمر تحريمها فى تلك القوانين المدنية لم يحدث أى تغيير فى أخلاق الشعب ومبادئ الآداب عندهم : فظل تعدد الزوجات باقيا معمولا به متبعا حتى جاءت مدنية المجتمع المتحضر فقطعت بتحريمه ، وحكمت عليه بالموت .

وكانت الزوجات عدا الزوجة الأولى التى بَنَى الرجل بها قبل الأخريات في شر حال وأسوأ عيشة ، سليبة الحقوق ، لا تنعم بشيء من تلك الرعاية التى تَرْعى القوانين بها حق الزوجة الأولى ، عبيدا أرقاء ، مستهدفات لتقلب الزوج رهائنَ أوهامه ، غرضا لمنازعه وأهواء نفسه ، وكان أطفالهن يُوسَمُون بميسم الزنا ، ويدْعَوْن مُزَنمين ، ويحرمون حقَّهم فى إرث أبيهم ، ويعاملون كأنهم طرائد المجتمع مشردين منبوذين من صفوفه .

ولم يكن التمتع بعدد من الزوجات شرعيات وغير شرعيات مقصورا على طبقة النبلاء والأشراف ، بل لقد كان كثيرون من رجال الدين يتناسَوْن العهد الذى عاهدوه والقَسَمَ الذى اتخذوه من البقاء على العزوبة والتحرج من الزواج ، فيرتبطون بزيجة أو زيجتين شرعيتين أو غير شرعيتين ، والتاريخ يدل على أن تعدد الزوجات لم يكن فى نظر الانسانية محرَّما غير جائز كما هو اليوم ، بل إن القديس أوغستين نفسه لم يكن يرى فيه شيئاً من الاثم أو المعابة أو مخالفة نواميس الآداب ، واعترف بأنه لا يعد جريمة إذا كان سنة مقررة في بلد من البلدان وقرر المصلحون الدينيون من الجرمان في القرن السادس عشر صحة الزواج بامرأة ثانية أو ثالثة بجانب الزوجة الأولى لأسباب كثيرة منها العقم وقلة النسل .

ونحن نرى كثيرين من العلماء الدينيين يعترفون بأن ليس فى تعـــدد الزوجات أىُّ مخالفة لقواعد الآداب . وأن عيسى لم يُحَرِّم التعدد تحريما قاطعا ولم يقل بمنعه منعا باتا ومع ذلك تراهم يقولون إنّ فكرة الفردية فى الزواج لم تعُمَّ فى الغرب ولم تنتشر إلا بفضل التعاليم التى بثها الجرمان أو أهل الدولة الرومانية الشرقية فى تضاعيف المسيحية ، ولـكن هـذه الفـكرة الأخيرة

تخالف الواقع والتاريخ ولا أثر لها من الصحة . إذ لم يقُلْ باستمساك الجرمان بسنة الاقتصار على زوج واحدة غيرُ واحد أو اثنين لا تصح شهادتهما ثم لا ينبغى أن ننسى الغرض الذى من أجله وضع المؤرخ تاسيتاس كتابه «فى آداب الجرمان» فقد كان كتابه ذاك نقدا حارا شديدا على الاباحية التى كانت متفشية فى بنى وطنه وكان غرضه إدخال مبادئ أطهر من المبادئ التى كانت سائدة يومذاك فى رومه . وإذا نحن فرضنا أن تاسيتاس كان على الحق فبماذا نؤوِّلُ عادة تعدد الأزواج التى ظل عليها طبقات النبلاء من الجرمان حتى القرن التاسع عشر . ومهما كانت عادة الرومان فى العهود الأولى من تاريخهم فلا نزاع فى أن تعدد الأزواج فى أخريات أيام الجمهورية الرومانية وأبّان عهد الأمبراطورية كان ولا ريب مقرَّرًا كسُنَّةٍ مشروعة أو لم يكن على الأقل معتبرا إثما محرماً وأمرا غير مشروع ، فان الامبراطور فالنتيان الثانى أصدر قانونا أباح به لرعايا مملكته الزواج بعدة نساء إذا شاءوا وليس فى التاريخ الدينى لتلك الأزمنة دليل مّا على أن أساقفة ذلك العصر ورءوس الكنيسة أقاموا أى اعتراض على إصدار ذلك القانون . بل لقد تابع القياصرة الذين جاءوا بعد ذلك الامبراطور سنَّة تعدد الزوجات . ومشى قومهم فى آثارهم . وبقيت تلك القوانين على حالها حتى عهد جوستينيان ، إذ كان أكبر نصحاء ذلك الأمبراطور ووزرائه رجلا ملحدا وثنيا . ولكن تحريم ذلك الملك تعدد الزوجات لم يستطع أن يزجر ميل ذلك العصر ويقمع رغبته بل لم يكن قانون تحريم تلك السنة القديمة إلا دليلاً على تقدم الفكر الإنسانى فى تلك العصور وأثرا من تطور الآداب ليس غير ولم يتعد تأثيرها فئة قليلة من المفكرين وراحت فى الجماهير ضعيفة الأثر لا سلطان لها ولا نفوذ .

وفى الأقاليم الغربيـــة من أوربا لم يكن من علو كفة البرابرة واختلاط مبادىء السكان بمبادىء الفاتحين إلا أن حطت من علاقة الرجل بالمرأة وحاولت جملة من قوانين أولئك البرابرة أن تضع نصوصا خاصة بتعدد الزوجات ولـكن التعاليم والنصوص لم تغن شيئا ولم تفد فتيلا . إذ كانت الشعوب والجماهير ترى ملوكهم مكثرين من الزوجات فلا تجد عن احتذائهم حولا ، ولا ترى بُدًّا من الاقتداء بهم حتى أن رجال الدين على رغم وصايا الاستمساك بالعزوبة التى كانت تُلَقَّنُ فى الـكنيسة جعلوا يَتَسَرَّوْنَ بامرأة أو بأكثر من امرأة . وذلك باذن من رئيس أسقفيتهم .

* * *

والخطأ الأكبر الذى وقع فيه كتاب المسيحية قولهم إن محمدا اتخذ تعدد الزوجات سنة من سنن دينه وأقره وأباحه وأجازه .

والفكرة القديمة التي كانت تجرى فى أذهانهم من أن نبي الاسلام هو الذى كان أول من سن تعدد الزوجات وجعله شريعة من الشرائع الاجتماعية وهى فكرة تدل على مقدار جهل الذين حَمَّلوها أدمغتهم قد هُدِمت اليوم ودحضت وظهر لهم فسادها ، ولـكن الخطأ الذى لا تزال جماهير العامة عندهم تستمسك به وتُصِرُّ عليه ، ولا يزال خلق كثير من المتعلمين ورجال المسيحية يقولون به . هو ما قدمنا ، من أن محمداً اتخذ تعدد الزوجات شريعة وأقره سنة وقانونا ، وتلكم فكرة ليس فى الدنيا أفسدُ منها وأبعدُ عن الحق . وأضعف أساساً . فان محمداً وَجَدَ تعدد الزوجات معمولا به بين أمته وجيران أمته والبلاد الواقعة حول جزيرته ، حيث اتخذت ثمة مظهرا مخيفا ، وكانت فى حال من

التفشى سيئةٍ نكراء، ونحن لا ننكر أن قوانين الامبراطورية المسيحية حاولت أن تُصلح من أمر هذه النَّقيصةِ وتكسِر من حِدَّتها ولكنها عجزت وعادت مخيبة طائشة السهام، فظلت تلك العادة نامية متأصلة لا رادَّ لها ولا زاجر يزجرها. وظلت الزوجات المسكينات اللاتى تزوج منهن الرجل بعد زوجته الأولى يعانين ألوانا من الآلام وضروريا من الشقاء. وكان فساد أمر الاخلاق فى بلاد فارس على عهد ظهور النبى وتحطم مبادئ الأدب من الشناعة والسوء بحال مُروّعة. فلم يكن ثمت للزواج قانون أو شرعة معروفة. وإن كان ثمت قانون فلم يكن أحد منهم يعترف به أو يرتضيه.

ولما كان كِتاب الزاندافستا لم يضعْ حدا محدودا لِعدد النساء اللاتى يجوز للرجل الابتناء بهن لم يكن من الفرس إلا أن جعلوا ينْعَمُون بعدد عديد من النساء وعدد مثله من السرارى. وكانت هناك عادة أخرى غير تعدد الزوجات عند الجاهلية واليهود وهى عادة زواج المتعة فكان لهـــذا التحلل الشنيع فى المبادئ الاجتماعية أثر مخيف سيئ منكر فى حياة المجتمع بجزيرة العرب.

على أن الاصلاحات التى استنها النبى أحدثت تحسينا متسع المدى بينا محسوسا من وجهة مركز المرأة.

على حين كانت حالة النساء عنـد اليهود والعرب غير المستعربة نهاية فى الانحطاط والمهانة والسوء فقد كانت الفتاة اليهودية فى بيت أبيها فى مكان الخادم لا أكثر ولا أقل وكان لأبيها أن يبيعها فى السوق إن كانت قاصرة ولأبنائه الذكران من بعده أن يتصرفوا فى أمرها كما تشاء أهواؤهم وكانت الفتاة لا ترث أبويها إلا إذا كانت وحيدة لا ذكور معها وكان أهل الوثنية القديمة من العرب

من جرّاء تأثير اختلاطهم بالبلدان المحيطة بهم يَعُدُّون المرأة سلعة ومِلكا من من سلع الرجل وأملاكه وكانت الأرامل تنتقل بعد موت بعولتهن إلى حوزة أبنائهم بحق الإرث .

وكان ذلك منشأ زيجات كثيرة بين أبناء الزوج وأرامل آبائهم وهى التى جاء الإسلام فمنعها وسميت بعد ذلك « زواج المقت » وتمادت بعرب الجاهلية الأولى الكراهية للنساء حتى جعلوا يئدون البنات ويدسون الولائد الإناث فى الثرى أحياء ، وهذه العادة الشنعاء التى كانت سائدة بين أهل قريش وقبائل كندة حاربها الاسلام وشدد محمـــد التنكير عليها واستن لها العقوبة الصارمة والمثلات الشديدة وكذلك قُلْ عن عادة تقريب الأطفال قرابين لآلهتهم .

وكان مكان المرأة فى دولة الفرس وكذلك فى دولة بيزانطة حقيرا مهينا فى نظام المجتمع وانبرى قوم من المتهوسين الدينيين خلعت عليهم المسيحية بعد ذلك ألقاب القديسين والأولياء الصالحين فجعلوا يحطون من قدر المرأة وينكرون فضيلتها ويحكمون بشيطانيتها ناسين أن النقائص التى رأوها فى المرأة ليست إلا صورة أذهانهم الناقصة الصفراء المريضة معكوسة أمام أعينهم .

فى ذلك العهد وبناء المجتمع يكاد يخر إلى الأرض وينتقض حجرا حجراً . والرابطة التى كانت تربط ذلك البناء هاوية متحللة ، ظهر محمد بتعاليمه الجديدة وسننه الصالحة فوضع ذلك النبى الكريم المبدأ الأول فى رأس تعاليمه ، الوصاة بالنساء واحترامهن ، وتغلغل أثر ذلك المبدأ فى صحابته وأتباعه وأنصاره

فأسموا ابنة النبي تقديرا لمكانتها وإجلالا لطهرها وقد استها، « سيدة شباب أهل الجنة » ، وفاطمة الزهراء ، ثم قفت على آثار ابنة النبي طائفة طويلة من النساء أعلين من شأن جنسهن لفضيلتهن ، ومزاياهن — ومن بين الشرائع التى دعا إليه النبي وسنها منعه عادة الزيجة الوقتية — زواج المتعة — ولئن كان قد أباحها اضطرارا فى مبدأ الأمر لقد عاد فحرمها تحريما فى العام الثالث من الهجرة بل لقد وضع محمد للنساء حقوقا لم تكن لهن من قبل وأسس لهن امتيازات سيدرك العالم قيمتها على ممر الزمن بل لقد رفعهن من وهدتهن فسوى بينهن وبين الرجال في الوظائف والحقوق وكسر من شوكة تعدد الأزواج فوضع حدا لعدد الزوجات التى يجوز للرجل الابتناء بهن معاً ولا ننسى أن الآية التى جاءت فى الكتاب العزيز لتحديد عدد الزوجات وإباحة الزواج بأربع نسوة إنما عقبت بآية أخرى وهى (وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فان هـــذا الشرط من الأهمية بمكان عظيم ولم يغفل قيمته علماء الاسلام وسادات الدين ففى القرن الثالث من الهجرة جعل علماء الإسلام فى عهد المأمون يعلمون الناس أن مبادئ القرآن إنما تبث فكرة الاقتصار على زوج واحدة وتوحى إلى المسلمين الاستمساك بتلك الفكرة وأنها فى صف فردية الزواج وعلى الرغم من الاضطهادات التى حمل بها ذلكم الخليفة المغرور « المتوكل » على أولئك العلماء ومنع بها انتشار تلك التعاليم التى بثوها فى الناس والمبادئ التى نادوا الجماهير إليها فان الاعتقاد بصحة تلك المبادئ لا يزال ينشر نفسه فى كل مكان ويكره الجميع على الاقتناع به ويوحى إلى الجماعات الاسلامية المستنيرة المهذبة أن تعدد الزوجات ينافض تعاليم الاسلام كما هو منافض لتقدم المجتمع المتحضر والآداب الخلقية الحقه والمدنية الحديثة .

وينبغى ألاَّ ينسى الناس أن وجود تعدد الزوجات يتوقف على ظروف خاصة وأحوال معينة وأزمنة معلومة تجعل العمل به لزاماً وأمراً لا بد منه لحماية العنصر النسائى من شر الجوع والفاقة ، وإذا صحت التقارير وصَدَقت الإحصائيات التى بين أيدينا فإن أغلب الفساد الخلقى والإباحية وتهدم المبادئ الأدبية المتفشية فى أكبر حواضر المدنيـــة فى بلاد الفرنجة لا منشأ له إلا الفاقة الشديدة وقد أبان الأب هوك والسيدة دف غور دون فى تواليفهما أن مجرد الحاجة فى أكثر الأحايين يدفع الناس فى المشرق إلى اتباع فكرة تعدد الزوجات . . .

* * *

«وبعد» فإنه على تقدم الفكر وارتقائه وتقلبات هذا العالَم المستمرة ، وتطورات أحواله المتعاقبة : تَنمحى ضرورة الحاجة إلى تعدد الزوجات ، وتَبْطل هذه العادة من تِلقاء نفسها ، أو تبطِلها القوانين والشرائع . ومن ثم نرى أنه فى البلاد الاسلامية التى قد أخذت تنمحى فيها تلك الأسباب ، التى كانت قد استلزمَتْ تعدد الزوجات فى بادئ الأمر — قد أصبحت هذه العادة تعدّ شرًّا و نُكراً ، ونظاماً منافياً لتعاليم الرسول — بينما فى البلاد التى أحوال المجتمع فيها خلاف ذلك والتى ينعدم فيهـــا من وسائل معاونة المرأة نفسها بنفسها ما هو متوفر فى البلاد الأعظم رقيًّا والأرقى تمديناً ، نرى أن مذهب تعدد الزوجات هو مما لا بد منه ولا مناص عنه .

ولما كانت حرية التفسير تترك مجالا واسعاً لاختلاف أرباب الفتاوى فسيكون من الصعب جداً إبطال المذهب التعدُّدي إبطالا تاماً . ونحن

لا تنكر ما لهـــذا الاعتراض من قوة الحجة وصرامة البرهان مما هو جدير بالتفات من كان من المسلمين يبغى خلاص التعاليم الاسلامية مما لحقها من الانتقاص والعيب ويريد التمشى مع روح العصر والمدنية الحديثة ، على أنه لا يفوتنا أن مرونه القوانين والشرائع هى أنصع دليل على نفعها وفائدتها وهذه المرونة هى أعظم مزايا الشريعة الاسلامية ، فهذه الشريعة ملائمة على السواء لمطالب أرقى الشعوب وأشدها تهذبا ولاحتياجات أوضعها وأحطها مدنية ، والشريعة الاسلامية لا تتجاهل مطالب الانسانية المتطورة المتدرجة كما أنها لا تتجاهل أيضا أن فى الدنيا شعوبا قد يصبح بينهم مذهب توحيد المرأة آفة وشرا . بيد أن محاولة إلغاء « تعدد الزوجات » ليس من الصعوبة كما يتوهم ، ولا خفاء في أن شر ما نـكبت به الشعوب الاسلامية من الآفات والمصائب إنما أتاهم من ناحية المذهب التقليدى (الوقوف عند المذاهب الأربعة) الذى حرم الاستقلال بالرأى الفردى (الاجتهاد) وليس ببعيد ذلك اليوم الذى يرجع فيه إلى نص القرآن ذاته للفصل فيما إذا كان الواجب على المسلم أن يأخذ بصريح آيات الكتاب الحكيم وحقيق معانيها أو بتأويلات الأئمة الذين توسلوا باسم النبي إلى إرضاء أهوائهم الذاتية ، أو إلى تأييد أوامر الملوك والسلاطين الذين كان أولئك الأئمة بعض خدامهم وصنائعهم . ولقد كابدت أوربا عين هـــذه الصعوبات والمشاق واقتحمت عين هاتيك العقبات والحوائل فكان أولى بها من قذف الاسلام بهذه المطاعن والمسالب أن ترقب بعين العطف والرفق وتلحظ بناظر التمهل والتأني ما تبذله الشعوب الاسلامية الناهضة المتحفزة من المجهودات الجسيمة فى سبيل التخلص من رق المذهب التقليدى ، ومتى تم

للاسلام هذا فهب وانتعش ونفض عنه غبار الأفكار العتيقة وصدع قيود العقائد القديمة ، أصبح من السهل على مشرعى كل أمة اسلامية أن تلغى بأمر حكومتها مذهب تعدد الزوجات فى بلادها . ولكن هذا الحد من الكمال لا يمكن أن ينتج إلا عن رقى عام فى اكتناه حقائق الحياة وأمهات المسائل وتفهم أسرار معانى الكتاب المقدس . ولا أرانى مبالغا إذا قلت إنّ مذهب تعدد الزوجات آخذ فى الاضمحلال أو سيضمحل سريعا تحت أشعة ضياء التأويل الحديث الذى أصبحت تؤول به آيات الكتاب المنزل .

وكذلك يتبين لنا أن ملأئمة الشريعة الاسلامية لكل دور من أدوار التمدين وكل طور من أطوار الرقى تشهد بما أوتى صاحبها (محمد) من السداد والحكمة . فنحن نرى أنه فى الشعوب الاسلامية غير البالغة درجة مذكورة من التمدين أن القيود والحدود التى وضعها الرسول على مذهب تعدد الزوجات قد حالت دون مصير هـــذا المذهب آفة وشرا على تلك الشعوب فإن المذهب المذكور هو بلا شك خير وأفضل من تلك العوائد والتقاليد والأساليب الاباحية الدالة على التجرد التام من كل مسؤولية أدبية ، والتملص الكامل من كل قيد أخلاق ، وقد شوهد أنه بتقدم العلوم والمعارف يزداد الشعور بسوء موقع الآفات الناجمة عن مذهب تعدد الزوجات وتزداد تلك الآفات وضوحا وتقترب الاذهان من إدراك معنى التحريم لذلك المذهب ويدنو على متناول الأفهام ماهية الغرض من إلغائه . ونحن لا يسعنا قط القول بأن مسامى الهند قد استفادوا كثيرا من الاختلاط بالبراهمة الذين قد حلل بينهم مذهب السفاح . فإن هؤلاء الطوائف من الهنود قد تراخت عندهم بسبب تلك المبادئ الأخلاقية وتلوثت بينهم نقاوة العقيدة فى وجوب طهارة

الروحانية البشرية ورفعة الشرف الانسانى ، وقد أصبح الفسق والفجور مألوفا لديهم ، كألفته لدى جيرانهم من الوثنيين ، على أن لدينا من الشواهد ما يحملنا على الظن بأن نور الله جل شأنه الذى أضاء بلاد العرب فى القرن السابع سوف ينزل على قلوب تلك الطوائف الاسلامية الضالة فيخرجهم من دياجير ما يغشاهم اليوم من تلك الجهالة والعماية . ولا مراء فى أن كراهة تعدد الزوجات قد أصبحت اليوم عقيدة راسخة اجتماعية إن لم تكن أخلاقية . وفى البلاد اليوم من الظروف القهرية مع ما بها من تلك الكراهية للمذهب التعددى الآنف الذكر ما يتجه إلى اقتلاع هذا المذهب من أمم الهند الاسلامية فقد أصبح من الشائع بين جميع هذه الأمم أن يدون فى عقد الزواج فقرة تنص على أن الزوج يتعهد بالتنازل عن كل حقه المفروض فى التزوج من أى امرأة أخرى طول استمرار الزيجة الأولى .

ونحن نرى أن ٩٥ فى المائة من مسلمى الهند الآن كلهم على مذهب توحيد الزوجة ، إما عن عقيدة أو ضرورة . أما بين الطبقات المهذبة العليمة بتاريخ أسلافها القادرة على المقارنة بين هذا التاريخ وتاريخ غيرها من الأمم فان المذهب التعددى مكروه غير مستصوب .

وكذلك فى بلاد الفرس نرى أن نسبة قليلة جدا من السكان — ٢ فى المائة — هم الذين يتمتعون بلذة المذهب التعددى المشكوك فى صحته ، والذى يرجوه العقلاء من صميم أفئدتهم أنه لن يمضى إلا قليل من الوقت حتى نبصر أئمة الدين قد اجتمعوا فقرروا نهائيا قرارا سارى المفعول نافذ الحكم أن المذهب التعددى كالرق مكروه فى نظر الشريعة الاسلامية .

والآن تنتقل إلى مسألة زيجات النبي التي قد جعلها ذوو الجهل بالحقائق المقررة أو ذوو الانكار لها ميلا مع الهوى وقلة نزاهة حجة لتوجيه المطاعن ضد محمد فقد احتج المعترضون من النصارى بأن محمدا بكثرة زيجاته قد خص نفسه بما لم تبحه الشريعة من الملاذ فأظهر بذلك من وهن العزيمة وقلة الحزم ماينا فى واجبات الرسل وسير الأنبياء . ولكن من تأمل الأمر ببصيرة الواسع الاطلاع على الحقائق التاريخية وانصاف الحكم العادل حكم قطعا بأن محمدا لما تحمل عبء معاونة السيدة المسنة « السيدة خديجة » بتزوجه إياها حسب النواميس القديمة المتبعة ، وكان إذ ذاك فقيرا معوزا كان إنما يكلف نفسه تضحية ذاتية لا يستهان بها ؛ ولا مراء فى أن من حلل نوايا محمد ومراميه فى ذلك الصدد تحليلا تاما من الوجهة الانسانية المحضة المجردة من الأغراض الشخصية تبين الكذب الصراح وسوء النية فيما يوجه إلى « بطل العرب » من التهم فى ذلك الشأن .

نقول إن محمدا فى الخامسة والعشرين من عمره فى زهرة شبابه تزوج خديجة وكانت تتقدم عنه في السن بمراحل ، وقد لبث معها خمسا وعشرين عاما كان سلوكه معها خلالها مضرب المثل فى الصدق والاخلاص والأمانة ، وفى الرخاء والصفاء والسعادة ، وما برحت خديجة أثناء ما انهال عليه من مطاعن الوثنيين وإساءاتهم ، ومن مظالمهم واضطهاداتهم عونه الوحيد وعضده وساعده لم تزايله طرفة عين ، ولم تألُ مواساة له ومؤازرة .

ولما توفيت خديجة كان محمد فى الواحدة والخمسين من عمره ، ولا ينكر أعداؤه بل على الرغم منهم يسلمون أن محمدا لبث طول هذه المدة مُبرّأً من

كل سوءة طاهر الذيل من كل مدنسة نقى الجيب من كل لوثة ناصع الصحيفة مأمون الغيب ، وفى حياة خديجة لم يتزوج محمد امرأة قط غيرها بالرغم من أن عادات البلاد وتقاليدها يومذاك كانت تخوله هذا الحق لو أراد .

وبعد وفاة خديجة ببضعة أشهر يوم عاد محمـــد من الطائف مضطهدا لا عون له ولا نصير تزوج سودة بنت زمعة أرملة رجل من الأعراب[1] كان قد اعتنق الاسلام دينا ثم اضطر إلى الفرار إلى الحبشة هربا من أذى المشركين ثم مات هذا الشريد فى بلاد الغربة وخلف سودة أرملة لا عائل لها ولا ناصر فلم يجد محمد حسب عادات البلاد وتقاليدها سبيلا إلى حماية المرأة أو صيانتها أو إنقاذها غـــير التزوج بها ، ولا مراء فى أن مبادئ المروءة والشرف والانسانية وبواعث الرحمة والعطف والرأفة كانت تقضى على الرسول بذلك وكيف لا وإنما فى سبيل محمد ، ومن أجله وتذرعا إلى نصر دينه وتأييده بذل زوجها روحه ، وقد لازمته زوجته سودة فى منفاه واغترابه وأيام محنته ومصابه ثم عادت إلى مكة مضيمة منكوبة مهيضة الجناح دامية الجراح وحيـــدة مستوحشة فريدة ، فرأى محمد على الرغم من فرط فاقته اذ ذاك وشدة عوزه واحتياجة حتى الى القوت الضرورى أنه لا سبيل لانقاذ المسكينة إلا التزوج بها .

---

(١) هو السكران بن عمرو .

آية حب المرأة لزوجها وبغضها له

وبعض أوصاف الفوارك

قال المبرد فى الكامل : ويقال : إن المرأةَ إذا كانت مُبْغِضَةً لزَوجِها فآيةُ ذلك أَنْ تكونَ عند قُرْبِه منها مُرتَدَّةَ النظر عنه ، كأنَّما تَنظُر إلى إنسانٍ مِنْ وَرائِه ، وإذا كانت مُحِبَّةً لَهُ لا تُقْلِعُ عَنِ النَّظَرِ إلَيْه ، وَإذا نَهَضَ نَظَرَتْ مِن وَرائِه إلى شَخْصِه حتى يَزولَ عنها ، فقال رجُلٌ : أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ كيف حالي عند امرأتي ، فالتَفَتُّ وَقَدْ نَهَضْتُ مِن بين يَدَيها ، فإذا هي تُكَلِّحُ فى قَفاىَ . . .

«تُكَلِّحُ : من التَّكْليح وهو : تَكَشُّرٌ فى عُبوس ، كالكُلوح» .

وَقال الفرزدق فى هذا المعنى — وَالنَّوارُ زَوجُه تُخاصِمُه عند عبد الله بن الزُّبَير[1] — :

---

(١) وقد كانت النّوار هذه قد وكلت الفرزدق أن ينكحها رَجلا خطبها ، فقال : لا أفعل أو تشهدين أنك قد رضيت بمَن زوَّجتك ، ففعلت ، فلما أتى الخاطب والشهود قام الفرزدق ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : قد علمتم أنَّ النوارَ قد ولّتنى أمْرَها وأشهدكم أنى قد زَوَّجتُها نفسى على مائة ناقة حمراء سود الحدَق ، فأبَت وأرادت الشخوص إلى ابن الزبير بمكة ، وكان يومئذ أميرَ الحجاز والعراق ، يُدْعَى له بالخلافة ، فلم تجد مَن يحملها ، فأتت فِتيةً يقال لهم بَنو النُّسَيْر ، فسألتهم بِرَحِمٍ تجمعهم ، فحملوها ، فبلغ ذلك الفرزدق ، فتبعها وقال أبياتاً منها الأبيات الثلاثة التى أوردناه وهى فى بَنِي النُّسَير الذين حملوها ، فلما قَدِمت مكة نزلت على زَوج ابن الزبير ، واستشفعت بها إلى زوجها ابن الزبير واستَشْفَع الفرزدق بحمزة بن عبد الله بن الزبير وبعد لأى زوّجه

فَدُونَكَهَا يابْنَ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهَا مُوَلَّعَةٌ يُوهِي الْحِجَارَةَ قِيلُهَا
وَمَا خاصَمَ الأقوامَ مِن ذِي خُصُومَةٍ كَوَرْهاءَ مَشْنُوءٍ إليها حَلِيلُهَا
تَرَاهَا إذا التَجَّ الْخُصُومُ كأَنَّهَا تَرَى رُفْقَةً مِنْ خَلْفِهَا تَسْتَحِيلُهَا

«مُوَلَّعَةٌ: أى مُولَعَةٌ بالنظر مَرَّةً هاهنا وَمَرَّةً هاهنا، والورهاء: الحمقاء، ومشنوء: مكروه بغيض، وحليلُها: زَوجُها، والرفقة: القوم المجتمعون فى مجلس أو مسير، فإذا ما تفرقوا زال عنهم ذلك الاسم؛ وتستحيلها: أى تتبيَّن حالاتها، قال حُمَيدُ بنُ ثَورٍ:

مُرَوَّعَةٌ تستحيل الشُّخوصَ مِن الخوف تَسْمَعُ ما لا تَرَى».

* * *

وَتَزَوَّجَ رجل امرأةً، فاجتمع معها فى بيت، ففَركَته — أبغضَته — فَرمَت ببَصرِها إلى الكُوَّةِ، فرأت الصبح، فقالت:

وَأَنقَذَنِي بياضُ الصبح منه لقد أُنقِذْتُ مِن شَرٍّ طويل

وَقَالَ الْجَمَّاز لامْرَأَتِه فى يومٍ غَيْمٍ: ما يطيب فى هذا اليوم؟ قالت: الطلاق!...

* * *

عبد الله إيّاها، فقال الفرزدق: خرجنا متباغضين ورجعنا متحابّين، ثم خرج بها من مكة، وكانت لا تزال تشارّه وتخالفه، لأنّها كانت صالحة حَسَنَةَ الدّين وكانت تكره كثيراً من أمره، فتزوّج عليها غيرها، وأخيراً طلّقها، وترى خبرَ طلاقها فى موضع آخر من هذا الكتاب «انظر حديث تزويجها من الفرزدق فى الأغانى ج ٩ طبعة دار الكتب».

وكان امرؤ القيس مُفَرَّكا — أى تُبغضُه النساء — وكانَ قد تَزَوَّج امرأةً تُسَمَّى أُمَّ جُنْدَب ، تَزَوَّجها حين هَرَب من المنذر بن ماء السماء . فأتى جَبَلَ طيء ، بينما هو معها ذات ليلة إذ قالت له : قُمْ يا خيرَ الفتيان فقد أصْبَحْتَ ، فلم يَقُمْ ، فكَرَّرَت عليه فقامَ فوَجَدَ الفجرَ لم يَطْلُعْ ، فرجع فقال لها : ما حَمَلَك عَلَى ما صنعْتِ ؟ فأمسكت ، وَألَحَّ عليها فقالت : حَمَلَنى أنَّكَ ثَقِيلُ الصدرِ ، خَفِيفُ العَجِيزَةِ ، سَرِيعُ الإراقَةِ ، بَطِيءُ الإفاقَةِ ، فعرَف تصديقَ قولها وسكَتَ ، فلمَّا أصبح أتى عَلْقَمَةَ بنَ عَبَدَةَ الفحـــلَ وهو فى خَيمَتِه وَخَلْفَه أُمّ جَندَب ، فتذاكروا الشعرَ ، فقال امرؤ القيس : أنا أشعَرُ منك ، وَقال علقمةُ مِثلَ ذلك ، فتحاكما إلى أُمّ جُندَب . ففَضَّلَت أُمّ جُندب علقمةَ عَلَى امرئ القَيس ، وَمطلع قصيدة امرئ القيس :

خَلِيلَيَّ مُرَّابى على أُمِّ جُنْدَبِ ... أُقَضِّ لُبانات الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

وَمطلع قصيدة علقمة :

ذَهَبْتَ مِن الهِجرانِ فى غيرِ مَذهب ... ولم يَكُ حَقًّا كُلُّ هذا التَّجَنُّبِ

فقال لها زَوجُها امرؤ القيس : بأىِّ شىء غَلَبْتِه ؟ قالت : لأنك قلتَ :

فَلِلسَّوطِ أُلْهُوبٌ وَلِلساقِ دِرَّةٌ ... وللزَّجْرِ منه وَقْعُ أهوَجَ مِنْعَبِ[1]

فَجَهَدْتَ فَرَسَكَ بَسَوْطِك ، ومَرَيْتَه بساقِك وزَجْرِك[2] ، وأتعبْتَه بجَهْدِك ،

---

(١) منعب : أحمق مصوّت ، والمنعب أيضاً : الذى يَمدُّ عنقه فى العَدْو — الجرى —

(٢) مَرَى الفرس : استخرج جَرْيَه .

وقال علقمة :

فَوَلَّى على آثارِهِنَّ بحاصبٍ وغَبْيَةِ شُؤْبوبٍ مِنَ الشَّدِّ مُلْهَبِ (١)
فأدْرَكَهُنَّ ثانياً مِن عنانِهِ يَمُرُّ كَمَرِّ الرائحِ المُتَحَلِّبِ (٢)

فلم يَضْرِب فَرَسه بسَوْطٍ ، ولم يَمْرِه بساقٍ ، ولم يُتْعِبْه بزَجْرٍ . فَغَضِبَ امرُؤ القيس مِن قَولِها وطَلَّقَها ، وَخَلَفَ عليها عَلْقَمَةَ » .

* * *

وفى ضدّ ذلك يقول سيدُنا رَسول الله : خيرُ نسائكم التى إذا خَلَعَت ثوبَها خلعت معَه الحياء ، وإذا لبِسَتْه لَبَسَت معه الحياء «يعنى مع زَوجها» .

* * *

ويقول الله عَزَّوجل : «واللَّاتي تَخافونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ واهْجُروهُنَّ فى المضاجِع ، وَاضْرِبوهُنَّ ، فإنْ أطَعْنكم فلا تَبْغُوا عليهِنَّ سبيلا» .

يقول سبحانه : «الرِّجالُ قَوَّامُون على النساء بما فَضَّلَ الله بَعضَهم على بعض ، وبما أنفقوا مِن أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حَفِظ الله» . . .

---

(١) على آثارهِن يعنى البقر ، وبحاصب يعنى بَعْدٍ — جَرْى شديد — كالحاصب من المطر وهو العظيم القطر ، والغبية : المطرة التى تجىء شديدَة ، والشؤبوب أول كل شىء وحدَّته ، وملهب : مثير للهب من شدة جريه ، واللهب : الغبار الساطع كالدخان المرتفع من النار .

(٢) الرائح : السحاب الذى يأتى بالعَشِى ، والسحاب أغزر ما يكون بالعشى ، والمتحلب : المتساقط المتتابع .

أنجب الأولاد ولد الفارك :

وقال المبرِّدُ فى الكامِل : ويقال : أنْجَبُ الأولادِ وَلَدُالفارِك — الفارك : التى تُبْغِضُ زَوْجَهَا — وذلكَ لأنَّها تُبْغِضُ زَوْجَها فيَسْبِقُها بِمائِهِ ، فيَخْرُجُ الشَّبَهُ إليْه ؛ فيخرجُ الولَدُ مُذَكَّراً ، قال : وكان بعضُ الحكماء يقول : إذا أَرَدْتَ أن تَطْلُبَ ولدَ المرأةِ فَأَغْضِبْها ثُمَّ قَعْ عَلَيْها ، فإنَّكَ تَسْبِقُها بالماء ، وكذلِكَ وَلَدُ الفَزِعَة — الخائِفَةُ — كما قال أبو كبير الهُذَلى[1] — ونوردُ جميع أبياته التى اختارَها أبو تمام فى حَماسَتِه ، وهى أبياتٌ قالها الشاعر يصف رَيبه « تأبَّطَ شَرًّا[2] » بالنجابة وأنه تـــلاقى فى برديه جميع صفات الرجال المحمودة — قال :

(١و٢) هو عامر بن حُلَيس أحد بنى سعد بن هذيل وهو مخضرم ، أسلم ، وأتى إلى سيدنا رسول الله بعد أسلامه وقال له : أحِلَّ لى الزنا ، فقال له سيدنا رسول الله : أتحب أن يؤتى إليك مثل ذلك ؟ قال : لا ، قال : فارض لأخيك ما ترضَى لنفسك ، قال : فادع الله أن يذهبه عنى ، وكان سبب قول أبى كبير هذه الأبيات أنه تزوج أم تأبط شرا ، وكان تأبط شراً صغيرا . فلما رأى أبا كبير يكثر الدخول على أمه تنكر له ، وعرف ذلك أبو كبير فى وجهه فقال أبو كبير لأمه : ويحك ، قد والله رابنى أمر هذا الغلام ولا آمَنُه ، فلا أقْرَبك ، قالت : فاحْتَل عليه حتى تقتله ، فقال له ذات يوم : هل لك أن تغزو فقال : ذاك من أمرى ، فخرجا ليلا حتى إذا أدركهما مساء اليوم الثانى أبصرا نارًا يعرف أبو كبير أنها نار أعداء لتأبط شرا فوجهه إليها ، فرأى عليها رجلين من ألَصِّ العرب ، فوثبا إليه يريدان قتله ، فلما كان أحدهما أقرب إليه من آخر عطف عليه فقتله ورجع إلى الآخر فرماه أيضاً فقتله ثم جاء إلى نارهما فأخذ الخبز وجاء إلى أبى كبير فألح عليه حتى أخبره الخبر ، فخاف أبو كبير منه ، فلما رجعا قال : إن أم هذا الغلام لا أقربها أبدًا

وَلَقَدْ سَرَيْتُ عَلَى الظلام بِمِغْشَمٍ ... جَلْدٍ مِنَ الفِتْيَانِ غَيْرِ مُثَقَّلِ (١)

مِمَّنْ حَمَلْنَ بِهِ وَهُنَّ عَوَاقِدٌ ... حُبُكَ النِّطَاقِ فَشَبَّ غَيْرَ مُهَبَّلِ (٢)

حَمَلَتْ بِهِ فِى لَيْلَةٍ مَزْءُودَةٍ ... كَرْهًا وَعَقْدُ نِطَاقِهَا لَمْ يُحْلَلِ (٣)

فَأَتَتْ بِهِ حُوشَ الفُؤَادِ مُبَطَّنًا ... سُهُدًا إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الهَوْجَلِ (٤)

وقال هذه الأبيات ، أما تأبط شراً فهو أشهر من أن يعرّف إذ هو الشاعر الجاهلى أحد لصوص العرب وأحد غربانها — سودانها — وأحد رآبيلها — جمع رئبال وهو الذى ولدته أمه وحده — وقد اختار له أبو تمام فى حماسته عدة مقطوعات بديعة .

(١) على الظلام : أى فى الظلام ، أو تقول : وأنا راكب الظلام ، والمغشم : الذى يعتسف الطريق على خفائها أو الذى يرتكب الأمور من غير تمييز ، والجلد : الصُّلب القوى وغير مثقل أى أنه مقبول حبيب إلى القلوب فهو ليس بثقيل على النفوس .

(٢) الضمير فى حملن للنساء وإن لم يجر لهن ذكر ، والحُبك : جمع حبك : مايشد به النطاق ، والنطاق يروى الثياب ، والنطاق : به شقة تلبسها المرأة ترسل أعلاها للركبة بعد شد وسطها بالحبك وتدع الأسفل ينجر على الأرض ، والمهبل : المدعو عليه بالهبل وهو الثكل ، يقول : إنه من الفتيان الذين حملت أمهاتهم وهن غير مستعدات للفراش فنشأ محموداً مرضياً لم يُدْع عليه بالثكل والفقد .

(٣) الزؤد : الفزع ونسبه إلى الليلة لوقوعه فيها يقول : إنها أكرهت على الجماع إذ لم يُحَلّ نطاقها فجاء الولد نجيباً .

(٤) حوش الفؤاد : ذكىّ الفؤاد متوقده ، المبطن : الخميص البطن ، والسهد الذى لاينام من السُّهاد ، والهوجل : الثقيل الكسلان وجعل الفعل لليل لأنه يقع فيه يقول : إنّ الأم أتت بهذا الولد ذكياً حديد القلب نشيطا قليل النوم إذا نام الكسلان الوَخْم

ومُبَرَّأً مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ (١)

فَإِذَا نَبَذْتَ لَهُ الْحَصَاةَ رأَيْتَهُ ... ينزو لِوَقْعَتِهَا طُمُورَ الأَخْيَلِ (٢)

وَإِذَا يَهُبُّ مِنَ الْمَنَامِ رأَيْتَهُ ... كُرْتُوبِ كَعْبِ السَّاقِ لَيْسَ بِزُمَّلِ (٣)

مَا إِنْ يَمَسُّ الأَرْضَ إِلاَّ مَنْكِبٌ ... مِنْهُ وحَرْفُ السَّاقِ طَيَّ الْمِحْمَلِ (٤)

---

(١) غُبَّر الحيض : بقاياه ، والمُغْيِل : من الغَيل وهو أن ترضع المرأة ولدها وهى تُوْتى أو ترضعه وهى حبلى وذلك يضوَى منه الولد ، وفى الحديث (لا تقتلوا أولادكم سرًّا فإنَّ الغَيْل يُدْرِكُ الفارس فيذعر من فرسه : قال فى اللسان : الغيل : لبن المرأة إذا إذا حملت وهى تُرْضِعُ وسمى هذا الفعل قتلا لأنه يفضى إلى القتل وذلك أنه يضعفه ويرخى قواه ويفسد مزاجه وإذا كبر واحتاج إلى نفسه فى الحرب ومنازلة الأقران عجز عنهم وضعف فربما قتل إلا أنه لما كان خفياً لا يدرك جعله سراً ، والاسم الغيلة ، وفى الحديث (لَهَمَمْتُ أن أنْهَى عن الغيلة) الغيلة : أن يجامع الرجل امرأته وهى ترضع ، يقول الشاعر : إنها حملت به وهى طاهر ليس بها بقية حيض ووضعته ولا داء به استصحبه من بطنها فلا تقبل علاجاً ، لأن داء البطن لا يفارق ، ولم ترضعه أمه غيلة ، وكانت العرب تذهب إلى أن المرأة إذا حملت فى قُبُل الطهر أول الشهر عند طلوع الفجر ثم أذكرت جاءت مما لا يطاق . قال قائلهم :

لَقِحَتْ فى الهلال عن قُبُل الطُّ ... هر وقد لاحَ للصَّباحِ بَشِيرُ

(٢) ينزو : يثب ، وطمور : وثوب ، الأخيل : طائر ، يقول : إنك إذا رميته بحصاة وهو نائم وجدته ينتبه انتباه من سمع بوقعتها بقُوَّةٍ عظيمة فيثب وثوب الطائر الفرع الجبان .

(٣) الرتوب : القيام والانتصاب ، والزمل : الضعيف يقول : إذا استيقظ من منامه انتصب انتصاب كعب الساق ، وكعب الساق منتصب أبداً فى موضعه .

(٤) المحمل : حمالة السيف يقول : اذا نام لا ينبسط على الأرض ولا يتمكن منها بأعضائه كلها حتى لا يكاد يتشمر عند الانتباه بسرعة .

وإذَا رَمَيْتَ به الفِجاجَ رأيتَهُ ... يَهوِى مَخارِقَها هُوِىَّ الأجدَلِ[1]

وإذَا نظَرْتَ إلى أسِرَّةِ وجهِهِ ... بَرَقَتْ كَبَرْقِ العارِضِ المتهلِّلِ[2]

صَعَبُ الكريهةِ لا يُرامُ جَنابُهُ ... مَاضِى العزيمةِ كالحُسامِ المِقْصَلِ[3]

يحمِى الصِّحابَ إذَا تكونُ عظيمةٌ . وإذَا هموا نَزَلُوا فأوَى العُيَّلِ[4]

بعض أوصافهم للنساء :

قال بعض الأعراب : النساء أربع : رَبيع مُرْبِع ، وجَميعٌ تَجمَع ، وشيطان سَمَعْمَع ، وغُلٌّ لا يخلع ، أمَّا الربيع : فالتى إذا نَظَرْتَ إليها سَرَّتْكَ ، وإذا أقسَمْتَ عليها سَرَّتْك ، وأمَّا الجَميع : فالمرأة تَتَزَوَّجها ولها نَشَبٌ — مالٌ وعقار — فتَجْمَعُ نَشَبَك إلى نَشَبِهَا ، وأما الشيطان السمعمع : فالكالحةُ فى وَجْهِك إذا دَخَلْت ، والمُوَلْوِلة فى إثْرِكَ إذا خَرَجْت ، وأمَّا الغُلُّ الذى لا يُخْلَع فبنتُ عمِّك الدميمة السوداء ، القَصيرَةُ الورْهاء ، التى نَثَرَتْ لك ذا بَطْنِها — أى نَسَلت أولاداً كُثْراً — إنْ طَلَّقتهـــا صاع ولُدْك ، وإن أمسكتَها فعَلَى جَدْعِ أنْفك . . . «والسمعمع : الشيطانُ الخبيث ، والورهاء : الحمقاء الخَرقاء» .

---

(١) الفجاج جمع فج : الطريق الواسع فى جبل أو غيره ، والمخارم جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل ، والأجدل : الصقر ، يقول : إنه همام إذا نيطت به الصعاب ذَلَّلها ، ويهوى مخارمها يريد : يهوى فى مخارمها .

(٢) يصفه بحسن البِشْر وطلاقة الوجه يقول : إذا نظرت إلى وجهه رأيت أسارير وجهه تشرق إشراق السحاب المتلألىء بالبرق .

(٣) الكريهة من أسماء الحرب والمقْصَل : القَطَّاع .

(٤) العيل جمع عائل وهو الفقير هاهنا يصفه بأنه شجاع كريم .

النساء ثلاثة أضراب والرجال كذلك :

قال أعرابيٌّ :

كانَ يقال : النساء ثلاثٌ : هَيِّنَةٌ لَيِّنَةٌ عفيفَةٌ مُسْلِمَةٌ ، تُعِينُ أهْلَها على العَيْش ، ولا تُعِينُ العَيش على أهلِها ، وأُخْرَى وِعاءٌ للوَلد ، وأُخرى غُلٌّ قملٌ يَضَعُهُ اللهُ فى عُنُقِ مَن يَشاء ، والرجَال ثلاثةٌ : فهِيِّنٌ لَيِّنٌ ، عفيف مسلم ، يُصْدِرُ الأُمورَ مَصادِرَها ، وَيوردُها مَواردَها ، وآخرُ يَنْتَهِى إلى رأى ذى اللُّبِّ والمَقْدِرَة ، فيأخُذُ بقوله وينتَهِى إلى أمْرِه ، وآخرُ حائِرٌ بائِرٌ ، لا يأتَمِرُ لِرُشدٍ وَلا يُطيع المُرشدَ . . .

الطَّلاَق

نظام الطلاق* :

في الحديث الشريف (ما من حَلال أبْغَضَ إلى الله من الطلاق)

وفيه (ما خَلَقَ الله شيئا أبْغَضَ إليه من الطَّلاق)

وفيه (لا تُطَلِّقوا النِّساء الاّ من ريبَة ، فإنَّ الله لا يُحِبُّ الذّوّاقين والذّوّاقات) .

« لا يحب الذّواقين يَعْنِي السَّريعي النِّكاح السَّريعي الطلاق » .

وقال عُمَرُ رضى الله عنه لرجل طَلَّق امرأته : لِمَ طَلقتها ؟ قال : لا أُحِبُّها .

ففال : أكُلُّ البيُوتِ بُنِيَتْ على الحب ؟ أينَ الرِّعاية والذِّمَم ؟

مَن يُطَلِّقُون تبرُّماً أو لِقلَّةِ الموافقة أو لسبب مّا :

طَلَّق أعرابيٌّ امرأتَه وقال :

رَحَلَت أُمَيمَةُ بالطلاقِ وعُتِقْتُ مِن رِقِّ الوَثاقِ

(*) إن نظام الطلاق فى الإسلام لا يدانيه نظام غيره ، فلا هو بالمغلق المحظور حتى يكون أحد الزوجين شجا فى حلق صاحبه ، ولا هو بالسهل الهين فيتخذ من لا ذمام لهم مرتعاً خصباً يتنقلون فيه كما شاءت أهواؤهم ، وأنت تعلم أن قاعدة الحياة الزوجية فى الإسلام (إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، فإن مُحِيَت آية المعروف فَدَبَّت النفرة وساءت العشرة — سواء أكان ذلك من جهة الزوج أو الزوجة أو من جهتهما معاً — فما خير تلك الحياة وما مزية البقاء عليها ! لذلك أبيح الطلاق .

بانَتْ فَلَمْ يألَمْ لَهـــا قلبي ولم تبْكِ المآقي
لَوْ لم أُرَحْ بطلاقهـــا لأَرَحتُ نَفْس بالإياقِ
ودَواءُ ما لا تَشْتَهيـــه النفس تَعْجيلُ الفِراقِ
والعَيشُ لَيس يطيبُ بَـــيزَ اثنَينِ فى غير اتفاق

«عَتَقَ العبد : خرج من الرق ، ويريد بالوثاق عقدة الزواج ، ويريد بالمآقى : العيون والإياق : الهرب» .

وشَكَا الفَرَزْدَقُ امرأتَهُ ، فقال له شَيخٌ مِن بَنى مُضَرَ كانَ أسَنَّ منه : أفَلاَ تَكْسَعُها — تَطْرُدُها — بالمُخْرِجات ! « يعنى الطلاق » فقال : قاتلكَ الله ! ما أعْلَمَكَ مِن شيخ !

وقال بَعضُ الظُّرَفاء لرجُلٍ شَكَا إليه سُوءَ خُلقِ امرأتِه بَخِّرْها .

«بُمثَلَّثة : أى بيمين مثلثة ، بِمُثَلَّثَةٍ بالطلاق الثلاث» .

وطَلَّق رجل امرأةً عَدَدَ النُّجوم ؛ فقال ابن عبّاس : يَكْفيه مِن ذلك هَقْعَةُ الجوزاء . « الهقعة : ثلاثة كواكب نيّرة فوقَ مِنْكَبِي الجوزاء قريب بعضها من بعض ، كالأثافِيّ[1] ، إذا طلَعت مع الفجر اشتدّ حر الصيف » .

* * *

وكان بالمدينة زَمَن المنصور والمهدىّ قاضٍ يقال له : عبد العزيز بن المُطّلِب بن عبد الله بن ضَطَبِ المخزومى ، فخاصَمَت اليه امرأةٌ زَوجَها ، وكانت قالت : أجَعْتَنى وأسأتَ إلَىّ ، والله ما تستطيع فيرانُ بيتكَ أنْ يَمْشِيَ

(١) الأثافى القطعة فى الجبل تجعل القِدر عليها وعلى حَجَرين أمامَها ومن ذلك المثل : رماه الله بثالثة الأثافى ، أى بداهية ، وثالثة الأثافى هى القطعة فى الجبل .

من الجهد ، وما يقمن إلا على الوطن ! فقال الرجل : أنت طالق إن كنّ ما يقمن إلا على الوطن ، فخبّرت المرأة القاضي بما قالت وقال زوجها ، فقال القاضي يطلب له المعاذير : وربّك إنّ الإبل لتكون بالمكان الجديب الخسيس المرعى فتقيم به لحبّ الوطن ، فقال الزوج حين رآه يحتال لئلا يفرّق بينهما : كأنما أشكلت عليك ، هي طالق عشرين ، فقال القاضي : قد خفّفت الأمر علينا . . .

وطلّق رجل امرأته ، فقالت : أبعد صحبة خمسين سنة ؟ فقال مالك عندنا ذنب غيره . . .

ومن طرف الأصمعي ما حدّثه ، قال : قلت للرشيد يوماً : بلغني يا أمير المؤمنين أن رجلاً من العرب طلّق خمس نسوة قال الرشيد إنما يجوز ملك رجل على اربع نسوة فكيف طلّق خمسا قلت : كان لرجل أربع نسوة ، فدخل عليهنّ يوماً فوجدهن متلاحيات متنازعات — وكان الرجل شنظيرة[1] — فقال : إلى متى هذا التنازع؟ ما إخال هذا الأمر إلا من قبلك — يقول ذلك لامرأة منهن — اذهبي فأنت طالق ! فقالت له صاحبتها : عجّلت عليها بالطلاق ، ولو أدّبتها بغير ذلك لكنت حقيقا ، فقال لها : وأنت أيضا طالق ! فقالت له الثالثة : قبّحك الله ! فوالله لقد كانتا إليك محسنتين ، وعليك مفضلتين ! فقال : وأنت أيتها المعدّدة أيادهما طالق أيضا ، فقالت له الرابعة — وكانت هلالية وفيها أناة شديدة — ضاق صدرك عن أن تؤدّب نساءك إلا بالطلاق ! فقال لها : وأنت طالق أيضا ! وكان ذلك بمسمع جارة له ، فأشرفت عليه وقد سمعت كلامه : فقالت : والله ما شهدت العرب عليك

(١) شنظيرة = سيء الخلق

وعلى قومك بالضّعف إلاّ لِما بَلَوْهُ منكم ووَجَدُوه منكم ، أبَيْتَ إلاّ طلاقَ نِسائك فى ساعَةٍ واحِدَة ! قال : وأنتِ أيضا أيَّتُها المُؤَنِّبَةُ المُتَكلِّفَةُ طالِقٌ ، إنْ أجازَ زَوجُكِ ! فأجابَهُ من داخِلِ بَيتِه : قد أجَزْتُ ! قد أجَزْتُ !

* * *

وَطلّقَ رَجُلٌ امرأته ، فقيل له ماصَنَعْتَ ! قال : طَلَّقْتُها والأرضَ من ورائِها . « يُريد : لا أقْرَبُ ناحِيَةً هى بها » .

* * *

وكان عند بعضهم امرأةٌ ، فأساءت إليه يوما ، فقال لها : أمْرُكِ بيَدِك ، فقالت : لقد كان فى يدك عِشرين سنة فأحسَنْتَ حِفْظَه ولم تُضَيِّعْه ، أفأضَيِّعُهُ فى ساعَةٍ واحِدَةٍ إذْ صار فى يَدِى ! قد صَرَفْتُهُ إليك ورَدَدْتُ عليك حقك ، فأعْجَبَهُ ذلك منها وأمْسَكها . . .

* * *

وَدَخَلَ المُغيرة بنُ شُعْبَة يوما على زَوجَتِه فارِعَةَ الثَّقَفِيَّة ، فوَجَدَها تَتَخَلَّلُ حين انفتلت من صلاة الغـــداة ، فقال لها : إنْ كُنتِ تَتَخَلَّلِينَ مِنْ طعام البارحة فإنَّكِ لَقَذِرَة ، وإن كانَ من طعام اليوم إنَّكِ لَنَهِمَةٌ ، كُنتِ فَبِنْتِ قالت : والله ، ما فَرِحْنا إذ كُنَّا ، ولاَ أسِفْنَا إذْ بِنَا ، وما هو بِشَىءٍ مما ظَنَنتَ ولكنّى استَكْتُ فأرَدت أنْ أتَخَلَّلَ بالسِّواكِ ، فَنَدِم المغيرة على ما بَدَر منه فَخرج أسِفاً ، فلقِيَ يوسُفَ بنَ أبى عقيل — والد الحَجّاج — فقال له : هل لك إلى شىء أدعوك إليـــه ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : إنى نَزَلتُ الساعةَ عن سيِّدَة نساء ثقيف ، فَتزَوَّجْها ، فانَّها تُنْجِبُ لك ، فَتزَوّجها فوَلَدَت له الحَجّاج . . .

المتبرم بامرأته المتمنى طلاقها :

حدَّث الأصمعيُّ قال : كنتُ مُؤَاخِياً لرجُلٍ من أهْل حِمَى ضريَّةَ ، وكانَ جواداً رثَّ الحال ، فمرَرْتُ به يوماً فى بَعض تَرَدُّدى على الأحياء فإذا هو كئيب ، فسألته عن شأنه فقال :

«دِمَشْقُ خُذِيها واعلمى أنَّ ليلةً ... تَمُرُّ بِعُودَىْ نَعْشِها ليلةُ القَدْرِ»
«شَرِبتُ دَماً إن لم أَرُعْكِ بِضَرَّةٍ ... بَعيدَةِ مَهْوَى القُرطِ طيِّبَةِ النَّشْرِ[1]»
«أمَالَكِ عُمْرٌ إنَّمَا أنتِ حَيَّـــةٌ ... إذا هِيَ لَمْ تُقْتَلْ تَعِشْ آخِرَ الدَّهرِ»
ثمانِينَ حَولا لا أَرَى مِنكِ راحَةً ... لِهَنَّكِ فى الدُّنيا لَبَاقِيَةُ العُمْرِ[2]
فَإِنْ أَنقَلِبْ مِن عُمْرِ صَعْبَةَ سالِماً
تَكُنْ مِن نِساء الحَيِّ لِى بَيضَةَ العُقْرِ[3]

---

(١) شربت دَماً ذهبوا فى معناها مذاهب أحدها أن الدم حرام فى الاسلام فكأنه قال : أتيت حراماً ، والثانى أن العرب كان الرجل منهم إذا أرْمَل — افتقر — ولم يجد زاداً فصد بعيره فأرسل من دمه بقدر الحاجة ثم أدناه من النار فأكله ، والثالث أن يريد بقوله شربت دماً : عجزت عن إدراك الثأر وأخذتُ الدية إبلا فشربت ألبانها فكأنه قد شرب دماً كما قال الآخر :

وإن الذى أصْبَحْتُمُ تشربونه ... دم غير أن اللونَ ليس بأحْمَرَا

(٢) لِهَنَّكِ : لأنَّك .

(٣) بيضة العقر مثل يضرب للمرَّة الأخيرة يقال : كانت بيضة العقر أى لا أعود إليها «انظر اللسان مادة عقر» .

والبيتان الأخيران لِعُرْوَةَ الرَّحال[1] فَأَقْبَلْتُ عليه أَعِظُه وأُصبِرُهُ ، فأنشأ يقول :

فَلَوْ أَنْ نَفْسِى فى يَدَىَّ مُطيعَتى ... لأرْسلتُها مما أُلاقى مِن الهمِّ
ولو كان قَتْلِيهـــا حَلالاً قتلتُها ... وكانَ وُرودُ المَوتِ خيراً مِنَ الغَمِّ
تَعَرَّضْتُ للأفْعى أُحاوِل وَطْأَها ... لَعَلِّىَ أَنْجُو مِن صُعَيـــبَةَ بالسَّمِّ
فيارَبِّ إكْفِنْها وإلا فَنَجِّنِي ... وإن كانَ يَومِى قَبْلَـها فاقْضِيَنْ حَتْمِى

من طلق امرأته فتبعتها نفسه

الفرزدق والنوار :

حدث أَبُو شَفْقَل راوِيَة الفَرَزْدق[2] قال : قال لى الفَرزْدَق يوماً : امْضِ بنا إلى حَلْقَة الحَسَن — الحَسَن البَصرى — فإنى أُريد أَنْ أُطَلِّقَ النَّوارَ ، فقلت : إنِّى أخافُ عليك أن تَتْبَعَهـــا نفسُك ، ويَشْهَدَ عليكَ الحَسَنُ وأصحابُه ، فقال : امْضِ بِنا ، فَجِئْنا حتى وقفنا على الحَسَن ، فقال : كيف

---

(١) سمى رحالا لأنه كان وفّادا على الملوك وذا قدر عندهم وهو الذى أجاز لطيمة النعمان التى كان يبعث بها فى كل عام إلى عكاظ فقتله البرّاض بن قيس الكنانى واستاق العير فقيل «أفتك من البرّاض» و بسببه هاجت حرب الفجار بين حيَّىْ خِندفَ وقيس وقال أبو تمام :

والفَتَى مَن تعرقته الليالى ... والفيافى كالحيَّة النضناض
كُلَّ يومٍ له بِصَرف الليالى ... فَتكةٌ مثلُ فتكةِ البَرَّاضِ

(٢) وفيه يقول الفرزدق :

أبو شفقل شيخٌ عن الحق جائرٌ ... بِبابِ الهدَى والرُّشدِ غَيرُ بَصِير

أصْبَحْتَ : ياأبا سعيد ؟ فقال : بخير ، كيف أصْبَحْتَ يا أبا فِراس ؟ قال : تَعَلَّمُنْ[1] أن النَّوارَ مِنِّى طالِقٌ ثلاثاً ، فقال الحسنُ وأصْحابُه : قد سَمِعْنا ، قال : فانطلقنا ، قال : فقال لى الفرزدق : يا هذا : إنَّ فى قَلْبى مِن النَّوارِ شيئاً ، فقلت : قد حَذَّرْتُك ، فقال :

نَدِمْتُ نَدامَةَ الكُسَعِيِّ لَمَّا ... غَدَتْ مِنِّى مُطَلَّقَةً نَوارُ[2]
وكُنتُ كَفاقِئِ عَيْنَيْهِ عَمْداً ... فأصْبحَ لا يُضِيء له النَّهارُ
وما فارَقْتُها شِبَعاً ولكن ... رأيتُ الزُّهْدَ يأخُذُ ما يُعارُ[3]
وكانت جَنَّتِى فَخَرَجْتُ منها ... كآدَمَ حين أخْرَجَهُ الضرارُ
ولو أنى مَلَكتُ يَدِى ونفْسِى ... لكان علىَّ للقَدَرِ الخِيارُ

قَيس وَلُبْنَى :

أمَّا قَيسُ بن ذَرِيح وَلُبْنَى بنت الحباب الكَعْبية فحديثهما يطول[4] ، وليس مما يَعنينا هنا ، ولكن الذى يعنينا هو ما آل إليه أمر قيس بعد أن طلَّقها ، قالوا : لَمَّا أَلَحَّ ذَرِيح على ابنه قَيس في طَلاق لُبْنَى فأبى ذلك قَيس ، طَرَحَ ذَرِيحٌ نَفْسَه فى الرَّمْضاء وقال : لا والله لا أريمُ هذا المَوضعَ حتى

---

(١) تَعَلَّمُنْ : فعل أمر مسند إلى واو الجماعة المحذوفة مؤكدا بالنون الخفيفة .

(٢) الكسعى هو رجل من كُسَع كَزُفَر حَىٌّ من اليَمَن رُماة ، وحديثه مشهور .

(٣) وما فارقتها شبعاً كنى بذلك عن البطر وقوله : رأيت الزهد ، فالزهد ضد الرغبة فى الشىء والحرص عليه .

(٤) انظر حديث قيس ولبنى فى الأغانى ج ٩ طبعة دار الكتب فهناك ما ينقع غلتك .

أموت أو يُخَلِّيهَا ، فجاءهُ قومُه مِن كلِّ ناحِيَةٍ ، فعَظَّمُوا عليه الأَمرَ وَذَكَّرُوه بالله وقالوا : أتفعل هذا بأبيك وأُمِّك ؟ إن ماتَ شيخُك على هذه الحال كنتَ مُعِيناً عليه وشريكا فى قتله ! ففارق لُبْنَى على رَغْمِ أنْفِهِ وقِلَّةِ صَبْرِه .

وبُكاءٍ منه ، حتَّى بَكَى لهما من حضرَهُما ، وأنشأ يقول :

أقُولُ لُخَلِّتِي فى غير جُرْمٍ ألا بينى ، بنَفْسى أنت ، بينِي
فَوَ اللهِ العَظِيم لَنَزْعُ نفسى وقَطْعُ الرجل مِنِّى واليمينِ
أَحَبُّ إلَىَّ يا لُبْنَى فِراقا فَبَكِّى لِلفِراقِ وأَسْعِدِينِي
ظَلَمْتُك بالطلاق بغَيرِ جُرمٍ فقد أذْهَبتُ آخِرَتى ودينى

فلما سمعت بذلك لُبْنَى بَكَت بكاءً شديدا وأنشأت تقولَ :

رَحَلْتُ اليه مِن بَلَدى وأهلى فجازانى جزاءَ الخائِنِينا
فَمَنْ رَانى فلا يَغْتَرُّ بعدى بِحُلْوِ القول أو يبلو الدَّفِينا

فَلَمَّا انقضت عدَّتُها وأرادت الشخوص إلى أهلها أُتِيَتْ براحِلةٍ لِتُحْمَلَ عليها ، فلَمَّا رأى ذلك قيسٌ داخله منه أمر عظيمٌ واشتد لهفهُ وقال في ذلك شعرا ، ثُمَّ ارتحلت لبْنَى ، فجعَلَ قيس يُقبِّل مَوْضعَ رِجليها من الأرض وحَول خبائِها . فلما رأى ذلك قومُه أقبلوا على أبيه بالعَذْلِ واللوم ، فقالَ ذَرِيح لما رأى حاله تلك : قَد جنيتُ عليك يا بُنَىّ ، فقال له قيسٌ : قد كنتُ أخبِرُك أنى مجنون بها فلَمْ تَرض إلاّ بقَتلِي ، فالله حسْبُكَ وحَسْبُ أُمِّى !

وأقبلَ قومُه يَعذُلونَه فى تقبيله التراب ، فأنشأ يقول :

فَا حُبِّى لِطِيب تُراب أرْضٍ ولكن حُبُّ مَن وَطِىء التُّرابا
فهذا فعلُ شيخِينا جميعاً أرادا لى البَلِيَّةَ والعذابا

ومن جيِّد شعر قيس فى لُبْنَى قصيدته العينية ، والمختار منها قوله :

أَتَبْكِى على لُبْنَى وأنت تركتها ... وكُنْتَ كآتٍ حَتْفَهُ وهو طائعُ
فيا قَلْبُ صَبْرًا واعتِرافًا لما تَرَى ... وَيا حُبَّها قَعَ بالذى أنت واقعُ[1]
ويا قلبُ خَبِّرْنى إذا شَطَّتِ النَّوَى ... بلُبْنَى وَبانَتْ عنك ما أنتَ صانعُ ؟
أَتَصْبِرُ لِلْبَيْنِ المُشِتِّ مَعَ الجَوَى ... أم أنتَ امرُؤٌ نامِى الحَياءِ فجازِعُ ؟
كأنَّك بِدْعٌ لَمْ تَرَ الناسَ قبلَها ... ولَمْ يَطَّلِعْكَ الدهرُ فيمَنْ يُطالعُ[2]
أَلاَ يا غُرابَ البَيْنِ قد طِرْتَ بالذى ... أُحاذِرُ مِن لُبْنَى فهل أنت واقعُ ؟
فليس مُحِبٌّ دائِمًا لِحَبيبـــه ... ولا ثِقَةٌ إلا لَهُ الدهرَ فاجعُ
كأنَّ بِلادَ اللهِ ما لم تكنْ بِها ... وإن كانَ فيها الناسُ ، قَفْرٌ بَلاقعُ
فما أنتَ إذ بانت لِبَيْنَى بهاجِعٍ ... إذا ما اطمأنَّت بالنيام المضاجعُ
أُقَضِّى نَهارى بالحديثِ وبالمُنَى ... ويَجْمَعُنِى والهَمَّ بالليل جامعُ
نَهارِى نهارُ الناسِ حتى إذا دَجا ... لِىَ الليلُ هَزَّتْنِى إليك المضاجِعُ
لقد رَسَخَت فى القلب مِنك مودَّةٌ ... كما رَسَخَت فى الراحَتَينِ الأصابِعُ

إلى أن قال :

وليس لأمرٍ حاوَلَ اللهُ جَمعَهُ ... مُشِتٌّ ولا ما فَرَّق اللهُ جامِعُ
فلا تبْكَيَنْ فى إثرِ لُبْنَى نَدامَةً ... وقد نَزَعَتْها مِن يَدَيك النوازِعُ

وقد اختُلِف فى آخرِ أمر قيس ولبْنَى ، فذَكَرَ أكثرُ الرُّواة أنهما ماتا على افتراقِهما ، فمنهم من قال : إنَّه مات قبلَها ، وبلَغَها ذلك فماتت أسَفًا

---

(١) يقال : اعترف للأمر : أى صَبر .

(٢) البدع : الغمر من الرجال ، وهو الذى لم يجرب الأمور .

عليه ، وفيهم من قال : بل ماتت قبله ، ومات بعدها أسفاً عليها ، و ذكر آخرون أنَّ ابن أبي عتيق صارَ إلى الحَسَن والحُسَين ابْنَيْ علي بن أبي طالب وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم وجماعةٍ من قُريش ، فقال لهم : إنَّ لي حاجةً إلى رَجُلٍ أخشَى أنْ يَرُدَّني فيها ، وإنِّي أستَعينُ بجاهِكم وأموالكم فيها عليه ، قالوا : ذلك لكَ مُبتَذَلٌ مِنَّا ، فاجتمَعوا اليوم وَعَدَهُم فيه ، فمَضى بهم إلى زَوْج لبْنَى : فلما رآهُم أعْظَمَ مصيرَهم إليه ، وأكْبَرَه ، فقالوا : لقد جئناكَ بأجْمَعِنا في حاجةٍ لابن أبي عتيق ، قال : هي مَقْضِيَّةٌ كائِنَةً ما كانت ، قال ابن أبي عتيق : قد قَضَيْتَها كائنةً ما كانت من مِلْكٍ أو مالٍ أو أهل ؟ قال نَعَمْ ، قال : تَهَبُ لهم ولى لبْنَى زَوجَتَك وَتُطَلِّقُها ، قال : فإنِّي أُشْهِدُكم أنَّها طالقٌ ثلاثاً ، فاستَحْيَا القَوم واعتذروا وقالوا : وَاللهِ ما عَرَفنا حاجَتَه ، ولو علِمنا أنَّها هذه ما سألناكَ إياها ، قالوا : فعَوَّضَهُ الحسن من ذلك مائة ألف درهم ، وَحملها ابنُ أبي عَتيق إليه ، فلم تَزَل عنده حتى انقَضَتْ عدَّتُها فسأل القَومُ أباها فزَوْجَها قَيساً ، فلم تَزَل معه حتى ماتا ، قالوا :

فقال قَيس يمدَحُ ابنَ أبي عتيق :

جَزَى الرحمنُ أفضَلَ ما يجازِي ... على الإحْسانِ خَيْراً مِنْ صَدِيقِ
فقد جرَّبتُ إخـــوانِي جميعاً ... فما ألْفَيتُ كابْنِ أبي عتيق
سَعَى في جَمْعِ شَمْلي بعْدَ صَدْعٍ ... وَرَأْيٍ حِدْتُ فيه عن الطريقِ
وَأطْفأَ لوعَـــةً كانت بقَلْبي ... أعَصَّتْنِي حَرارتُهـــا بريقي

فقال له ابنُ أبي عتيق : يا حبيبي أمْسِك عن هذا المديح ، فما يَسْمَعُهُ أحدٌ إلاَّ ظَنَّني فرَّاداً . . .

وطلَّقَ أعرابيٌّ امرأته ثمَّ ندِم فقال :

نَدِمْتُ وما تُغْنِي النَّدامَة بعد ما ... خَرَجْنَ ثلاثٌ ما لَهُنَّ رجوع

ثلاثٌ يُحَرِّمْنَ الحلالَ على الفَتى ... وَيَصْدَعْنَ شعب الدار وَهو جَميعُ

وَمن طُلِّقتْ فتألَّبت :

جاء فى أمالى القالى : كانت أُمُّ الضَّحاك المُحَارِبيَّةُ تحت رجل من بَنى الضَّباب وكانت تُحِبّه حُبًّا شديداً ، فطلَّقها ، فقالت :

هَلِ القَلْبُ إنْ لاقَى الضِّبابِيَّ خالِيًا

لَدَى الرُّكْنِ أو عِند الصفَا مُتَحَرِّجُ

وأعْجَلَنا قُربُ المَحَلِّ وبيننا ... حَدِيثٌ كَتَشْنَاجِ المَرِيضَيْنِ مُزْعِجُ[1]

حديثٌ لَوَ ان اللَّحْمَ يَصْلَى بِحَرِّهِ ... طَرِيًّا أَتَى أصحابَهُ وهو مُنضَجُ

ولها أيضا :

سألتُ المُحِبِّينَ الذين تَحَمَّلوا ... تباريحَ هذا الحُبِّ مِن سالِفِ الدَّهْرِ

فقلت لهم : ما يُذْهِبُ الحُبَّ بَعْدما ... تَبَوَّأَ ما بين الجوانح والصدر؟

فقالوا : شفاءُ الحب حُبٌّ يُزيلهُ ... مِنْ آخَرٍ أوْ نأىٌ طويل على هَجْر

أو البأس حَتَّى تَذْهَلَ النفس بعدما ... رَجَتْ طمعًا واليأسُ عَوْنٌ على الصَبْر

ولها حين سَلَت عنه :

تَعَزَّيتُ عن حُبِّ الضِّبابِيِّ حِقْبَةً ... وَكُلُّ عَمايا جاهلٍ سَتَثُوبُ

يقول خَليلُ النَّفْسِ : أنتِ مُرِيبَةٌ ... كلانا لَعَمْرِى قَد صَدَقْتَ مُرِيبُ

---

(١) كتشناج يروى أيضاً كتشنيج وكلاهما : الأنين .

وأرْيَبَنـــا مَن لا يُؤَدِّى أمَانَةً ولا يحفظُ الأسرارَ حين يغيبُ[1]
أَهْفَا بِما ضيَّعْتَ وُدّى وما هَفَا فُؤادِى بِمَنْ لم يَدْرِ كيف يُثيبُ

قرب تطليق المرأة من تزوجها :

زوّجَ بعضُهم ابنته من عَمْرو بن عثمان ، فلما مَضَت إليه طَلَّقَها على المنصّة[2] . فجاء أبوها إلى عبد الله بن الزُّبير ، فقال : إن عمرو بن عثمان طَلّق ابنتى فى المَنصَّة ! وأخْشى أن يَظُنَّ الناس أن ذلك لِعاهَةٍ ! وأنت عَمُّه ، فعاتِبْه ، فقال : أو خيراً من ذلك ؟ ائتونى بالمُصعَب — هو المصعب أخو عبـــد الله ابن الزبير — فزَوّجَها منه وأقْسَم ليدْخُلَنّ بها مِن ليلته ، فما رؤيت امرأةٌ نُصبت على رَجُلَيْنِ فى ليلة سواها . . .

وتَزَوّج الوَليد في خِلافَتِه نَيِّفاً وسبعين امرأةً ، فلما دَخَل بالآخرة وأراد أن يقومَ أخَذَتْ بِثَوبِه وقالت : ما تَرى ؟ أَقِمْ لك كفيلا ألا تأمُرَ بِتَسْريحى ! فَصَحِكَ واستَمْلحها وأمسكها أربعة أشهر ، ثم طلّقها بعد ذلك . . .

مراجعة المرأة بعد طلاقها :

قال عز وتقدس (وإذا طلقتم النساء فبلَغْنَ أجَلَهُنَّ فلا تَعضُلوهُنّ أن ينكِحْن أزواجَهُنّ) .

«انظر حضهم على الزواج» .

---

(١) أجمع الرواة على أن هذا البيت والذى قبله لجميل بثنية .

(٢) المنصة : الكرسى ترفع عليه العروس فى جلائها .

وطلّق الحسنُ بن عليّ امرأتين : قُرشيّةً وجُعفيّةً[1] . فأرسل إلى كل واحدة عشرين ألفاً وقال للرسول : احفظ ما تقول كلُّ واحدةٍ ، فقالت القُرشيّة : جزاهُ الله خيرا ، وقالت الجُعفيّةُ متاعٌ قليلٌ من حبيب مُفارق فراجعَ الجُعفية .

وتزوّج عبد الرحمن بن أبي بكر عاتكةَ بنت زيد بن عمر ، وقد أُلِفَها حتى اشتغل بها عن كلّ شيء ، فقال له أبوه : طلّقها ، فطلّقها ، وقال :

فلم أرَ مثلي طلّق اليومَ مثلها ولا مثلها في غير شيء تُطلَّقُ

فلما سمع أبوه منه ذلك قال له : راجعها يا بنيَّ فإني أراك مُحبًّا لها . .

تفويضه الطلاق إليها :

رُوي عن عائشة رضي الله عنها ، لمّا أنزل الله تعالى (يا أيُّها النّبيُّ قُلْ لأزْواجك : إن كُنتنَّ تُردْن الحياة الدُنيا وَزينَتَها فتعالينَ أُمتّعكُنَّ وأُسَرّحكُنَّ سَراحاً جَميلاً ، وإن كُنتُنَّ تُردْن اللهَ ورسوله والدارَ الآخرةَ فإنَّ الله أعدَّ للمُحْسنات منكُنَّ أجْراً عظيما) دَخَل النّبيُّ ﷺ وقال : إنّي ذاكرٌ لكِ أمْراً ، فلا عليكِ ألا تعْجَلي بشيءٍ حتّى تَستَشيري أبَويك ، وخَشِيَ النّبيُّ حداثةَ سنّي ، فقلت : يا رسول الله ، وما ذاك ؟ قال : إنّي أُمِرتُ أنْ أُخيّرَ كُنَّ ، ثم تلا الآيةَ علينا ، فقلت : فيمَ أستشير أبَوَيَّ ! بل أختارُ الله ورسوله والدارَ الآخرةَ ، فَسُرَّ ﷺ بذلك ، وكذلك فعَل مع سائرِ نسائه وأقول : وكان سببُ نزول هذه الآية الكريمة ، أوهذا التخيير أن أُمّهاتِ

---

(١) جعفية نسبة إلى الجعُف — حي من اليمن — وجُعفى : أبو قبيلة في اليمن .

المؤمنين أردن يوماً شيأ من الدنيا ، مِن ثياب وزيادَة نَفَقَة ، وتَغايَرْنَ[1] ، فَغَمَّ ذلك رسول الله (صلعم) ؛ لأن مَتاعَ الدنيا ليسَ مِمَّا يَعْنيه وليس مما ينبغى أن يُعنى به أزواجُه رضوان الله عليهنّ .فنزَلَت هذه الآية الكريمة فآثَرن الآخرة على الدنيا ، وزالت غَيرتهُنَّ ، قال علماؤنا فى حكمة التخيير فى الطلاق : إذا قال لها : اختارى ، فقالت لزَوجها : اخْتَرْتُكَ ، لم يَقع شيء بإجماع فُقهاء الأمصار ، وعن عائشة رضى الله عنها : خَيَّرَنا رسول الله ﷺ فاخْتَرْناه ، فَلَمْ يَعُدَّ ذلك طلاقاً ، أمَّا إن قالت : اخترت نَفْسِي فقد اختلفوا : هل يقع طلقةً واحِدةً رَجْعِيَّةً أو بائناً أو يقع ثلاثاً ؟ (راجع كتب الفقه) هذا : وأمّا المُتْعَةُ التى جاءت فى الآية وفى آيات أخرى فهى على وَجْهَيْنِ ، أحدهما واجب لا يسَعُه تركه ، والآخر غير واجب يستَحَبُّ له فعله : فالواجب للمطلَّقَة ، التى لم يكن زَوجُها حين تزوّجَها سَمَّى لها صداقاً ولم يكن دَخل بها حتى طلَّقَها ، فعليه أن يُمَتِّعها بما عَزَّ وهانَ مِن متاعٍ ينفَعُها به ، مِن ثوبٍ يُلبسُها إياه أو خادم يَخدُمُها أو دراهمَ أو طعامٍ ، وهو غير مؤقت لأن الله عَزّ وجَل لم يَحْصِرْ بوَقت وإنَّما أمَر بتمتيعها فقط وقد قال : (على الموسِع قَدَرُه وعلى المُقتِرِ قَدَرُه مَتاعاً بالمعروف) وأمّا المُتعـــة التى ليست بواجبة وهى مستحبَّة من جهة الإحسان والمحافظة على العهد فأنْ يتزوّجَ الرجل امرأةً ويُسَمِّى لها صداقاً ثم يُطلِّقها ، قبل دخوله بها أو بعده فيُستحب له أن يُمَتِّعها بمُتعَة سوى نصف المَهْر الذى وَجَب عليه لها إن لم يكن دخل بها أو المهر الواجب عليه كله إن

---

(١) تغايَرْن : شاعت فيهن الغيرة مما يَرَون من نِعمة غيرهن وتوسعة أزواجهن فى الاعتياد عليهن .

كان دخل بها فيمتّعها بمتعة ينفعها به ، وهي غير واجبة عليه لكنه استحباب .

أما تسريح المرأة فهو : تطليقها .

طلاق السنة :

قال جَلّ وعلا (يأيُّها النّبيُّ إذا طلقتم النساء فطلّقوهُن لعدّتهن)

« هذا هو أحسَنُ الطلاق وأدْخَلهُ فى السُّنّة وأبْعَدُهُ منَ النّدَم : أنْ يُطَلّق النساء فى طُهْرٍ لم يُجامَعْنَ فيه ، ثمّ يَدَعُهُنّ أزواجُهُنّ حتى تنقضِيَ عِدّتُهُنّ ، ويُروَى أنّ ابنَ عمرَ طلّقَ امرأتَه وهى حائضٌ ، فأتى عُمرُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكَرَ ذلك له ، فأمَره أن يُراجعها ثمّ لِيُمْسِكْها حتى تطهُرَ ثمّ تحيضَ ثم تطْهُرَ ثم إن شاء أمْسَك بَعدُ وإن شاء طلّقَ قبلَ أن يَمَسّ ، فتلك العِدّة التى أمَرَ الله أن يُطَلّق لها النساء .

الطلاق الثلاث :

قال ابن عَباس : كانَ الطلاق فى عَهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتَيْنِ من خلافة عمرَ طلاقُ الثلاث واحِدَةٌ ، فقال عمرُ : إن الناسَ قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناةٌ ، فلو أمضيناه عليهم ؛ فأمضاه عليهم « أى أن عمر رضى الله عنه لمّا رأى الناسَ أكثروا من الطلاق بلفظ الثلاث جعله بائنا بينونةً كبرى ، وكان ذلك منه اجتهادا ، وعليه العمل إلى الآن إلا عند الشيعة « انظر أعلام الموقعين وشروح البخارى » .

* * *

مَنع الزوج منها بعد الثلاث حَتى تنكح زَوجا غيره :

قال عَزّ وتقدس (فإن طلّقها فلا تحل له من بَعدُ حتى تنكح زوجا غيره) .

ورُوِى أنّ رِفاعَةَ القُرَظِىّ تزوّج امرأةً ثم طلّقها وبتّ طلاقها ، فتزوّجها عبد الرحمن بن الزُّبير ، فلم يستطع أن يمسّها ، فأتت النبىّ ﷺ ، فذكرت له أنه لا يأتيها وأنّه ليس معه إلا مِثلُ هُدْبَةِ الثوب ، فتبسّم النبىّ صلوات الله عليه ، وقال : لعلك تُريدين أنْ ترجعي إلى رفاعَةَ ! لا ، حتى تذوق عُسَيلَتَه ويذوقَ عُسَيلَتَكِ . وكان أبو بكر جالسا عند الرسول وخالد ابن سعيد بن العاص جالسا على بابَ الحجرة لم يُؤذَنْ لهُ فطَفِق خالد يتأذّى ويقول : ألاَ تُزْجرُ هذه عما تجهَرُ به . وفى روايةٍ : عما تهجر به .

«من الهُجر وهو الفحش فى القول» .

وسُئل المصطفى صلوات الله عليه عن المُحَلِّل فقال : «لاَ ، إلاَّ نِكاحَ رَغبةٍ ، لا مستَهْزِأً بكتاب الله ، لعَن الله المُحَلِّلَ والمُحَلَّلَ له» .

«قال القاضى عياض : المحال الذى يتزوّج مُطَلَّقَةَ غيره ثلاثاً بقصد أنْ يُطَلِّقَها بعد الوَطْءِ ليُحِلَّ للمطلق نِكاحها ، فكأنّه يُحلِّلُها على الزّوج الأول بالنكاح والوطء ، والمحلّلُ له : الأول ، وإنما لعَنهما لما فيه من هتك المُوَدَّة وقِلّة الحياء والدلالة على خِسّة النفس أمّا بالنسبة للمحلل له فظاهر . وأما بالنسبة للمحلل فإنّه إنما يطؤُها لتحل للأول فكأنه تيس مستعار كما جاء فى بعض الأخبار» .

ذَمُّهم الراغبةَ فى الطلاق والمختلعة :

جاء فى الحديث الشريف : (أيُّمَا امرأةٍ سألَتْ زَوجَها الطلاق من غير ما بأسٍ فحرَامٌ عليها رائحةُ الجَنَّة) .

«من غير ما بأس بزيادة ما للتأكيد ، والبأس : الشِّدَّة أى فى غير حالةٍ شدَّة تُلجئُها إلى المفارقة ، كأنْ تخافَ أن لا تقيمَ حدودَ الله فيما يجبُ عليها من حُسْن الصحبة وجميل العِشرة ، لكراهتها إياه أو بأنْ يُضارَّها لتختلع منه» .

وَعن ابن عباس : أَنَّ امرأةَ ثابت بن قيس أَتَت النَّبي ﷺ فقالت : يا رَسول الله ، ثابتُ ابنَ قيس ما أَعْتِبُ عليه فى خُلُقٍ ولا دينٍ ولكنى أَكْرَهُ الكُفرَ فى الإسلام ! فقال رسول الله (صلعم) : أَتَرُدِّينَ عليه حَدِيقتَه ؟ قالت : نعم ، قال رسول الله : اقبَلِ الحَديقةَ وطَلِّقْها تَطْلِيقَةً) .

«قولها : ولكنى أكره الكُفرَ فى الإسلام نقد قيل إنَّ مُرادَها بالكفر كفران العشير ، إذ هو — كفران العشير — تقصير المرأة فى حق الزَّوج ، وعبارَة بعض العلماء : أخاف على نفسى فى الإسلام ما ينافى حُكمه ، من نُشوزٍ وفَرْك — بُغْض — وغيره مما يُتَوَقَّع من الشابَّة الجميلة المبغضة لزوجها وقيل إن المعنى : إنَّها تخاف أن تحمِلَها شِدَّةُ كراهتها له على إظهار الكفر لِيَنْفَسِخَ نكاحُها منه ، وهى تعرف أن ذلك حرامٌ ، وقوله صلوات الله عليه : أَتَرُدِّين عليه حديقته ؟ فحديقتُه : بُستانه ، وقد كان أصْدَقَها حديقة نخل ، وكان هذا أوَّلَ خُلْعٍ وقع فى الإسلام» ،

العدة :

وكانت المرأةُ فى الجاهِليَّة إذا ماتَ زَوجها تَعمِدُ إلى أَخْشَن ثيابِها فتَلْبَسُه وتقعدُ فى البيت سنَةً فإذا كانَ رأسُ الحول خَرَجت وَرَمَت بِبَعرة على حمار وقالت : قد حللت الآن ، ثمَّ أنزل الله تعالى (والذين يُتَوَفَّون منكم ويَذَرونَ أزْواجاً وَصيَّةً لأزْواجهم مَتاعاً إلى الحَولِ غير إخْراج فإنْ خرَجْنَ فلا جُناحَ عليكم فيما فَعلن في أنفُسِهِنَّ مِن معروف) .

«يقول سبحانه : إنَّه يجب على الذين يُتَوَفَّونَ أن يوصوا قبل أن يحتضروا لزوجاتهم بأنْ يُمَتَّعْنَ بعدهم حولا بالسكنى والنفقة ؛ وكان ذلك فى صدر الاسلام ثمَّ نُسِخَت المدَّة بأربعة أشهر وعشر» .

وقالت أم المؤمنين أُمّ سَلَمَةَ : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : إنَّ ابنَتى تُوُفّى عنها زَوجُها ، وقد اشتكَتْ عينَها ، أفتَكحُلُها ؟ فقال رسول الله : لا ، مرَّتَين أو ثلاثاً ، كُلّ ذلك يقول : لا[1] ، ثم قال رسول الله : إنّما هى أربعة أشهر وعشر : وقد كانت إحدا كُنَّ فى الجاهلية تَرْمِى بالبَعَرَةِ على رأسِ الحَول ، قال راوى الحديث : فقلت : لزينبَ — بنت أبى سلمةَ — وما ترمِى بالبَعَرة على رأسِ الحَول[2] ؟ فقالت زينبُ : كانت المرأةُ إذا تُوُفّى عنها زَوجُها دَخَلَتْ حِفْشا[3] ولَبِسَت شَرَّ ثيابها ولَمْ تَمَسَّ طيباً ، حتى تَمُرَّ بها سَنَةٌ ، ثم تُؤتى بِدَابَّةٍ ، حمار أو شاة أو طائرٍ ، فتَفْتَضُّ به[4] ، فقلَّما تَفْتَضُّ بشىء إلاَّ مات ، ثمَّ تخرُجُ فتُعطى بَعَرَةً فترمى بها ، ثم تُراجِعُ بَعْدُ ما شاءت مِن طيبٍ أو غيرِه . . .

وَأمَّا عِدَّةُ المُطَلَّقة فثلاثة قروء ، قال عَزَّ وجَلَّ (والمُطَلَّقَات يَتَرَبَّصْنَ بأنفُسِهِنَّ ثلاثةَ قُرُوءٍ)[5] والقرء : الطُهر عند الشافعى رضى الله عنه وعند

---

(١) جاء فى حديث أم سلمة فى الموطأ وغيره : اجعليه بالليل وامسحيه بالنهار .

(٢) أى بين لى المراد بهذا الكلام الذى خوطبت به المرأة .

(٣) الحفش فى الأصل : الخُصّ استعير إلى البيت الذليل الشعث البناء .

(٤) قال ابن قتيبة سألت الحجازيين عن الافتضاض فذكروا أنّ المعتدّة كانت لا تَمَسُّ ماء ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ثم تفتض أى تكسر ما هى فيه من العدّة بطائر تمسح به فرجها وتنبذه فلا يكاد يعيش بعد ما تفتضُّ به .

(٥) قال الأصمعى فى قوله تعالى (ثلاثة قروء) : جاء هذا على غير قياس والقياس :

أبي حنيفة : الحيضُ ، قال الشافعي : القرء : اسم للوقت ، فلما كان الحيض يجيء لوقت والطُّهرُ يجيء لوقت جاز أن يكون الأقراء حَيضاً وأطهاراً ، قال : ودلَّت سُنَّةُ رسول الله أن الله عزَّ وجل أراد بقوله (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) الأطهارَ ، وذلك أن ابنَ عُمَرَ لمَّا طلق امرأته وهي حائض فاستفتى عُمرُ النَّبي فيما فعـــل ، فقال : مُرْهُ فليراجعها فإذا طَهُرَت فليُطلِّقْها : إلى آخر الحديث وقد سلف ؛ وصح عن عائشة وابن عمر أنَّهما قالا : الأقراء : الأطهار ، وحقق هذا اللفظ من كلام العرب قولُ الأعشى :

مُوَرِّثَةً مالا وفي الحَيِّ رِفْعَةً لِما ضاع فيها من قُروء نِسائكا

فالقروء هنا : الأطهار لا الحَيض ، لأن النساء إنما يُؤتَينَ في أطهارهنَّ لا في حَيضِهنَّ ، فإنَّما ضاعَ بغَيبَتِه عنهنَّ أطهارهن . . .

هذا ، وقوله تعالى (وأولاتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) في المُطَلَّقَةِ والمُتَوَفّى عنها جميعاً .

الظهار واللعان :

الظهارُ : أن يقول الرجل لامرأته : أنت عَلَيَّ كظَهْرِ أُمِّي[1] ، وكانت

ثلاثة أقْرُء ولا يجوز أن يقال : ثلاثة فلوس وإنما يقال : ثلاثة أفلس فإذا كثرت فهي الفلوس . ولا يقال : ثلاثة رجال انما هي ثلاثة رَجْلة ولا يقال ثلاثة كلاب انما هي ثلاثة أكْلُب ، والنحويون قالوا في مثل هذا : ان التقدير ثلاثة أقراء من قروء وخمسة من الفلوس وَهَلُمَّ جَرًّا .

(١) قال ابن الأثير : قيل : أرادوا أنت عليَّ كبطن أُمِّي ، أي كجماعها ، فكَنَوا بالظهر عن البطن للمجاوَرَة ، وقيل : إن إتيان المرأة وظَهرها إلى السماء كان حراماً.

العرب فى الجاهلية تُطَلِّقَ نِساءها بهذه الكلمة ؛ وكان فى الجاهلية طلاقاً ، فلمَّا جاء الإسلامُ نُهُوا عنه وأوجبت الكَفَّارَةُ على مَن ظاهَرَ من امرأته ، وكانَ أوَّلَ مَن ظاهَرَ فى الإسلام أوسُ بن الصامت أخو عبادَة بن الصامت ، وكانَ تحته ابنة عَمّ له تسمى خَوْلَةَ ، رآها وهى تُصَلِّى ، وكانت حسنَة الجِسْم فلمَّا سلمَت راوَدَها ، فأبَتْ ؛ فَغضِبَ ؛ وكان به خِفَّةٌ ؛ فَظاهَرَ منها ، أى قال لها : أنت علىَّ كظهر أُمِّى ؛ فأتت رسول الله (صلعم) فقالت : إنَّ أَوْساً تَزوَّجَنى وأنا شابَّةٌ مَرغوبٌ فِىّ ، فلمَّا خلا سنِّى ونَثَرْتُ بَطْنى — أى كثُر ولدى — جَعلنى عليه كأُمِّه ؛ وإنَّ لى صِبْيَةً صِغَاراً إنْ ضَمَمْتُهُمْ اليه ضاعوا وإن ضممتهم إلىَّ جاعوا ؛ فقال سيدنا رسول الله : ما أُمِرْنَا فى أمرك بشىء ؛ وروى أنه قال لها : حُرِّمْتِ عليه ، فقالت : يا رسول الله ، ما ذَكر طلاقاً ، وإنَّما هو أبو وَلدى وأَحبُّ الناس إلىَّ ، فقال : حُرِّمْتِ عَلَيْهِ ، فقالت أَشكو إلى الله فاقَتى وَوَجْدِى ؛ فأنزل الله تعالى (قد سَمِع الله قول التى تُجادِلُكَ فى زَوجها وتشتكى الى الله والله يَسْمَعُ تحاوُرَكما انَّ الله سميعٌ بَصير ، الذين يُظاهرون منكم من نِسائهم ماهُنَّ أُمَّهاتِهم انْ أُمَّهاتُهم الا اللائى وَلَدْنَهم وإنَّهم

عندهم ، وكان أهل المدينة يقولون : إذا أتيتِ المرأةُ ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول فلقصد الرجل المطاق منهم الى التغليظ فى تحريم امرأته عليه شبهها بالظهر ، ثم لم يقنع بذلك حتى جعلها لظهر أمه ، وقال فى اللسان : الظهار مأخوذ من الظهر ، وانما خصوا الظهر دون البطن والفخذ والفرج — وهذه أولى بالتحريم — لأن الظهر موضع الركوب والمرأة مركوبة اذا غشيت ، فكأنه اذا قال : أنت على كظهر أمى أراد : ركوبك للنكاح حرامٌ على كركوب أمى للنكاح لأن الناكح راكب ، وهذا من لطيف الاستعارات للكناية . . .

ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفوٌ غفور ، والذين يُظاهِرونَ من نسائهم ثم يَعودون لِما قالوا فتحرير رقبةٍ من قبل أنْ يتماسَّا ذلكم توعظونَ به والله بما تعملون خبير فمن لم يجد فصيامُ شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا . فمَنْ لم يستطع فإطعامُ ستين مسكينا) فلما نزلت هذه الآية الكريمة قال سيدنا رسول الله للمرأة : ادْعِي زوجكِ ، فدعته فقال : هل تجد رقبة تعْتقها ؟ فقال : لا أملكُ رقبةَ غير هذه ! وضربَ بيده عَلَى عُنُقه ، فقال : هل تستطيع أن تصومَ شهرين متتابعين ؟ فقال : إذا لم آكلْ في اليوم ثلاث مرّات غُشِي عليَّ ! فقال: أطْعِمْ ستين مسكيناً ، فقال : والذى بَعثَك بالحق لقد بتنا ليلتنا أوْحاشاً — جياعاً — مالنا طعام ، فدفعَ إليه خمسة عشر صاعاً فقال : ما بين لابَتَيْها أحوج إليه مني[1] ! فقال : كُلْهُ أنت وعيالك . . .

* * *

أما الإيلاء : فقد قال عزّوجل (للذين يُؤلون من نسائهم تربُّصُ أربعةِ أشهُرٍ فإن فاءوا فإنَّ الله غفور رحيم ، وإنْ عزَمُوا الطلاق فإن الله سميع عليم) والإيلاء من المرأة : أن يقول : والله ، لا أقْرَبك أربعة أشهُرٍ فصاعداً أولا أقربك على الإطلاق ، ولا يكون فيما دون أربعةَ أشهر — إلا ما يحكى عن إبراهيم النخعى ، وحُكْمُ ذلك أنه إذا فاء — رجع — إليها فى المدّة بالوطء إن أمكنه أو بالقول إن عجز صح الفيء وحنث القادر ولزمته كفارة اليمين ، ولا كفارة على العاجز ، وإن مضت الأربعة بانت بتطليقة عند أبى حنيفة ، وعند الشافعى لا يصح الإيلاء إلا فى أكثر من أربعة أشهر ثم يوقف المُولى

(١) ما بين لابتيها أى لابَتى المدينة وهما حَرتان تكتنفان بها واللابَةُ حجارة سود .

فإمَّا أن يفيء وإما أن يطلق وإن أبى طلق عليه الحاكم (انظر كتب الفقه).

عبقرية الإسلام فى الطلاق :

مما لا ريب فيه ولا يجمل بِنَظَّارٍ أريب مُنصف أن يُساوِرَه الشَّك فى صدقه وسداده أن نظامَ الإسلام فى الطلاق هو خير نظام فلا هو بالمغلق المحظور حتى يكون أحد الزوجين شجا فى حَلق صاحبه وغُلاً فى عنقه ولا هو بالسهل الهين فيتخذه من لا خـــلاق لهم فى الذِّمام والرعاية مرتعاً خصيباً ينتقلون فيه كما شاءت أهواؤهم ، ذلك أنَّ دستور الإسلام فى الحياة الزوجية هو «إمساكٌ بمعروف أو تسريح بإحسان» فإذا لم يكن ثَمَّةَ معروف ونشب الشقاق بين الزوجين ، وساءت العشْرة ودبَّت عقارب النقرة وَاتسع الخرق على الراقع ، فما خير تلك الحياة ، وماَ فضل البقاء عليها ! وقد جعل الله الزواج داعية الود والرحمـــة والسعادة ؟ لا التعس والبؤس والشقاء ، ومن هنا أبيح الطلاق .

ولقد يكون الطلاق مِن حق المرأة إذا اشترطته فى عقد زوجها ، فأمَّا إذا لم تفعل فهو حقّ الرجل وحده ، وإنما كان ذلك كذلك لأن الرجل فى الأعم الأغلب يَملِكُ من الأناة والحلم وكظم الغيظ ما لا تملك المرأة . . . على أنَّ الاسلام ضيَّق على الرجل مذاهبه فى هذا الحق بهذه الوسائل : —

(١) حضه الرجل على محاسنة الزَّوجة والصبر على نَزَواتها وحسبُك قوله عزَّ وجل (وعاشروهُنَّ بالمعروف فإن كرهتموهُنَّ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وَقد أوردنا عليك فى باب الحض على الوصاة بالنساء ما فيه غناء .

(٢) نَعْيه الطَّلاق على المطلِّقين ، وَقد سمعت قول سيدنا رسول الله (إنَّ أبغضَ الحلال إلى الله الطلاق)[1] .

(٣) تحكيمه فى الخصومة بين الزوجين إذا بدأ الشِّقاق وفى ذلك يقول الله جل وعلا (وإن خِفتُم شِقاق بينهما فابْعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يُريدا إصلاحاً يُوفق الله بينهما إنَّ الله كانَ عليما خبيراً) .

(٤) جعل الله للمرأة بعد الطلاق عِدَّة تعتدُّها فى بيته وهى وفاء الحمل للحامل حتى تضعَ ، وثلاثة أشهر لمن سواها ، وبين أثناء تلك المُدّة يراجع الرجل نَفسَه وتفىء المرأة إلى عقلها ، فإن نزعا إلى عهدهما القديم فى هذا العهد القصير راجع الرجل زوجتَهُ ، وكانَ ذلك خيراً وأبقى وفى ذلك يقول الله جل وعز (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهُن لعِدّتهن وأحْصُوا العِدَّةَ واتقوا الله ربَّكُمْ لا تخرجوهُنّ من بيوتهنّ ولا يخرجن إلاَّ أن يأتين بفاحِشة مُبَيّنة

---

(١) قال فى رحمة الأمة ان الطلاق مع استقامة حال الزوجين مكروه بالاتفاق ، قال أبو حنيفة بتحريمه ، وقال الغزالى فى الاحياء : وليعلم أن الطلاق مباح ولكنه أبغض المباحات الى الله تعالى ، وانما يكون مباحاً اذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل ومهما طلقها فقد آذاها ولا يباح إيذاء الغير بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه قال تعالى (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى لا تطلبوا حيلة للفراق .

وقال صاحب فتح القدير : وأما سببه فالحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله إلى أن قال . غير أن الحاجة لا تقتصر على الكبر والريبة فمن الحاجة المبيحة أن يلقى اليه عدم اشتهائها بحيث يعجزُ أو يتضرر بإكراهه نفسه على جماعها ، وأما إذا لم تكن حاجة فمحض كفران نعمة وسوء أدب فيكره

وتلك حدود الله ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يُحْدِثُ بعد ذلك أمراً) أما الأمر الذى لعل الله يحدثه فمعاودةُ الرأى ومراجعة النفس بعد رياضتها وردّ جماحها وإسلاس قيادها بعد ذلك الهجر القصير الأمد . . . فاذا استكملت العدّة فله أن يُعيدها الى فَيْئِه أو أن يَبِتّ فى فراقها ان لم يكن الى التوفيق سبيل ، فذلك حيث يقول جل ذكره (فاذا بَلَغْن أجلَهُنّ فأمسكوهُنّ بمعروف أوفارقوهُنّ بمعروف وأشهدوا ذَوَىْ عدلٍ منكم وأقيموا الشهادة لله) وللرجل أن يعاود زوجته بعد أن يطلّقها مرّتين ، فإن عاد الى الثالثة حيل بينه وبينها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ، تأديباً له واذلالاً لنفسه ، وقد أمر الله الرجال بمجاملة زوجاتهم والرفق بهنّ وبذل كلّ مايستطيعون بذله فى سبيل مرضاتهن ، فى أيّام عِدّتهنّ فذلك حيث يقول : (أسكنوهُنّ من حيث سكنتم من وُجْدِكم ولا تُضارّوهُنّ لِتُضَيِّقُوا عليهن وان كنّ أولاتِ حمل فأنفقوا عليهنّ حتى يَضَعْن حَمْلَهنّ فإنْ أرْضَعْن لكم فآتوهُنّ أُجُورهُنّ وأْتَمِرُوا بينكم بمعروف وإن تعاسَرْتُم فَسَترضِعُ له أخرى ، لينفق ذو سَعَةٍ من سَعَته ومن قُدِر عليه رزقهُ فَلْيُنْفِقْ مما آتاه الله لا يُكلِّفُ الله نفساً إلاّ ما آتاها سيجعل الله بعد عُسْر يسراً) .

ثُمّ لقد فرَض الله على الرجل أنْ يَرُدّ اليها بقيّةَ ما سَمّاه من مَهْرها حين طلاقها وحرّم عليه أن يسترد شيئاً مما اجتلب لها كائناً ما كان ذلك المُجْتَلَبُ ، وفى ذلك يقول الله جلّت آياته (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتَيْتُمْ احداهُنّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بُهتاناً واثماً مبيناً ، وكيف

تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً)[1] .

أفبَعْدَ هذا يُنعى على الإسلام نظامُه فى الطلاق[2] ؟

---

(١) ملخص من كتاب المرأة العربية .

(٢) أما الأورو بيون فقد قال المرحوم محمد حافظ صبرى فى كتابه القيم « المقارنات والمقابلات» إن لها أحكاماً مختلفة فى جواز الطلاق وعدمه تتغير تبعاً للظروف والأحوال فمن هذه الأمم من لا يجيزه الا بعلة الزنا والعقم والمرض المزمن المانع من التمتع بالمرأة ، ومنها من تجيزه لعدم استقامة حال الزوجين ، ومنها من تجيزه بالتراضى ولو لغير سبب ، ومنها من تقبل الفرقة مع بقاء الزوجية وتحريم الزواج على الفريقين ما دام أحدهما على قيد الحياة «انظر التفصيل فى هذا الكتاب » .

obeikandl.com